

الموسى وعزرا القرنين

جمع وتصنيف

أبراهيم الأبياري

المجلد الأول

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

الباب الأول

حَمْدُ اللَّهِ إِلَى السُّؤْلِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١ - الجزيرة العربية قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم
كان إلى الغرب والشمال من الجزيرة العربية المملكة البيزنطية «الروم» ،
وفي يديها مصر والشام ، وإلى الشرق والجنوب منها مملكة الفرس وفي يديها
العراق واليمن ، وكلتا المملكتين كانت طامعة في السيطرة على الجزيرة العربية ،
وكانت بينهما بسبب ذلك حروب طاحنة امتدت حقبة طويلة .

ولقد أظل الإسلام الجزيرة والحرب قائمة ، لم تحمد فارها إلا مع العام
الثامن والثلاثين بعد السبائة . وحين أخفق الروم في بسط نفوذهم على الجزيرة
حرباً أخذوا ينفذون إليها سلباً ، فهدوا أيديهم إلى الفساستنة في شمالي الجزيرة
يحملون منهم أعوانهم على هذا الغزو السامى ، وكافل الرومان فعل الفرس ،
فإذا هم الآخرون يمدون أيديهم إلى المناذرة ، ملوك الحيرة في الشرق ، يحملون
منهم أعوانهم على الوقوف أمام الغزو الرومانى .

وإذ كان الروم نصارى لكن الفساستنة طرفاً من النصرانية ، وإذا كان
الفرس مجوساً أخذ المناذرة بطرف من المجوسية ، وإذا النصرانية تعرف طريقها
إلى الجزيرة العربية عن طريق الشام ، كما التمس المجوسية طريقها إلى الجزيرة
العربية عن طريق الحيرة ، وإذا الحرب التي كان يلتقي فيها السيف بالسيف ،
تصبح وقد التقي فيها الرأى بالرأى ، يقف الجوس ، ومن ورأىهم اليهود
والنصارى ، ويقف النصارى للمجوس واليهود ، والجزيرة العربية تشهد هذا
الصراع في الرأى فتشارك فيه ، موزعة بين المجوسية واليهودية والنصرانية ،
ويزيد البيئة العربية توزعاً توزع اليهود إلى ربابيين وقرانيين وسامريين ،
وتوزع النصارى إلى يعاقبة ونساطرة وأريوسيين ، هذا إلى توزع الجزيرة
العربية توزعاً آخريين عبادة الكواكب وعبادة الأصنام ، وإذا العرب أوزاع

في الرأي ، أشتات في الفكر ، يمسك كل بما يحلو له ويطيب ، وإذا هم قد نبذوا الكثير مما توارثوه من شريعة إبراهيم وإسماعيل لا يستمسكون منه إلا ببقية قليلة ، كانت تمثل في تعظيم الكعبة ، والحج إلى مكة ، وإذا هم بعد هذا أمة أضلتها الضلالات ، واستهوتها الموبقات ، واستعوذت عليها الخرافات ، تذل للأصنام ، وتستقيم للكهان ، وتستولي الأزمات ، وإذا أخلاقها تراق وتهون على موائد الحجر والميسر ، وإذا عدلها يفوته عليها بنى الأقوياء ، وإذا أمنها ليس لها منه إلا هباء .

ويقال إن أول ما كانت عبادة الحجارة في بنى إسماعيل ، فكان لا يظن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا النُسخ في البلاد ، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تمظيماً له ، فعيناً نزلوا وضموه ، فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى خرج بهم ذلك إلى أن كانوا يعبدون ما استعسروا من الحجارة ، حتى نسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فمبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات .

وكان فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بتعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

وكان الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم :

هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، اتخذوا « سواعاً » برهاط (١) .

وكلب بن وبرة ، من قضاة ، اتخذوا « ودأ » بدومة الجندل (٢) .

وأنم ، وطية ، وأهل جرش ، من مذحج ، اتخذوا « يثوث بجرش » (٣) .

(١) من أرض يلبع .

(٢) من أعمال المدينة .

(٣) من مخاليف اليمن من جهة مكة .

وخيوان - بطن عن همدان - اتخذوا « بموق » بأرض همدان من
أرض اليمن .

وذو السكلاع من حمير ، اتخذوا « نراً » بأرض حمير .
وكان ثلوثات صنم يقال له : « هيانس » يقسمون له من أثمانهم
وحرورهم قهراً .

وكان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة صنم يقال له : « سعد » صخرة
طويلة بفلاة من أرضهم .

وكان لدوس صنم ، يقال له : « ذوالسكين » .
واتخذت فريش صنماً على بشر في جوف الكعبة يقال له : « هبل » .
واتخذوا « أسافاً » و « نائلة » على موضع زمزم ، ينحرون عندهما .
واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً
تسمح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره ،
وإذا قدم من سفره تسمح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل
على أهله .

- وكانت لبني كنانة « العزى » بنخلة (١) .
- وكانت « اللات » لثيف ، بالطائف .
- وكانت « مناة » للأوس والخزرج ، ومن دان بدينهم من أهل يثرب .
- وكان « ذوالخاصة » لدوس وخثعم ، وبجيلة .
- وكانت « فلس » لطيب .
- وكان لحمير وأهل اليمن يبيت بصنماء يقال له « رثام » .
- وكانت « رضاء » يعقلني ربيعة بن كعب بن سعد .
- وكان « ذوالكعبات » ل بكر وتغلب ، ابني وائل .

(١) عن يعين المصدر من العراق إلى مكة .

٢ - الإرهاسات بمولد الرسول

تلك كانت حال الجزيرة العربية من توزع ديني جر إلى توزع اجتماعي ، فشخصت أبصار القلة الواعية من رجالات الجزيرة الراشدين إلى السماء تنشد المون وتستمطر الرحمة ، وجمعت البلبله الفاشية بين أربعة من هذه القلة الواعية ، وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جعش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمرو بن نفيل ، ينظرون لأنفسهم ولأمتهم ، فما انتهوا إلى رأى ، وإذا هم أشتات حين انفضوا كما كانوا أشتاتاً حين اجتمعوا ، لأن الأمر كان أجمل من أن يحمل عبئه غير رسول مؤيد من السماء .

وكانت الإرهاسات تشير إلى ميلاد هذا الرسول ، وإلى أن هذا الرسول اسمه محمد ، وأحمد ، وبهما كان يسمى صلى الله عليه وسلم ، يقول تعالى : (النبيّ الأُمّيّ الذي يمجّدونه مكّتبوا عندكم في التّوراة والإنجيل) . [الأعراف ١٥٧] ، ويقول تعالى : (ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد) [الصف ٦] ، ويقول تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) [الأنعام ٢٠] ، ويقول تعالى : (قل فأتوا بالتّوراة فأنزلوها إن كنتم صادقين) [آل عمران ٩٣] .

فما لا شك فيه ولا تعترضه شبهة أنه لا يجوز للخصم المخالف أن يستشهد على خصمه بما في كتابه ، وينتصر عليه بالتسمية من غير أصل ثابت عنده ، أو مرجع واضح لديه ، وهل الاستشهاد على هذا إلا بمنزلة الاستشهاد على المحسوس ، الذي لا يكاد يقع الاختلاف فيه ؟

وعلى الرغم مما دخل إلى التوراة من تحريف وتبديل فثمة فيها ما يحمل هذه الإشارة إلى محمد ، ولقد جاء هذا التعريف والتبديل إلى التوراة بعدما حُرب بختنصر بيت المقدس ، وأحرق التوراة ، وساق بنى إسرائيل إلى أرض بابل .

ويقال إن هزيراً أملاها في آخر عمره على واحد من تلامذته، وكان هذا الإملاء لاشك عن حفظ فردي، وعن هذه النسخة للملاة كانت النسخ المختلفة، وكان هذا التعريف. ويستدلون على ذلك بما في التوراة من أخبار عما كان من أمر موسى عليه السلام، وكيف كان موته، ووصيته إلى يوشع بن نون، وحزن بني إسرائيل وبكاؤهم عليه، وهذا ونحوه لا يجوز عقلاً أن يكون من كلام الله ولا من كلام موسى.

ثم إنه ثمة توراة في أيدي السامرة تخالف تلك التي في أيدي سائر اليهود في التواريخ والأعياد وذكر الأنبياء، كما أنه ثمة توراة في اليونانية تخالف التوراة العبرانية في السنين بما يربى على ألف وأربعمائة سنة، وهذا التخالف محال أن يتصف به كتاب من عند الله.

وينقل صاحب البدء والتاريخ عن نسخة من التوراة لأبي عبد الله اللارزي: يا داود، قل لسليمان من بعدك إن الأرض لي أورثها محمداً ليست صلاتهم بالطناير، ولا يقدسوني بالأوتار. وفيها: إن الله عز وجل يظهر من صهيون إكليلاً محمداً.

والإكليل هو الرياسة والإمامة، والمحمود: محمد صلى الله عليه وسلم. وفي التوراة العبرية، من قول الله تعالى لإبراهيم: سمعت دعائك في إسماعيل، هاهنا باركت إياه، وكثرت عدده وأسميته جداً جداً حتى لا تعد كثرتة اثنا عشر ملكاً يولد، وأظهره لأمة عظيمة.

وفيها: وجاء الرب من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران.

وساعير جبال فلسطين حيث ظهر عيسى، وفاران: مكة.

وتجد في التوراة العربية (سفر التثنية ، الإصحاح ١٨ ، الآية : ١٥) : يقم
لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون .
ولقد جاء بعد موسى عيسى ، وهو من بنى إسرائيل ، ومقتضى الآية أن
يكون ثمة نبي مرتقب بعد عيسى ، وعمد من ولد إسماعيل ، وإسماعيل
أخو إسحاق ، وإسحاق جد بنى إسرائيل ، وإخوتهم هم بنو إسماعيل .
وتزكي هذا الآية الثامنة عشرة من الإصحاح الخامس والعشرين ، من
سفر التكوين حيث تقول : وسكنوا - أى أبناء إسماعيل - من حوبة
إلى شور التي أمام مصر ، حينما تجيء نحو أشور أمام جميع إخوته نزل .
وكذا تزكيه الآية الثانية عشرة من الإصحاح السادس عشر ، من سفر
التكوين : وأمام إخوته يسكن .

وفي إنجيل يوحنا (الإصحاح : ١٤ ، الآية : ١٥ ، الإصحاح : ١٦ ،
الآية : ٦ - ٧ م) ما يشير إلى إنيان الفارقليط ، ومعنى الفارقليط : الكثير
الحمد ، وهذا المعنى هو ما تعطيه كلمة أحمد ، التي هي من أسماء النبي .
غير أن النص العربي من الإنجيل ، جعل مكان الفارقليط في الموضعين :
المعزى . ففي الموضع الأول يقول الإنجيل : ومتى جاء للمعزى الذي سأرسله
أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب يبشركم فهو
يشهد لي .

والنص في غير النسخة العربية ، على لسان عيسى وهو مخاطب الحواريين :
أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من تلقاء نفسه وهو
يشهد لي بما شهدت له ، وما جئتمكم به سرّاً يأتيكم به جهراً .
وفي الموضع الثاني يقول : وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس

أحد منكم يسألني أين ترضى...! لكنني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتكم المعزى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم.

والنص في غير النسخ العربية: إن الفارقليط روح الحق الذي أرسله أبي باسمي هو الذي يملككم كل شيء. والفارقليط لا يحكم عالم أذهب.

وفي سفر رؤيا يوحنا (الإصحاح: ١٩، الآية: ١١، ١٥): «ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينًا وصادقًا وبالعدل يحكم ويحارب».

ومحمد يدعى الأمين الصادق.

وفيه أيضًا (١٩: ١٥) «ومن فيه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعضًا من حديد وهو يدوس معصرة خمر».

والقرآن الكريم في مضاء السيف أذعنت له الأمم، ومحمد حرم الخمر وما حرمها عيسى.

•••

٣ - نسب الرسول

والعرب كلها من ولد إسماعيل، ومن عدنان تفرقت القبائل، وهو عدنان ابن أدد بن منوم بن ناحور بن تيرج بن يعرب بن يشجب بن ثابت (نبت) ابن إسماعيل، وأم إسماعيل: هاجر، من أم العرب^(١).

فولد عدنان رجلين: معد بن عدنان، وعك بن عدنان.

وولد معد بن عدنان أربعة نفر: قضاة بن معد، وقنص بن معد، ونزار

ابن معد، وإياد بن معد.

(١) أم العرب: قرية كانت أيام القرما من مصر.

وكان قضاة بكر معد الذي به يكنى ، فتيامن إلى حمير بن سبأ ، وكان اسم سبأ عبد شمس ، وإعنا سبأ ، لأنه أول من سبى في العرب .
وأما قنص بن معد فهاكت بقيتهم . وكان منهم النعمان بن المنذر ، ملك الحيرة .

• • •

وولد نزار بن معد : مضر بن نزار ، وربيعة بن نزار ، وأنمار بن نزار ، وإباد بن نزار .

فولد مضر بن نزار رجلين : إلياس بن مضر ، وعيلان بن مضر .
فولد إلياس بن مضر ثلاثة نفر : مدركة بن إلياس ، وكان اسمه عامراً ، وطابخة بن إلياس ، وكان اسمه عمراً ، وقعة بن إلياس ، وكان اسمه عميراً ، وأمه خندف ، امرأة من اليمن .

فولد مدركة بن إلياس رجلين : خزيمه بن مدركة ، وهذيل بن مدركة .
فولد خزيمه بن مدركة أربعة نفر : كنانة بن خزيمه ، وأسد بن خزيمه ، وأسدة بن خزيمه ، والمهون بن خزيمه .

فولد كنانة بن خزيمه أربعة نفر : النضر بن كنانة ، ومالك بن كنانة ، وعبد مناة بن كنانة ، وملكان بن كنانة .

فولد النضر بن كنانة رجلين : مالك بن النضر ، ويخلد بن النضر .
فولد مالك بن النضر : فهر بن مالك ، وهو قرشي ، فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس قرشي .

فولد فهر بن مالك أربعة نفر : غالب بن فهر ، ومخارب بن فهر .
والخارث بن فهر ، وأسد بن فهر .

فولد غالب بن فهر رجلين : لؤى بن غالب ، وتيم بن غالب .

* * *

فولد لؤى بن غالب أربعة نفر : كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى ، وسامة ابن لؤى ، وعوف بن لؤى .

فأما سامة بن لؤى فنخرج إلى عمان ، فبينما هو يسير على ناقته ، إذ وضعت رأسها ترتع ، فأخذت حية بمشفرها فمهرتها ، حتى وقعت الناقة لشقها ، ثم نهشت الحية « سامة » فقتلته .

وأما عوف بن لؤى فإنه خرج في ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غطفان آخاه ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، فشاخ نسيبه في بني ذبيان .

* * *

فولد كعب بن لؤى ثلاثة نفر : مرة بن كعب . وعدى بن كعب ، وهصيص بن كعب .

فولد مرة بن كعب ثلاثة نفر : كلاب بن مرة ، وتيم بن مرة ، وبقظة ابن مرة .

فولد كلاب بن مرة رجلين : قصي بن كلاب ، وزهرة بن كلاب .

فولد قصي بن كلاب أربعة نفر وامرأتين : عبد مناف بن قصي ، وعبد الدار بن قصي ، وعبد العزى بن قصي ، وعبد قصي بن قصي ، ونخمر بنت قصي ، وبرة بنت قصي .

فولد عبد مناف — واسمه المغيرة بن قصي — أربعة نفر : هاشم ابن عبد مناف ، وعبد شمس بن عبد مناف ، والمطلب بن عبد مناف ، ونوفل ابن عبد مناف .

فولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة : عبد المطلب بن هاشم ،
وأسد بن هاشم ، وأبا صيفى بن هاشم ، ونفلة بن هاشم ، والشفاء ، وخالدة ،
وضعيفة ، ورقية ، وحية .

فولد عبد المطلب بن هاشم عشرة نفر وست نسوة : العباس ، وحزرة ،
وعبد الله ، وأبا طالب ، واسمه عبد مناف - والزبير ، والحارث ، وحجلا ،
والمقوم ، وضراراً ، وأبا لهب - واسمه عبد المزي - وصفية ، وأم حكيم
البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأروى ، وبرة .

• • •

فولد عبد الله بن عبد المطلب ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيد ولد آدم
عمداً ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبه) بن هاشم (عمرو)
ابن عبد مناف (المغيرة) بن قصي (زيد) بن كلاب بن مرة بن كعب
ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة
(عامر) بن مضر بن معد بن عدنان .

وأمه : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة
ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأما : برة بنت عبد المزي بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب
ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأم برة : أم حبيب بنت أسد بن عبد المزي بن قصي بن كلاب بن مرة
ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأم أم حبيب : برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب
ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف ولد آدم حسبا ، وأفضلهم نسبا ،
من قبل أبيه وأمه ، صلى الله عليه وسلم .

• • •

٤ - ولاية البيت

ولما توفى إسماعيل بن إبراهيم ، ولي البيت بعده ابنته ثابت بن إسماعيل ،
ثم ولي البيت بعده مضاض بن عمرو الجرمي .

ونشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرم ولاية البيت والحكام ،
لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك غزواتهم وقرابتهم .

ثم إن جرهما بنوا بمكة ، فظلموا من دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال
الكعبة الذي يهدى لها . فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغبشان
من خزاعة ، ذلك ، أجموا لحربهم وإخراجهم من مكة ، فأذنوم بحرب فانتتلوا
فقلبهم بنو بكر وغبشان ، فنقوم من مكة .

ثم إن غبشان ، من خزاعة ، وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناة ،
وكان الذي يليه عمرو بن الحارث الغبشاني ، وقريش إذ ذاك متفرقون في قومهم
من كنانة ، فوايت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان
آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي .

• • •

ثم إن قصي بن كلاب خطب إلى حليل بن حبشية ابنته «حبي» ، فرغب
فيه حليل فزوجه فولدت له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد المزي ، وعبدأ .
فلما انتشر ولد قصي ، وكثر ماله ، وعظم شرفه ، هلك حليل ، فرأى
قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشا
نخبة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة
ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة ، فأجابوه . فكتب إلى أخيه

من أمه : رزاح بن ربيعة ، يدعو به إلى نصرته ، والقيام معه ، فخرج رزاح
ومعه إخوته ، فيمن تبعهم من قضاة ، وهم مجنون لنصرة قصى .

* * *

وكان الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بلى الإفاضة
للناس بالحج من عرفة ، وولده من بعده ، وكان يقال له ولولده : صوفة ، وإنما
ولّى ذلك الغوث بن مر لأن أمه كانت امرأة من جرم ، وكانت لا تلد ،
فندرت إن هي ولدت رجلا أن تصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم
عليها ، فولدت : الغوث ، فكان يقوم على الكعبة مع أخواله من جرم ،
وولده من بعده حتى انقرضوا .

* * *

وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفة أو تجيز بهم إذا نفروا من منى .
فإذا كان يوم النفر أتوا رمى الجمار ، ورجل من صوفة يرمى للناس ، لا يرمون
حتى يرمى .

فكان ذوو الحاجات التمتعجلون يأتونه فيقولون له : قم فارم حتى نرمى
معك . فيقول لا والله ، حتى تميل الشمس . فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون
التعجل يرمونه بالحجارة ، ويستمتعجلون بذلك ، ويقولون له : وبلك اقم ،
فارم ، فيأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ، ورمى الناس بعده .

فإذا فرغوا من رمى الجمار وأرادوا النفر من « منى » أخذت صوفة
بجانبى العقبة فحبسوا الناس وقالوا : أجزى صوفة ، فلم يجز أحد من الناس
حتى يمروا ، فإذا نفرت صوفة ومضت خلى سبيل الناس ، فانطلقوا بدمهم .

* * *

فلما كان ذلك العام فعلت صوفة كما كانت تفعل ، فأتاهم قصي بن كلاب
بمن معه من قومه من قريش ، وكفانة وقضاة عند العقبة ، فقال : لنحن
أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فاقتتل الناس قتلاً شديداً ، ثم انهزمت صوفة ،
وغلِبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك ، وانصرف أخوه رزاح بن ربيعة
إلى بلاده بمن معه من قومه .

• - ولاية قصي البيت

فولى قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك
على قومه وأهل مكة فملكوه ، إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه ، حتى جاء
الإسلام ، فهدم الله به ذلك كله .

وكان قصي أول بني كعب بن اؤى أصاب ملكاً ، فكانت إياه الحجابة ،
والسقاية ، والرفادة^(١) ، والندوة^(٢) ، واللواء^(٣) .

فماز قصي شرف مكة كلها ، وممته قريش مجماً ، لما جمع من أمرها ،
ونيمنت بأمره ، فماتت كح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش ، وما
يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم ، إلا
في داره .

فكان أمره في قومه من قريش في حياته ، ومن بعد موته ، كالدين

(١) الرفادة : طعام كانت قريش تجمه كل عام لأهل الموسم .

(٢) الندوة : الاجتماع للمشورة .

(٣) اللواء ، يعني الحرب .

التبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، فيها كانت قريش تقضى أمورها .

فلما كبر قصي ورق عظمه ، وكان عبد الدار بكره ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وكذلك عبد العزى ، وعهد قصي ، قال قصي لعبد الدار : أما والله يا بني لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك : لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يعقد قريش نواء لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل اللوسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريشاً أمراً من أمورها إلا في دارك . فأعطاه دار الندوة ، التي لا تقضى قريش أمراً من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة .

فجعل قصي إليه كل ما كان بيده من أمر قومه ، وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه .

٦ - ولاية هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية

ثم إن قصي بن كلاب هلك ، فأقام أمره في قومه وفي غيرهم بنوه من بعده ، وأقامت على ذلك قريش معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع .

ثم إن بنى عبد مناف بن قصي : عبد شمس ، وهاشمياً ، والمطلب ، ووفلاً ، أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بنى عبد الدار بن قصي ، مما كان قصي جعل إلى عبد الدار ، من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، ففترقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم ، يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار

لمسكانهم في قومهم ، وكانت طائفة مع بني عبد الدار ، يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جبل إليهم .

فكان صاحب أمر بني عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف ، وذلك أنه كان أسن بن عبد مناف ، وكان صاحب أمر بني عبد الدار عامر ابن هاشم بن عبد مناف .

وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تميم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر ، مع بني عبد مناف .

وكان بنو مخزوم بن يثظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب ، وبنو جح بن عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو عدى بن كعب ، مع بني عبد الدار .

وخرجت عامر بن لؤى ، ومحارب بن فهر ، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .



وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضاً ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، ثم خمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا وحلفوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم وتوكلوا على أنفسهم ، فسموا : المطيبين .

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاءهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فسموا : الأحلاف .

فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب ، إذ تداعوا إلى الصلح ، على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لهنى عبدالدار كما كانت ، ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك، ونماجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، فلم يزالوا على ذلك ، حتى جاء الله تعالى بالإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزد إلا شدة » ، يريد المعاقدة على الخير ونصرة الحق .

• • •

فوتى الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف ، وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً فلما يقيم بمكة ، وكان مقلاً ذا ولد ، وكان هاشم موسراً ، فكان إذا حضر الحاج قام في قريش فقال : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته ، وهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة بها ، فإنه والله لو كان مالي يسع ذلك ما كلفتكوه . فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم ، كل امرئ بقدر ما عنده ، فيصنع به للحجاج طعاماً حتى يصلحوا من مكة .

• • •

وكان هاشم فيما يزعمون أول من سن الرحلتين لقريش رحلتى الشتاء والصيف ، وأول من أطعم الثريد بمكة ، وإنما كان اسمه عمراً ، فاسمى هاشماً إلا بهشمه انخبز بمكة لقومه .

• • •

ثم هلك هاشم بن عبد مناف بغزة من أرض الشام تاجراً ، فوتى للسقاية

والرفادة من بعده المطلب بن عبد مناف ، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم ،
وكان ذا شرف في قومه وفضل ، وكانت قريش إغما تسميه الفضل لسماعته وفضله .

* * *

٦ -- ولاية المطلب ثم عبد المطلب ما كان يليه هاشم

وكان هاشم بن عبد مناف قدم المدينة ، فتزوج سلى بنت عمرو ،
فولدت لها هاشم : عبد المطلب ، فسماها شيبه . فتركه هاشم عندها حتى كان غلاماً
دون المراهقة أو فوق ذلك .

ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه ، فقالت له سلى :
لست بمرسلة معك ، فقال لها المطلب : إني غير منصور حتى أخرج به معي .
أن ابن أخي قد بلغ ، وهو غريب في غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف
في قومنا ، نلى كثيراً من أمورهم ، وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة
في غيرهم . وقال شيبه : لست بمفارقها إلا أنت تأذن لي ، فأذنت له ،
ودفعته إليه .

فاحتمله المطلب ودخل به مكة مردفه معه على بعيره ، فقالت قريش :
عبد المطلب ابتاعه ، فيها سمي شيبه : «عبد المطلب» . فقال المطلب : ويحكم ، إغما
هو ابن أخي هاشم ، قدمت به من المدينة .

* * *

ثم هلك المطلب بأرض اليمن ، فولى عبد المطلب بن هاشم السقابة والرفادة ،
بعده عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله

لقومهم من أمرهم ، وشرف في قومه شرقاً لم يبلغه أحد من آباءه ، وأحبه قومه .
وعظم خطره فيهم .

* * *

٨ - حفر زمزم

ثم إن عبد المطلب بينما هو قائم في الحجر إذ أمر بحفر زمزم ، فلما بين
لعبد المطلب شأنها ، ودل على موضعها ، غدا بمعه ، ومعه ابنة الحارث بن
عبد المطلب ، ليس له يومئذ ولد غيره ، وقام ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه
قريش حين رأوا جده ، فقالوا : والله لا نتركك تحفر عند وثيننا هذين اللذين
ننعر عندهما إساف ونائلة . فقال عبد المطلب لابنه الحارث : زدني حتى
أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به .

فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر ، وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا بسيراً
حتى بدا له الطي ، فكبر وعرف أنه قد صدق .

وكانت قريش قبل حفر زمزم قد احتفرت بثاراً بمكة :

حفر عبد شمس بن عبد مناف « الطوى » ، وهي البئر التي بأعلى مكة ،
عند دار محمد بن يوسف الثقفي .

وحفر هاشم بن عبد مناف « بذر » ، وهي البئر التي على فم شعب
أبي طالب .

وحفر أمية بن عبد شمس « الحفر » لنفسه .

وحفرت بنو أسد بن عبد العزى « سقية » .

وحفرت بنو عبد الدار « أم أحراد » .

وحفرت بنو جمع « السنبلة » .

وحفرت بنو سهم « الغمر » .

• • •

فمذت زمزم على البثار التي كانت قبلها ، وانصرف الناس إليها لكانها من المسجد الحرام ، وتفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها . وعلى سائر العرب .

• • •

٩ - نذر عبد المطلب

وكان عبدالمطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم : اثنى وله عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنوه ، لينتحون أحدهم لله عند الكعبة .

فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنونه ، جمعهم ، ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ، ثم اثنتونى ، ففعلوا ثم أتوه .

ثم قال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذي نذر ، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه .

وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه ، كان هو والزيد

وأبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عبد بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر .

• • •

وكان عبد الله أحب وله عبد المطلب إليه ، فلما أخذ صاحب القداح القداح يضرب بها ، قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضرب صاحب القداح ، فخرج القداح على عهد الله فأخذه عبد المطلب بيده ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به ليذبحه ، فقامت إليه قريش فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تمدر فيه ، لئن فعلت هذا لازل الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما جاء الناس على هذا ، انطلق به إلى الحجاز ، فإن بهمرافقها تابع ، فسلبها ، ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحة ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها بخير ، فرسكبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، وما أرادوا به ، ونذره فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عن اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله ، فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم عدوا عليها ، فقالت لهم : قد جاءني الخبر ، كم الهدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل - وكانت كذلك - قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشرة من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فأنحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر ، قام

عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ، وعبد المطلب قائم يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل أربعين . وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل خمسين . وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ستين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل سبعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل مائة . وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل مائة . وقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب ، فقال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات . فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القدح على الإبل ، ثم عادوا الثانية ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ، ثم عادوا الثالثة ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ، فنتحرت ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع .

١٠ - زواج عبد الله بآمنة :

ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فرب به على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وهي عند الكعبة ، فقالت له ، حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبي . قالت : لك مثل الإبل التي نحررت عنك وتزوجني . قال : أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً . فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضماً .

فدخل عليها مكانه ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت . فقال لها : مالك لانرضين عليّ اليوم ما كنت عرضت بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذي كان معك بالأمس .

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، أنه سيكون في هذه الأمة نبي .

١١ - ولادته صلى الله عليه وسلم

وأنت آمنة حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولي : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمداً . وروأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى ، من أرض الشام .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك ، وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به .

وكان مولده صلى الله عليه وسلم بمكة عام الفيل ، بعد قدوم أبرهة بخمسين

ليلة ، وكان أول يوم من المحرم عام الفيل ، يوم الجمعة ، وقدم الفيل يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنين وثمانين للإسكندر الرومي ، وست عشرة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة القدر ، وسنة أربع وأربعين من ملك أنو شروان بن قباذ ملك المعجم .

وولد صلى الله عليه وسلم ثمان ليال خلون من شهر ربيع الأول ، وقيل لاثنتي عشرة ليلة خلت منه . والصحيح أن ولادته كانت يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول ، كما حقق ذلك المرحوم محمود حمدي الفلكي في رسالته ، وهذا اليوم يوافق العشرين من أبريل سنة ٥٧١ م ، وكانت ولادته صلى الله عليه وسلم بالدار التي عند الصفا ، والتي كانت بعد لمحمد بن يوسف أخى العجاج ، فصيرتها الخيزران ، زوج الهدى ، مسجداً .

وكانت قابله التي نزل على يديها الشفاء ، أم عبد الرحمن بن عوف . فلما وضعت أمه صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى جده عبد المطلب : أنه قد ولد لك غلام ، فأتته فانظر إليه ، فأتاه فنظر إليه ، وحدثته بما رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه ، وما أمرت به أن تسميه .

١٢ - حديث رضاعه صلى الله عليه وسلم

فأخذ عبد المطلب فدخل به الكعبة ، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، والتمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم المراضع ، فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر ، يقال لها : حليلة بنت أبي ذؤيب .

واسم أبيه الذي أرضعه صلى الله عليه وسلم : الحارث بن عبد المزي . وإخوته من الرضاعة : عبدالله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة بنت الحارث ، وهي الشيماء ، غاب ذلك على اسمها فلا تعرف في قومها إلا به ، وهم حليلة بنت أبي ذؤيب .

وكانت - مليمة بنت أبي ذؤيب تحدث أنها خرجت من بلدها - مع زوجها
وابن لها صغير ترضعه - وفي نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتبس الرضعاء .
وذلك في سنة شهباء لم تبق شيئاً .

قالت : فخرجت على أتان لي قراء^(١) ، معنا شارف^(٢) ، والله ما تبص
بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في
كذي ما يعنيه ، وما في شارقنا ما يغذيه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتان تلك حتى قدمنا مكة تلتبس الرضعاء ، فما منا امرأة
إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه ؛ إذا قيل لها إنه
يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو للعروف من أبي الصبي فكنا نقول : يتيم ،
وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت
معي إلا أخذت رضيعاً غيري .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إنى لا أكره أن أرجع من
بين صواحيبي ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه . قال :
لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، فلما
أخذته رجعت به إلى رَحلي ، فلما وضعتني في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء
من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ،
وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجي إلى شارقنا تلك ، فإذا هي حافل ،
فعلب منها ما شرب ، وشربت معه ، حتى انتهينا رباً وشبعنا ، فبقنا بخير ليلة .

(١) قراء لونها خضرة .

(٢) الشارف الناقة المسنة .

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : اعلى والله يا حليلة ، لقد أخذت نسمة مباركة . فقلت : والله إني لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا . وركبت أنا أتاني ، وحملته عليها معى ، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حرم ، حتى إن صواحبى ليقطن لى : يا ابنة أبى ذؤيب ، ويمك ! وأربى^(١) علينا ، ألبت هذه أنا نك التي كنت خرجت عليها ، فأقول لمن : بلى والله ، إنها لمى هى . فيقطن : والله إن لها لشأنًا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنى تروح على حين قدمنا به شباعاً لبنًا ، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعياهم : ويلكم ! اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب . فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنى شباعاً لبنًا .

فلم نزل تعرف من الله الزيادة وانظير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً^(٢) .

قالت : فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكته فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فمكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بنى عندي حتى بغلف ، فلانى أخشى عليه وباء مكة .

قالت : فلم نزل بها حتى رده معنا ، فرجعنا به .

• • •

وبعد أشهر حملته حليلة إلى أمه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع

(١) أربى : انتظري .

(٢) جفراً : شديدًا .

أمه آمنه بنت وهب ، وجده عبدالمطلب بن هاشم ، في كفاءة الله وحفظه ،
يقتبه الله نياتاً حسناً لما يريد به من كرامته .

• • •

١٣ - وفاة أمه وكفالة جده عبد المطلب له

فلمّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه آمنه بنت
وهب بالأبواء ؛ بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني
عدى بن النجار ، تزيره إياهم ، فماتت وهي راجعة به إلى مكة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم .
وكان بوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول
فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي ، وهو غلام شديد ، حتى يجلس
عليه ، فيأخذه أصحابه ليؤخروه عنه ، فيقول عبدالمطلب ، إذا رأى ذلك منهم :
دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ،
ويسره ما يراه يصنع .

• • •

١٤ - موت عبد المطلب وكفالة عمه ابي طالب

فلمّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين هلك عبد المطلب بن
هاشم ، وذلك بعد الفيل بثمانى سنين .

• • •

فلمّا هلك عبدالمطلب بن هاشم ولّى زمزم والسقاية عليها بعده العباس بن
عبدالمطلب ، وهو يومئذ من أحدث إخوته سنّاً ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام

وهي بيده ، فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما مضى من ولايته .

• • •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عبدالمطلب مع عمه أبي طالب .
وكان عبدالمطلب يوصي به عمه أبا طالب ، وذلك لأن عبدالله أبا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأبا طالب ، أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة بنت عمرو
ابن عائذ بن عبد بن همران بن مخزوم ، فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده ، فكان إليه ومعه .

• • •

وكان رجل من « لخب » ،^(١) وكان عائفاً ، فكان إذا قدم مكة أتاه
رجال من قريش بفلماهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم ، فأتى أبو طالب بالنبي
صلى الله عليه وسلم وهو غلام مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ثم شغله عنه شيء ، فلما فرغ قال : الغلام ، على به ، فإما رأى أبو طالب
حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل يقول : ويلك ارددوا علي الغلام الذي رأيت آفاً ،
فوالله ليكونن له شأن . فانطلق به أبو طالب .

• • •

١٥ - حديث بحيرى الراهب

ثم إن أبا طالب خرج فركب تاجراً إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع
السير تعلق به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له ، وقال : والله لأخرجن
به معي ، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً .

فخرج به معه ، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب
- يقال له : بحيرى و صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، فلما نزلوا ذلك

(١) لخب : قبيلة من أزد شنوءة .

العام ببحري، وكانوا كثيراً ما يبرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومته صنع لها طعاماً كثيراً ، وذلك شيء رآه وهو في صومته : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتدلت أغصان تلك الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بحري نزل من صومته ثم أرسل إليهم فقال : إني قد صنعت لكم طعاماً يامشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، صفيركم وكبيركم ، عبدكم وحرکم . فقال له رجل منهم : والله يا بحري إن لك لشأناً اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بحري : صدقت ، قد كان ماتقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحييت أن لا كرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم ، لحدائثة سنه ، في رحال القوم تحت الشجرة .

فلما نظر بحري في القوم لم ير الصفة التي يعرف ، فقال : يامشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي . قالوا له : يا بحري ، ما تخلف عنك أحد ينبني أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنّاً ، فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللوات والذري ، إن كان للوم بنا أن يتخلف ابن عبد للطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل باعظه لفظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى مما أسألك عنه . وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألنى بالللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما .

قال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى مما أسألك عنه ؛ فقال له : «سأنى مما بدا لك ، فعمل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، فعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته لقي عنده ، فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منك أقال : ابنى . قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما يبنى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال : فإنه ابن أخى : قال : فما فعل أبوه ؟ قال ، مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجم بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود ، فوالله لن يراوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأسرع به إلى بلاده .

* * *

فخرج به عمه أبو طالب سرياً حتى أقدمه مكة ، حين فرغ من تجارته بالشام ، وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى بكأوه ونحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلاً ، وأفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ،

وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبمدم من الفُحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تنزهاً وتكرهاً ، حتى كان اسمه في قومه الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

• • •

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة ، وبين قيس عيلان ، فشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامهم ، أخرجهم أصحابه معهم ، فكان ينبل على أعمامه ، أى يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

• • •

١٦ - زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمناً وعشرين سنة ، تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب ، وكان سداً حين ذاك ، أربعين عاماً .

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تتعاجر الرجال في مالها بشيء تجعله لهم .

فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتمطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له : ميسرة .

فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام .

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ، ومعه ميسرة .
فلما قدم مكة طى خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف .

وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة ليبية ، يلتقى نسبها مع نسب في جده الأعلى قصي ، كما يلتقى نسبها مع نسب أمه في كلاب بن مرة مع ما أراد الله بها من كرامته . فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا بن عم ، إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرقت في قومك ، وأما نتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك .

ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها ، لو بقدر عليه .

• • •

١٧ - خلف قريش في بنيان الكعبة

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبأ وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهيمون بذلك ليستقوها ، وبها يورن هدمها . وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتعطلت ، فأخذوا خشبها ، فأعدوه لتسقيفها . وكان بمكة رجل قبلي نجار ، فهبأ لهم في أنقبهم بعض ما يصلحها .

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن همران بن مخزوم ، فقال : يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم

إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربياً ، ولا مظلمة أحد من الناس .
ثم إن الناس هابوا هدمها وقرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدوكم
في هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ،
ثم هدم من ناحية الركنين .

فترى الناس تلك الليلة وقالوا : فنظر ، فإن أصيب لم يهدم منها شيئاً
ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء ، فقد رضى الله صنعنا ، فهدمنا .
فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى إذا
انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - وأفضوا إلى
حجارة خضراء أخذ بعضها بعضاً ، فانتهوا عن ذلك الأساس .

• • •

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ،
ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الركن ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن
ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى أعدوا للقتال .

فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدواهم وبنو عدى بن كعب
ابن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا :
لعنة الدم .

فمكنت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد
وتشاوروا وتناصفوا .

ثم إن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عاملاً
أسن قريش كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول
من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه ، ففعلوا .

فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا :
هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

فلما انتمى عليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلى ثوباء ،
فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : اتأخذ كل قبيلة بناحية من
الثوب ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم
بنى عليه .

* * *

١٨ - علم اليهود والنصارى بمبعثته صلى الله عليه وسلم

وكانت الأخبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والسكهان من العرب
قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، لما تقارب من زمانه .

* * *

ويحدث رجال من المسلمين : أن ما دعانا إلى الإسلام ، لما كنا نسمع من
رجال يهود ، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم
علم ليس لنا ، وكانت لا تزال يدتنا وبينهم شرور ، فإذا فلنا منهم بعض
ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن ، فكنا كثيراً
ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبتنا حين دعانا إلى الله تعالى ،
فبادرناهم إليه ، آمنا به وكفروا به .

* * *

وكان سلمة ، من أصحاب بدر ، يقول : كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ،
فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة
والبعث والحساب والليزان والجنة والنار ، فقالوا له : ويحك يا فلان ، أو ترى

هذا كائناً؟ قال : نعم فقالوا له : ويحك يا فلان ، فما آية ذلك ؟ قال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد - وأشار بيده إلى مكة واليمن - فقالوا : ومتى نراه ؟ فنظر إلى - وأنا من أحدثهم سنًا ، قال : إن يستفد هذا الغلام همرة بدركه .

قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسولاً صلى الله عليه وسلم .

١٩ - مبعثه صلى الله عليه وسلم

والا بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وبشيراً للناس كافة .

وكان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفاتق الصبح ، وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده .

ومنكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك إلى أن جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو محراء في شهر رمضان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتكف في حراء ذلك الشهر من كل سنة ، بطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم امتكافه من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به السكبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً ، أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته .

حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر رمضان ، خرج رسول الله

صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى فقال : اقرأ ؛ قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطاني ^(١) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ؛ فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطاني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ؛ فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطاني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب منه الروح . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً .

ثم قامت فجئت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمها - وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتاب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل - فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ورقة : والذي نفسي ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر ، الذي كان يأتي موسى ، وإني لنبي هذه الأمة ، تقول له : فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكافه وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقية ورقة وهو يطوف بالكعبة فقال : يا بن أخي ، أخبرني بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له ورقة : والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس

(١) غطاني : مصرتني مصراً شديداً حتى وجدت منه العفة .

الأكبر الذي جاء موسى ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصركم الله
فصراً بعله .
ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى منزله .

* * *

٢٠ - بدء التنزيل

فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان ، يقول
الله عز وجل : ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ
الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ .

ثم تمام الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله
مصدق بما جاء منه . ومعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على
ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى .

فأمّنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاء من الله ، وكانت أول
من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء منه ، فنخف الله بذلك عن نبيه
صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه ، من رد عليه وتكذيب له ،
إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها .

• • •

ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شق ذلك
عليه فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى ، بقسم له ربه ، وهو الذي أكرمه
بما أكرمه ، ما ودعه وما قلاه ، يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى .
مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَسَوْفَ يُعْطِيكَ
رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيماً فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَانِلاً

فَأَغْفَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَر . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَر . وَأَمَّا بَيْنَنَا
رَبَّكَ فَحَدِّثْ) .

فجمل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى
العباد من به من النبوة ، سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله .

• • •

٢١ - فرض الصلاة

واقترضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ،
فهمز له يعقبه في ناحية الوادي فانهجرت منه عين ، فتوضأ جبريل عليه السلام ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ
رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم قام جبريل ،
فصلى به ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته . ثم انصرف جبريل
عليه السلام .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة فتوضأ لها ، ليريه كيف
الطهور للصلاة ، كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ثم صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صلى به جبريل ،
فصلت بصلاته .

• • •

ويقول ابن عباس : لما افتترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم
أتاه جبريل عليه السلام فصلى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر
حين كان ظله مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء
الآخرة حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع النجر ، ثم جاءه فصلي
به الظهر من غد حين كان ظله مثله ، ثم صلى به العصر به حين كان ظله مثليه .
ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ، ثم صلى به العشاء

الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مسفراً غير مشرف .

٢٢ - إسلام علي بن أبي طالب

وكان أول ذكّر من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وصلى معه ، وصدق بما جاءه من الله تعالى : علي بن أبي طالب بن عبد المطلب
ابن هاشم ، وهو يومئذ ابن عشر سنين .

وكان من نعمة الله على علي بن أبي طالب ، ومما صنع الله له ، وأراد ربه
من الظهور ، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة ،
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أسير بني هاشم :
يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من
هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بني رجلا ،
وتأخذ أنت رجلا ، فقال العباس : نعم .

فانطلقنا حتى أتيا أبا طالب فقال له : إنا زبداً أن نخفف عنك من
عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، قال لهما أبو طالب : إذا تركتما
لي عيالا فاصنعا ما شئتما .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرأ
فضمه إليه . فلم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك
وتعالى نبياً ، فاتبه على رضى الله عنه وآمن به وصدقته ، ولم يزل جعفر عند
العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

R وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حضرت الصلاة خرج إلى شباب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستغنياً من أبيه أبي طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا .

فكنا كذلك ما شاء الله أن يمكنا ، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وها يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخي ، ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟

قال : أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسوله ، ودين أئمتنا إبراهيم ، يثني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت - أي عم - أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوت إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه R فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت .

• • •

٢٣ - إسلام زيد بن حارثة

ثم أسلم زيد بن حارثة . وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق ، فيهم زيد بن حارثة وصيف ، فدخلت عليه همتة خديجة بنت خويلد ، وهي يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : اختاري يا عمه أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك ، فاخترت زيدا ؛ فأخذته ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، فاستوهبه منها ، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه ؛ وذلك قبل أن يوحى إليه .

وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزءاً شديداً ، ثم قدم عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن شئت فأقم عندي ، وإن شئت فانطلق مع أبيك » ؟ فقال : بل أقيم عندك . R

فلم يزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله فصدقه ، وأسلم ، وصلى معه .

• • •

٢٤ - إسلام أبي بكر

ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة ، واسمه عتيق . واسم أبي قحافة عثمان ابن عاصم بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر .

فلهذا أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله .

وكان أبو بكر رجلاً مألوفاً^(١) لقومه ؛ محبباً سهلاً ؛ وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسه ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به قومه ، ممن يشاء ويجلس إليه .

• • •

٢٥ - من أسلم بدعوة أبي بكر

فأسلم بدعاء أبي بكر عثمان بن عفان بن أبي العاصم بن أمية بن عبد شمس ،

(١) المؤلف : الذي يألفه الناس .

والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ،
وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب ،
وسعد بن أبي وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن مرة بن كلاب ،
وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن مرة بن كعب بن لؤي .

فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له فأسلموا وصلوا ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مادعوت أحداً إلى الإسلام
إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردده ، إلا ما كان من أبي بكر بن
أبي قحافة ، ما تلبث عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه .

• • •

٢٦ - من أسلموا بعد ذلك

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن
ضبة بن الحارث بن فهر ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله
ابن مر بن مخزوم ، والأرقم بن أبي الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله
ابن مر بن مخزوم ، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح
ابن مرو بن حصيص بن كعب بن لؤي ، وأخواه قدامة ، وعبيد الله ، ابنا
مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن
مرة ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ، وامرأته فاطمة بنت
الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ، أخت عمر بن الخطاب ، وأسما بنت أبي بكر ،
وعائشة بنت أبي بكر - وهي يومئذ صغيرة - وخباب بن الأرت ، حليف
بنى زهرة ، وعمر بن أبي وقاص - أخو سعد بن أبي وقاص - وعبيد الله

ابن مسعود بن الحارث - حليف بن زهرة - ومسعود بن ربيعة بن عمرو بن سعد
ابن عبد الله - من الفارة - وسليط بن عمرو بن عبد شمس ، وأخوه حاطب
ابن عمرو وعياش بن أبي ربيعة بن الليرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ،
وامراته أسماء بنت سلامة التميمية ، وخنيس بن حذافة بن قيس بن عدي ،
وعامر بن ربيعة - من عنز بن وائل - وعبد الله بن جعش بن رثاب ، وأخوه
أبو أحمد بن جعش ، وجعفر بن أبي طالب ، وامراته أسماء بنت هبيس بن
النعمان ، وحاطب بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب ، وامراته قاطبة
بنت الجليل بن عبد الله ، وأخوه حطاب بن الحارث ، وامراته فكيهة بنت يسار ،
ومعمر بن الحارث بن معمر بن حبيب ، والسائب بن عثمان بن مظعون بن حبيب
ابن وهب ، والمطلب بن أزهري بن عبد عوف ، وامراته رملة بنت أبي عوف
ابن صبيزة ، والنعمان بن عبد الله بن أسيد ، وعامر بن فهير - مولى
أبي بكر الصديق - وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وامراته
أمينة بنت خلف بن أسعد ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس ، وأبو حذيفة
مهشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف -
حليف بن عدي بن كعب - وخالد ، وعامر ، وعافل ، وإياس - بنو البكير
ابن عبد باليل بن قاسب - وهمار بن ياسر - حليف بن مخزوم بن يقظة -
وصهيب بن سنان ، أحد النمرين قاسط .

ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى نشأ ذكر
الإسلام بمكة وتحدث به .

• • •

٢٧ - الجهر بالدعوة

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه

منه وأن ييادى الناس بأمره ، وأن يدعوهم إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ، ثلاث سنين من مبعثه ، ثم قال الله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وأنذرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ رقل إني أنا النذير المبين ﴾ .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشباب فاستنخروا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة ، إذا ظهر عليهم نفر من المشركين ، وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلهم . فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بهظم فشجه ، فكان أول دم هريق في الإسلام .

• • •

فلما يادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهم وعابها ، فلما فعل ذلك فأكروه وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من همم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل .

وحدث علي رسول الله صلى الله عليه وسلم همه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهراً لأمره ، لا يردده عنه شيء .

فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعقبهم^(١) من شيء

(١) لا يعقبهم: لا يرخصهم.

أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه ، وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب : عتبة ، وشيبة - ابنا ربيعة بن عبد شمس - وأبو سفيان بن حرب ابن أمية ، وأبو البختري العاصي بن هشام بن الحارث بن أسد ابن عبد العزى ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى وأبو جهل عمرو ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة والعاص بن وائل بن هاشم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه آحلامنا ، وضلل آباتنا ، فإذا أن تكفه عنا ؛ وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكنيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه .

* * *

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه ، ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتعادوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، وحض بعضهم بعضاً عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومهزة فينا ، وإنا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آباتنا ، وتسفيه آحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو تنازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ؛ ثم انصرفوا عنه .

فمظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلاً لآله .

ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق على وعلى نفسك، ولا تخملي من الأمر ما لا أطيق.

فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه رأى أنه خاذله، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته». ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى، ثم قام بجاء

فلما ولي ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: اذهب يا ابن أخي قل ما أحببت، فوالله لا أسلك لشيء أبداً.

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه، وإجماعه لقراحتهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد^(١) فتى في قريش وأجمله، فنخذه واتخذوه ولماً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وصفه أحلامهم، فقتله، فإنما هو رجل برجل.

(١) أنهد: أخذ وألوى.

فقال : والله لبئس ما تسومونني . أتمطونني ابنيكم أغذوه لكم ،
وأعطيكم ابني تقتلونه ، هذا والله ما لا يكون أبداً .

فقال المطعم بن عدي بن نوفل : والله يا أبا طالب ، لقد أنصفك قومك .
وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمت خذلاني
ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك .

فاشتد الأمر ، وحيت الحرب ، وتنايذ القوم ، وبأدى بمضهم بعضاً .

٢٨ - تأمر قريش على المسلمين

ثم إن قريشاً تذا مروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من
المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم
منهم بعه أبي طالب .

وقد قام أبو طالب ، حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون في بني هاشم
وبني المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه ، من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
والقيام دونه . فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ،
إلا ما كان من أبي لب ، عدو الله .

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ،
وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ،

وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا يختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بفضه بعضاً .

قالوا : فانت يا أبا عبد شمس ، قل وأقم لنا رأياً نقول به .

قال : بل أنتم فتولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بكلام الكاهن ولا سبعة . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو شعر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

ففرقوا منه بذلك ، فجلوا يجلسون بطرق الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لم أمره .

وصدرت العرب من ذلك للموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

• • •

فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب وبلغ البلدان .

ذكر بالمدينة ، ولم يكن حتى من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين ذكر وقبل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود ، وكانوا لهم حلقاء ومعهم في بلادهم .

• • •

٢٩ - ما لقي الرسول من قومه

ثم إن قريشاً اشتد أمرهم ، للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم صفهاءم ، فكذبوه وأذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظاهر لأمر الله لا يستغنى به مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

واجتمع أشرفهم يوماً فى الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وطاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم .

فبينما هم فى ذلك ، إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فعرف ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرف ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : « أتسمعون يامعشر قريش . أما الذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح^(١) » . فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه

(١) بالذبح ، ينى : بالهلاك .

وصاة^(١) ليهدته بأحسن ما يحمد من القول ، حتى إنه ليقتول : انصرف
يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان القدر اجتمعوا
في الحجر ، فقال بعضهم لبعض ذكروا ما بلغ منكم وما بلغكم عنه ، حتى إذا
بدأتم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه
وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ - لما
كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
نعم ، أنا الذي أقول ذلك .

فأخذ رجل منهم عجم رداثة . فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه ، وهو
يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ فانصرفوا عنه .

• • •

٣٠ - إسلام حمزة

ثم إن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا ، فأذاه
وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والضعيف لأمره ، فلم
يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسم
ذلك ؛ ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه ،
راجعاً من صيد له - وكان صاحب صيد يخرج له ، وكان إذا رجع من
صيده لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على

(١) الوصية : الوصية .

فاد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتي في قريش وأشد
شكينة ، فلما مر بالمولاة - وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته -
قالت له : يا أبا همارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آتفاً من أبي جهل ،
وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم
يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم .

فاحتمل حمزة الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف
على أحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه
جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها
فشبهه شجرة منكورة ، ثم قال : أنتشمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك
على إن استطمت !

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل :
دموا أبا همارة ، فإنى قد والله سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .
وتم حمزة رضى الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم من قوله .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز
وامتنع ، وأن حمزة سمينه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

٣٩ - ما كان بين عتبة والرسول

وحيث أسلم حمزة ، ورأت قريش أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزيدون ويكثرون ، قال عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، وهو جالس في نادى
قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا مشر

فريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنمطيه
أبها شاء ، وبكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه .
فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في المشيرة ، والمكان
في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفقت
به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ،
فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد ، اسمع ، قال : يا بن أخي ،
إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جهنم لك من أموالنا حتى
تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا تقطع
أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا
الذي يأتيك رثياً^(١) تراه ، لا نستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب
وبذلنا فيه أموالنا حتى نهرك منه ، فإنه ربما غلب التابع^(٢) على الرجل حتى
يдаوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه ، قال :
أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعل . قال :
(بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا قُرْآنًا مَعْلُومًا . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .
وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي الْأَكِنَّةِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِمْ . ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الرثى : ما يترامى للإنسان من الجن .

(٢) التابع : من يتبع من الجن .

فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتدلاً عليها يسمع منه . ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه . فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعرو ولا بالسعرو ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن نصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكم ملككم ، وهزء عزمكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سعرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

* * *

٣٢ - الرسول وأشرف قومه

وجعل الإسلام ينشوء بسكة في قبائل قريش في الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ، فاجتمع أشرف قريش من كل قبيلة بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابشروا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه . فبعثوا إليه : إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ايكموك فأنهم .

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه رأى ، وكان عليهم حربصاً يحب رشدهم ، حتى جلس إليهم . فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لفكلك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، وما بقى أمر قبيح إلا قد

جئته فيما بيننا وبينك ، وإن كنت غير قابل منا شيئاً عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق ببلادنا ، ولا أقل ماء ، ولا أشدّ عيشاً منّا ، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضي من آبائنا .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فنخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، وسله فليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما ترأى تبغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلمس المعاش كما نلتمسه ، حتى تعرف فضلك ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً . قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً ، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل .

وقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حزيناً آسفاً ، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مبادئهم إياه .

قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إن محمداً قد أتى إلا مانرون من عيب
دينا ، وشتم آبائنا ، ونسفه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله
لأجلن له غداً ببحر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضعت به رأسه ،
فأسلموني عند ذلك أو امنهوني ، فليصنع بعد ذلك بتو عبد مناف
ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نملك لشيء أبداً ، فامض لما تريد . فلما أصبح أبو جهل
أخذ حجراً كما وصف ، ثم جالس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا
رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يفدو ، وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قبلته إلى الشام ، فكان إذا صلى جعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام
يصلى ، وقد غدت قريش فجاءوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل .

فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل
نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه مرعوباً قد يبست يده على
الحجر ، حتى قذف الحجر من يده . وقامت إليه رجال قريش فقالوا له :
مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما
دنوت منه عرض لي دونه فخل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته قط
ولا أنيابه لتفعل قط ، فهم أن يأكلني .

فلما قال لهم ذلك أبو جهل ، قام النضر بن الحارث ، فقال : يا معشر
قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم
غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا
رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قاتم : ساحر ! لا والله ما هو
بساحر ! وقلتم : كاعن ! لا والله ما هو بكاهن ! وقلتم : شاعر ! لا والله

ما هو بشاعر أو وقلم : مجنون إلا والله ما هو بمجنون ! يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

• • •

وكان الأنضر بن الحارث من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلساً فذكر فيه بالله ، خلقه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش ، أحسن حديثاً منه ، فلم يأت ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟

• • •

٣٣ - أول جهر بالقرآن

واجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعه؟ فقال عبد الله ابن مسعود ، أنا . قالوا : إنا نخشام عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . قال : دعوني فإن الله سيمضي .

فقد ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أندبعتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم) رافعاً بها صوته (الرحمن علم القرآن) ثم استقبلها يقرؤها . فتأملوه فجللوا يقولون : ماذا قال ابن مسعود ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا إليه فجللوا يضربون في وجهه ، وجمس يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أتروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك . قال : ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، وأن شتمت لأعدائهم مثلها غداً ؟ قالوا : لا ، حسبك ، قد أسهمتهم ما يكرهون .

• • •

٣٤ - استماع قريش إلى قراءة الرسول

وخرج ليلة أبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، والأخنس ابن شريق ، ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع القمر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رأكم بعض سفهائكم لأوقفتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ا تنازعنا نحن وبنو عبد مناف

الشرف، أطمعوا وأطمعنا، وأعطوا وأعطينا، حتى إذا كنا كفرس رهان قالوا: منا
نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا تؤمن به أبداً ولا تصدقه.
فقام عنه الأحنس وتركه.

* * *

٣٥ - عدوان قريش على المستضعفين من المسلمين

ثم إن قريشاً عدوا على من أسلم يمدبون من استضعفوا منهم؛ فيفتنونهم
عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم
ويعضه الله.

وكان بلال، لبعض بني جمح؛ عولي من مواليهم، وكان صادق
الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح
يخرجه إذا حيت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة
العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر
بعهد وتمبد اللات والعزى. فيقول بلال وهو في ذلك البلاء: أحد، أحد.
حتى مر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً، وهم يصنعون ذلك به
وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية بن خلف: ألا اتقى الله في هذا
المسكين حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته فأنتذه عما ترى. فقال أبو بكر:
أفعل، عندي غلام أسود أقوى منه. هل دينك، أعطيكه به. قال: قد قبلت
فقال: هو لك. فأعطاه أبو بكر عنه غلامه ذلك، وأخذ فاعتقه.

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب. بلال
سابعهم. فقال أبوه أبو قحافة: يا بني، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك
إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلدأ يمتنونك ويقومون دونك! فقال
أبو بكر: يا أبت، إنما أريد ما أريد الله.

* * *

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت الإسلام - إذا حيت الظهيرة ، يذبونهم برمضاء مكة . فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلها ، وهي تآبى إلا الإسلام .

• • •

وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ، أذبه ، وإن كان تاجراً قال : لتكسبن تجارتك ، وإن كان ضيفاً خربه وأغرى به .

• • •

٣٦ - الهجرة الأولى إلى الحبشة

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام .

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صفاراً وولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلاً .

• • •

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش إلى النجاشي ، فيردم عليهم ليهتنوم في دينهم ، ويخرجوهم من ديارهم التي اطمأنوا بها وآمنوا فيها .

فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وهمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي، ولبطارقتة، ثم بعثوا إليه فيهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

فخرجوا حتى قدما على النجاشي، فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد لجأ إلى بلد للملك غلمان مناصفاه، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إليكما ولا يكلمهم. فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلمه البطارقة، فغضب النجاشي وقال: لا أسلمهم أبدا حتى أدعوم فأسألهم عما يقولون، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

فأرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلف ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من العبادة والأوثان، فصدقناه وآمنا به، فمداعلينا قومنا فعدبونا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وحالوا بيتنا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك. فقال لهما النجاشي: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

٢٧ - إسلام عمر بن الخطاب

ولما قدم عمرو بن المصعب ، وعبدالله بن أبي ربيعة على قريش ، ولم يدركا
ما طلبا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردهما النجاشي بما يكرهون ،
وأسلم عمر بن الخطاب - وكان رجلا ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره -
امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة ، حتى غابوا قريشا .

* * *

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلى الحبشة .

وتقول أم عبدالله بنت أبي حثمة : والله إننا لنترحل إلى أرض الحبشة ،
وقد ذهب عامر زوجي في بعض حاجاتنا ، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف
علي وهو على شركه - وكنا نأق منه البلاء أذى لنا وشدة علينا - فقال :
إنه للانطلاق يا أم عبدالله ! قلت : نعم ، والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتونا
وقهرتمونا ، حتى يجعل الله مخرجنا . فقال : صعبكم الله . ورأيت له رقة لم أكن
أراها . ثم انصرف وقد أحزنه خروجنا .

فجاء عامر بحاجته تلك فقلت له : يا أبا عبدالله لو رأيت عمر آتيا ورقته
وحزنه علينا ! قال : أطمعت في إسلامه ؟ قلت : نعم . قال : فلا يسلم الذي
رأيت حتى يسلم حمار الخطاب بأسا منه ، لما كان يرى من غلظته
وقسوته على الإسلام .

* * *

وكانت أخته فاطمة بنت الخطاب ، عند سميد بن زيد بن عمرو بن نفيل ،
وكانت قد أسلمت ، وأسلم بعدها سميد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما
من عمرو .

وكان نعيم بن عبد الله النعمان ، من بني عدى بن كعب ، قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه خوفاً من قومه .

وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يرثها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه قد ذكروا أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم هم حزة ابن عبد المطلب ، وأبو بكر ، وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الذي فرق أمر قريش فأنتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض ، وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فقال : وأي أهل بيتي ؟ قال : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما . فرجع عمر عائداً إلى أخته وخنته ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها ، فلما سمعوا صوت عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها .

وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال :

ما هذه الهينة^(١) التي سمعت؟ قال له: ما سمعت شيئاً، قال: بلا والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه.

وبطش بمخفته سعيد بن زيد. فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها. فلما فعل ذلك قالت له أخته وخخته: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافي، وحلف لها بألته ليردنها - إذا قرأها - إليها.

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسه إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها ﴿طه﴾، فقرأها، فلما قرأ منها صدرأ قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أئد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فإله الله يا عمر».

.. فقال له عند ذلك عمر: فدلى بآخياب على محمد حتى أتته فأسلم. فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه.

(١) الهينة: الصوت الذي لا يفهم.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم همد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب . فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلال الباب فرآه متوشحاً بالسيف . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له . فأذن له الرجل . ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ بمجمع رداءه ثم جذبته جذبة شديدة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأؤمن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم ، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنها صيمنتان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتصفون بهما من عدوهم .

وكان عمر يقول : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتته فأخبره أنى قد أسلمت ؟ قلت : أبو جهل ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، نفرج إليّ

أبو جهل فقال : مرحباً وأهلاً يا ابن أختي ، ما جاء بك ؟ قلت : جئت
لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به .
فضرب الباب في وجهي وقال : قبعك الله وقبح ما جئت به .

٤٨ - تحالف الكفار وحديث الصحيفة

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا
بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من الجأ إليه منهم ، وأن عمر قد
أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصحابه ، وجعل الإسلام يفتش في القبائل ، اجتمعوا واتمروا بينهم
أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم ، وبني المطلب ،
على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يتعاعوا
منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتوافتوا على ذلك ،
ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب
ابن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبة واجتمعوا إليه ، وخرج من بني هاشم
أبو لهب إلى قريش فظاھروهم .

ولقي أبو جهل حكيم بن حزام ، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة
بنت خويلد ، وهي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه في الشعب ،
فتعلق به ، وقال : أتذهب إلى بني هاشم والله لا تبرح أنت وطعامك حتى
أفضحك بمكة .

فجاءه أبو البختری بن هاشم فقال : مالك وله ؟ قال : يحمل الطعام إلى

بنى هاشم . فقال له أبو البختري : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلّ سبيل الرجل .
فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه . فأخذ له أبو البختري مظم بغير فضر به فشجعه ، ووطمه وطعاً شديداً .

وحزّة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ؛ وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيشتتوا بهم .
ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً ،
سراً وجهرًا ، منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس .

• • •

٢٩ - ما لقي الرسول من اذى قومه

فجملت قريش حين منعه الله منها ، وقام عنه وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب درنه وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يهمزونه ويستهرثون به ويخصمون به ؛ وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداهم وفيمن نصب امدادته منهم ، فمنهم من سعى لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار ؛ فكان ممن سعى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن :
أبو لهب بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية حمالة الحطب ،
وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر ، فأنزل الله تعالى فيها : ﴿ نَبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

ثم إن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه

أبو بكر الصديق، وفي يدهما فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرهما
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر. قالت: يا أبا بكر،
أين صاحبك؟ فقد باننى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه.
وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مذمماً، ثم يسبون.
فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا تعجبون لما يصرف الله عنى
من أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذمماً، وأنا محمد.

• • •

وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، إذا رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه: (وبلّ اكملّ همزة
لمزّة. القى جمع مسالاً وعدده. يحسب أن ماله أخلده. كلاً لينبذنّ فى الخطمة.
وما أدراك ما الخطمة. نار الله الموقدة. التى تطلع على الأفئدة. إنها عليهم
مؤصدة. فى عهد ممددي).

• • •

وكان خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينأى
بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً حملها له، حتى
كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه. فقال له: يا خباب،، أليس يزعم محمد
صاحبكم هذا القى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتنى أهلها من ذهب، أوفضة
أوتياب، أو خدم؟ قال خباب: بلى. فقال: فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب
حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حثك فوالله لا تكون أنت وصاحبك
يا خباب آثر عند الله منى ولا أعظم حظاً فى ذلك. فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ
تعالى : ﴿ وَزَيَّرْتَهُ مَا يُغْوِي وَيُبَاطِنَا فَرْدًا ﴾ .

• • •

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد
فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس ؛ وفي المجلس غير واحد من
رجال قريش ؛ فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض له النضر بن
الحارث ؛ فدكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفضمه .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي
حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبيرى : والله ما قام النضر
ابن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من
آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبيرى : أما والله لو وجدته نخصمته ،
فسلوا محمداً : أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد
الملائكة ، واليهود تعبد عزيزاً ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، «عليهما السلام»
فغضب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبيرى ، ورأوا
أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم من
قول ابن الزبيرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كل من أحب أن
يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ، ومن
أمرتهم بعبادته . فأنزل الله تعالى عليه في ذلك : ﴿ إِنَّ الْوَيْبَانَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
الْحَسَنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْمَدُونٌ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴾ .

وكان الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بنى زهرة ،
وكان من أشرف القوم ومن يستمع منه ، فكان بصيب من رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، ويرد عليه ، فأُنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَمِينٍ
هَازِمٌ مَّشَاءً بِنَمِيمٍ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ زَيْمٍ ﴾

* * *

وكان أبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، وعقبة بن أبي معيط ،
متصافيين - حسناً ما بينهما ، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وسمع منه ، فباع ذلك أياً ، فأتى عقبة فقال له : ألم يبلغي أنك جالست محمداً
وسمعت منه ؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك - واستغاظ من اليمين -
إن أنت جلست إليه أو سمعت منه ، أو لم تأنه فتتقل في وجهه . ففعل ذلك عدو
الله عقبة بن أبي معيط . لعنه الله . فأُنزل الله تعالى فيهما : ﴿ وَبِئْسَ الظَّالِمُ عَلَى
يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ .
ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمظلم بال . قد
تكسر ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما رمت ، ثم فته في يده
ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان
هكذا ، ثم يدخلك الله النار . فأُنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَضَرَبْنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ
قَالَ مَنْ مَحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾

* * *

واعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالكعبة : الأسود بن

المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والوليد بن المغيرة ، وأميه بن خلف ،
والعاص بن وائل السهمى - وكانوا ذوى أسنان في قومهم - فقالوا : يا محمد ،
هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فتشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان
الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً
مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا
الكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ
مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ . أى إن كنتم
لا تعبدون الله إلا أن أعبد ما تعبدون ، فلا حاجة لى بذلك منكم ، لكم
دينكم جميعاً ولى دىنى .

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يكلمه وقد طبع فى إسلامه ، فبينما هو فى ذلك إذ مر به ابن
أم مكتوم الأعمى ، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يستقرئه القرآن ،
فشق ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجره ، وذلك أنه
شفله عما كان فيه من أمر الوليد ، وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكره عليه
انصرف عنه عابساً وتركه . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ
الْأَعْمَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ .

٤٠ - رجوع مهاجرى الحبشة

وبانغ أصعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين خرجوا إلى أرض

البشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا يتحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفياً .

فجميع من قسدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً .

* * *

٤١ - ابن مظنون ورده لجوار الوليد

ولما رأى عثمان بن مظنون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء - وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة - قال : والله إن غدوى ورواحى آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى بلة من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبنى ، انتقص كبير في نفسى ، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وقت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك . فقال له : لم يابن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومي . قال : لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ، ولا أريد أن استجير بغيره . قال : فانطلق إلى المسجد فارد على جوارى علانية كما أجرتك علانية . فانطلقا فخرجتا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء برد على جوارى . قال : صدق وجدته وفيه كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره . ثم انصرف عثمان ، وليد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

قال عثمان : صدقت . قال لبيد :

* وكل نعيم لا محالة زائل *

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول . قال لبيد بن ربيعة :
يا مشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟
فقال رجل من القوم : إن هذا سفية في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا
فلا تجدن في نفسك من قوله . فرد عليه عثمان حتى شرى أسرها ، فقام
إليه ذلك الرجل فلطم عينه فغضرها . والوليد بن الغيرة قريب يرى ما بلغ
من عثمان ، فقال : أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك مما أصابها
لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة . فيقول عثمان : بل والله ، إن عيني المصححة
لفغيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعمز منك
وأقدر يا أبا عبد شمس . فقال له الوليد : هلم يا ابن أخي ، إن شئت فعد
إلى جوارك . فقال : لا .

* * *

٤٢ - استجارة ابي سلمة بابي طالب

ثم إن أبا سلمة لما استجار بأبي طالب ، مشى إليه رجال من بني مخزوم ،
فقالوا له : يا أبا طالب ، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً ، فما لك ولصاحبنا
تمنعه منا ؟ قال : إنه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي
لم أمنع ابن أخي . فقام أبو لهب فقال : يا مشر قريش ، والله لقد أكثرتم
على هذا الشيخ ، ما تزالون تتقربون عليه في جواره من بين قومه ، والله
لتنتهن عنه أول تقربين معه في كل ما قام فيه ، حتى يبلغ ما أراد . فقالوا :
بل ننصرف مما تكره يا أبا عتبة ، وكان لهم ولياً وناصراً على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فأبقوا على ذلك . فطمع فيه أبو طالب حين
سمعه يقول ما يقول ، ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وقال شعراً يحمضه على نصرته ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

٤٣ - أبو بكر ورد له جوار بن الدغنة

وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى ، استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجراً ، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين ، لقيه ابن الدغنة أخو بني الحارث بن عبدمناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فقال ابن الدغنة : أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليّ . قال : ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيبة ، وتعين على الذنائب ، وتفعل للعروف ، وتكسب للمعدوم ، ارجع فأنت في جوارى . فرجع معه ، حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة قائل : يا معشر قريش ؛ إني قد أجرت ابن أبي قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بخير . فكفوا عنه .

وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح ، فكان يصلى فيه ، وكان رجلاً رقيقاً ؛ إذا قرأ القرآن استبكي ، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته . فشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة ، فقالوا له : يا ابن الدغنة ، إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى ، وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي ، فتعفن تتخوف على صبياننا ونسائنا وضمفتنا أن يفتنهم ، فأنهيه ومُرّه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء ،

فشى ابن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر ، إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

قال : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد على جوارى . قال : قد رددته عليك . فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ، إن ابن أبى صهافة قد رد على جوارى فشانكم بصاحبكم .

فلقية سفيد من سفهاء قريش ، وهو عامد إلى الكعبة ، فثنا على رأسه ترايباً . فر بأبى بكر الواليد بن المغيرة — أو العاصى بن وائل — فقال أبو بكر : ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفية ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك .

• • •

٤٤ - نقض الصحيفة

ثم إنّه قام فى نقض تلك الصحيفة ، التى تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب ، نفر من قريش ، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن ربيعة بن الحارث ، وذلك أنه كان ابن أخى نضلة بن هاشم ابن عبد مناف لأمه ، فكان هشام لبني هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف فى قومه ، فكان يأتى بالبعر ، وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ليلاً ، قد أوتره طعاماً ، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه ، فيدخل الشعب عليهم ، ثم يأتى به قد أوقره بزاً فيفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن لغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم،
وكانت أمة فاتكة بنت عبد للطلب ، قال : يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل
الطعام وتلبس الثياب ، وأخوالك حيث قد علمت ، لا يباعون ولا يبتاع
منهم ، أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته
إلى مثل مادعائك إليه منهم ، ما أجابك إليه أبداً . قال : ويحك يا هشام ! فإذا
أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله أن لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها
حق أنقضها . قال : قد وجدت رجلاً . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير :
ابننا رجلاً ثالثاً . فذهب إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف فقال
له : يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهد
على ذلك ، موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتهم من هذه ، لتجدنهم
إليها منكم سراغاً . قال : ويحك ! فإذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . قال :
قد وجدت ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال : ابننا ثالثاً . قال : قد
فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال : ابننا رابعاً .
فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدى ،
فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير
ابن أبي أمية ، والمطعم بن عدى . وأنا معك . قال : ابننا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه ، وذكر له
قرباتهم وحقوقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعونني إليه من أحد ؟
قال : نعم ، ثم سمي له القوم .

فاتمدوا خطم الحجبون ليلاً بأهل مكة ، فاجتمعوا هنالك ، فأجمعوا أمرهم

وتعاقدوا على القيام في الصعيفة حتى ينتضوها ، وقال زهير : أنا أبدوكم ،
فأكون أول من يتكلم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أمية
عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ،
أنا كل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكت لا يباع ولا يتباع منهم ؟
والله لا أتمد حتى تشق هذه الصعيفة القاطمة الظالمة .

قال أبو جهل ، وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لا تشق . قال
زمنة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت . قال
أبو البختري : صدق زمنة ، لا أرضى ما كتب فيها ، ولا تقربه . قال
المطعم بن عدي : صدقها وكذب من قال غير ذلك ، نيرا إلى الله منها ، وما
كتب فيها . وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمر
قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، فقام للطعم إلى الصعيفة ليشتقها فوجد
الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

* * *

٤٥ - إسلام الطفيل بن عمرو

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما يرى من قومه ، يبذل لهم
النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش ، حين منعه الله منهم ،
يحذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحسد أنه قدم مكة ورسول الله
صلى الله عليه وسلم بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلاً
شريفًا شاعرًا ليبيًا ، فقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل

الذي بين أظهرنا قد أعضل^(١) بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشقت أمرنا ، وإنا
قوله كالسعر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين
الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ،
فلا تكلمنه ولا تسمع منه شيئاً .

قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكله ، حتى
حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً^(٢) فرقاً من أن يبلغني شيء
من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . قال : فعذوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله
صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة . قال : فقامت منه قريباً ، فأبى الله
إلا أن يسمعي بعض قوله : فسمعت كلاماً حسناً . فقلت في نفسي : وائسكل
أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من التبييح ، فما يمنعني أن
أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبائمه ، وإني
كان قببعا تركته .

فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته ،
حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي كذا
وكذا ، للذي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددت أذني
بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعي قولك ، فسمعت به قولاً
حسناً ، فأعرض على أمرك . قال : فمرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم
الإسلام ، ونلا على القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً
أعدل منه . قال : فأسلت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي الله ، إني

(١) أعضل : اشتد أمره .

(٢) الكرسف : القطن .

امرو مطاع في قومي ، وأنا راجع إليهم ، وداعيتهم إلى الإسلام . ولقد أسلم
بإسلام الطفيل أبوه وزوجته ونفر من قومه .

• • •

٤١ - الإسراء والمعراج

ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى ، وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد نشأ الإسلام بمكة في قريش ، وفي
القبائل كلها .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق - وهي الدابة التي كانت
تحمل عليها الأنبياء قبله - فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه ، يرى الآيات فيما
بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم
الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له ، فصلى معهم ، ثم أتى
بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء . فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : سمعت قائلاً يقول حين عرضت علي : إن أخذ الماء غرق
وغرقت أمته ، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته ، وإن أخذ اللبن هدى
وهديت أمته قال : فأخذت إناء اللبن ، فشربت منه ، قال لي جبريل عليه
السلام : هديت وهديت أمتك يا محمد .

• • •

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غداً على
قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أذكركم الناس هذا والله الأمر (١) البين والله
إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيزهد ذلك
محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب

(١) الأمر : العجب .

الناس إلى أبي بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة . فقال لهم أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يوجبكم من ذلك ، فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما نعجبون منه . ثم أتبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : يا نبي الله ، فصفه لي ، فأبى قد جئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرغم لي حتى نظرت إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئاً ، قال : صدقت . أشهد أنك رسول الله ، حتى إذا انتهى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : وأنت يا أبا بكر الصديق فيومئذ سماه الصديق .

* * *

٤٧ - خروج الرسول إلى الطائف

ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه . ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى فخر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف ، وأشرفهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد باليل بن عمرو

ومسمود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : هو ينزع ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلّمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لا أنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أكلّمك . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد ينس من خير ثقيف ، وقد قال لهم : إذا فعلتم ما فعلتم فآتموا عني . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيئيرهم ذلك عليه .

فلم يفعلوا ، وأغروا به سفاهم وعبيدهم ، وأجشوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفاه ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل شجرة من عنب ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان مالتى من سفاه أهل الطائف .

فلما اطمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العقبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

فلما رآه ابنا ربيعة : عتبة وشيبة ، ومالتى ، تحركت له رجهما^(١) ، فدعوا

(١) الرحم : الصلة والترابطة .

غلاماً لهما نصرانياً ، يقال ، له : عدّاس ، فقالا له : خذ قطعاً من هذا العنب ،
فضمه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه . ففعل
عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله ،
ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله
أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أي البلاد
أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .
فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي . فأكب عداس على رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه . فلما جاءها عداس قال له :
وبلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ،
ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . قال له :
ويحك يا عداس ! لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .



٤٨ - عرض الرسول نفسه على قبائل مكة

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من
خلافة وفراق دينه ، إلا قليلاً مستضعفين ، ممن آمن به ، فكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواضع ، إذا كانت ، على قبائل العرب يدعوهم
إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى
يبين لهم الله ما بعثه به .

ويحدث ابن عباس فيقول : إني لعلام شاب مع أبي بنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بنى فلان ، إني رسول الله إليكم ، بأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعلموا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي وتمنوني ، حتى أبين عن الله ما بعثني به . قال : وخلفه رجال أحول وضوء ، له غديران عليه حلة عدنية . فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه ، قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ، إن هذا يدعوكم أن تساجروا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسموا منه .

قال : فقلت لأبي : يا أبت ، من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟
قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

• • •

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم : أرأيت إن نحن بأيمتك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيبكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدف^(١) نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لفسيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد كانت أدركته السن ، حتى لا يقدر أن يوافق معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه

(١) تهدف ، بالبناء للجهول : تمير هدفاً .

بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألممهما كان في موسمهم ،
قالوا : جاءنا فتى من قريش ، ثم أحد بني عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ،
يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا . فقال : فوضع الشيخ
يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لها من تلاف ؟ والذي نفس فلان
بيده ، ما تقولها إسماعيلي^(١) قط ، وإنما لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟

* * *

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له
الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، وبمرض عليهم نفسه ،
وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من
العرب ، له اسم وشرف إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض عليه
ما عنده .

* * *

٤٩ - إسلام الأنصار

وقدم أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل ، فيهم
إياد بن معاذ ، يلتصقون بالحلف من قريش على قومهم من الخزرج . فسمع بهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : هل لكم
في خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذلك ؟ قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد
أدعوم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على الكتاب ، ثم
ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياد بن معاذ ، وكان غلاماً
حديثاً : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له . فأخذ أنس بن رافع حفنة

(١) إسماعيل : أي ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل .

من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ،
فلعمري لقد جئنا لغير هذا . فصمت إياس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم
عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ،
وإنجاز وعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي أتته
فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل
موسم ، فبينما هو عند العقبة وجد رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

ولما أتتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنتم ؟ قالوا : نفر
من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون
أكلكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم
الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله بهم في الإسلام ، أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا
أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم
ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أغل
زمانه تنبهه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله صلى الله عليه
وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله
إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه
بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا
قومنا ، ولا قوم بينهم من المداورة والشر ما بينهم ، فسي أن يجمعهم الله بك ، فسنفقد

عليهم ، فتدعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين
فإن يجهلهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد
آمروا وصدقوا.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
ودعوهم إلى الإسلام حتى نشأ فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار
إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فتأوه
بالمقبة فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب
ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم
القرآن ، ويأمرهم الإسلام ، ويقيمهم في الدين ، فسكان يسمى القرئ بالمدينة :
مصعب ، وكان ينزل على أسعد بن زرارة بن عدس أبي أمامة ، وهو أول من
جمع بين أسلم بالمدينة ، وكانوا أربعين رجلا .

• • •

• • • مبايعة الأنصار للرسول

وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم
من أهل الشرك ، حتى تسبوا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

العقبة ، من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته ،
والنصر لنبيه ، وإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .

يقول كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، قال : فلما فرغنا من الحج ، وكانت
الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، ومعنا أبو جابر عبد الله
ابن عمرو بن حرام ، سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ،
وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له :
يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك
عما أنت فيه أن تكون خطباً للنار غداً ، ثم دعونا إلى الإسلام ، وأخبرناه
بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة ،
وكان نقيباً .

فمننا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من
رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ندلل نساء القطا مستخفين حتى
اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان
من نساءنا .

فاجتمعنا في الشعب نتنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا
ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب
أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن
عبد المطلب ، فقال : يامعشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى

من الأنصار : الخزرج ، خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم ، قد منعتنا من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أباي إلا الاضياع إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم إليه ، وما نعوهم من خالفه ، فأنتم وما تعلمان من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده . فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فنخذ لنفك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً ، لنمنعك مما تمنع منه أزرتنا^(١) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة^(٢) ، ورتناها كإبراً عن كابر . فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الهم الهم ، والهدم الهدم^(٣) ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتهم ، وأسلم من سالمهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلى منكم اثني عشر قبيلاً ،

(١) أزرتنا : نساءنا .

(٢) الحلقة : السلاح .

(٣) الهدم : أي حرمتي حرمتكم .

ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الخواريين اميسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا : نعم .

وكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبراء بن معرور ، ثم بايع بعده القوم .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفضوا إلى رحالكم . فقال له العباس بن عباد بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسياقنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعنا إلى مضاجعنا ، فمدا عليها حتى أصبحنا .

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش ، حتى جاءونا في منازلنا ، فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، والله ما من حى من العرب أبغض إلينا ، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم . فانبعث من هناك من مشركي قومنا يملفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه .

ونفر الناس من « منى » ، فبعث القوم الخبير ، فوجدوه قد كان ، وخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عباد بأذاخر^(١) ، والندربن هرو ، أخا

(١) أذاخر : موضع قريب من مكة .

بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج وكلاهما، كان نقيباً . فأماللنذر فأعجز القوم
وأما سعد فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه
مكة يضربونه ، ويجذبونه بحمته ، وكان ذا شعر كثير .

• • •

٥١ - الهجرة إلى المدينة

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في
الحرب ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل .
وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم
وقومهم من بلادهم ، فهم من بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم ، ومن بين
هارب في البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ،
وفي كل وجه . فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم
به من الكرامة ، وكذبوا فيه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا
من عبده ، ووحده وصدق نبيه واعتمهم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله
صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار عن ظلمهم وبني عليه .

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب ، وبأبىه هذا الحق من
الأنصار على الإسلام والنصرة له ولبن أتبعه ، وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول
الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من
المسلمين ، بالخروج إلى المدينة والمهجرة إليها ، والاحرق بإخوانهم من الأنصار ،
وقال : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً يأمنون بها . فخرجوا أرسالا ،
وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج
من مكة ، والمهجرة إلى المدينة .

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين من قريش ، من بنى مخزوم : أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذنه قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً .

وتقول أم سلمة : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بميرة ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة في حجرى ، ثم خرج بي بقود بميرة ، فلما رآته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام تتركك تسير بها في البلاد ؟ فزعوا خطام البمير من يده فأخذوني منه . وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله لا نترك ابنتنا عندها إذ تزعموها من صاحبنا ، فتعاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة ففرق بينى وبين زوجى وبين ابني ، فكنت أخرج كل غداة أجلس بالأبطاح فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريباً منها ، حتى مر بي رجل من بنى عمى ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بي فرحمى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ! فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها فقالوا لي : الحتى زوجك إن شئت . ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابني ، فارتحلت بميرى ، ثم أخذت ابني فوضعتة في حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ، فقلت أنبلغ بمن لقيت

حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم^(١) لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قلت : أريد زوجي بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قلت ، لا والله ، إلا الله وبنى هذا . قال : والله مالك من مترك ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يهوى بي ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط ، أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر بي بيري ، فحط عنه ، ثم قيده في الشجرة ، ثم تنعى عني إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الروح قام إلى بيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني ، وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بيري أتى فأخذ بخنثامه ، فقاده ، حتى ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني للمدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك في هذه القرية . وكان أبو سلمة بها نازلا - فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة .

فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

• • •

ثم خرج عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبي ربيعة الخزومي ، حتى قدما المدينة . قال عمر بن الخطاب : اتطدت ، لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا وعياش ابن أبي ربيعة ، وهشام بن العاصي بن وائل النهي ، التناضب^(٢) ، وقلنا

(١) التنعيم : موضع على فرسخين من مكة .

(٢) التناضب : موضع .

أبنا لم يصبح عنده. فتدحس فليعض صاحباه ، فأصبحت أنا وعباش
ابن أبي ربيعة عند التناضب ، وحبس عنا هشام ، وقتن فانتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل
ابن هشام ، والحارث بن هشام ، إلى عباش بن أبي ربيعة ، وكان ابن ههما
وأخاهما لأمهما ، حتى قدما علينا المدينة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم
بمكة ، وقالوا :

إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من
شمس حتى تراك ، فرق لها . فقلت له : يا عباش ، إنه والله إن يريدك القوم
إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو
قد اشتد عليها حر لاستظلت . فقال : أيرقم أمي ، ولي هنالك مال آخذه .
قلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكر قريش مالا ، فلك نصف مالي ولا
تذهب معهما . فأبى علي إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك ، قلت له :
أما إذا فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ،
فإن رابك من القوم ريب ، فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل :
يا ابن أخي ، والله لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تمعني على ناقتك هذه؟ قال :
بلى . فأناخ ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استوى بالأرض هدوا عليه ، فأوثقاه
وربطاه ، ثم دخلا به مكة ، وقتناه فانتن .

ثم إنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهرا موقعا ، ثم قالوا : يا أهل مكة ،
هكذا فافلوا بسفهاكم ، كما فعلنا بسفينا هذا .

٥٢ - هجرة الرسول إلى المدينة

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخاف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أوفقن ، إلا علي بن أبي طالب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمجل أهل الله بجمال لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بائعهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً ، وأصابوا منهم منة ، فعذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا ترضى أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . حين خافوه .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً . فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من المشركين الذين كانوا قبلاً ، زهيراً ، والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . ثم قال

قاتل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فننقيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع . إذا غاب عنا فرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألقتنا كما كانت . فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه رأيا ما أراكم وقتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتي منهم سيفا صارما ، ثم يعدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالمقل^(١) ، فمقلناه لهم . وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له . .

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبث هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبث عليه . فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام ، فيثبون عليه . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : نم على فراشي ونج ببردی هذا الحضرمي الأخضر ، فتم فيه فإنة لن يخلص إليك شيء تكلمه منهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم ، فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟

قالوا : محمدنا . قال : خيبكم الله لقد والله خرج عليكم محمد ، ثم جعلوا

(١) المقل : الدية.

بتظلمون فيرون علياً على الفراش متسجياً يبرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فيقولون : والله إن هذا لحمد نائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى
أصبغوا ، فقام على رضى الله عنه عن الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدقنا
الذى حدثنا .

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً ذا مال ، فكان حين استأذن رسول
الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تجعل ،
لعل الله يجعل لك صاحباً ، قد طمع بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم
إماماً يعنى نفسه ، حين قال له ذلك ، فابتاع راحلتين ، فاحتبسهما في داره ؛
بملئهما إعداداً لذلك .

تقول عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخطى أن يأتي
بيت أبي أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى
أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ؛ وانخرج من مكة بين
ظهري قومه ، أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، في ساعة كان
لا يأتي فيها . فلما رآه أبو بكر ، قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلا لأمر حدث .

فلما دخل صلى الله عليه وسلم تأخر له أبو بكر عن مريره ؛ فجلس رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي
بكر ، فقال ، رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عنى من عندك ؛

فقال : يا رسول الله إنما هنا ابنتاي ؛ وما ذلك ؟ فذاك أبي وأمي . فقال : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصعبة يا رسول الله . قال : الصعبة . ثم قال : يا نبي الله ، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتها لهذا . فاستأجرا عبد الله بن أريقط ، رجلا من بني الدئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو - وكان مشركا - يدلها على الطريق ، فدفا ليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاها لميادهما . ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج ، إلا علي بن أبي طالب . وأبو بكر الصديق ، وآل أبي بكر ؛ أما علي ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخاف بعهدة بمكة حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ، صلى الله عليه وسلم .

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر بن أبي قحافة ، فخرجوا من خوذة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم همدا إلى غار ثور - جبل بأسفل مكة - فدخلوا ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاة أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسيت بما يصلحهما .

وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل

أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمس الفار ، لينظر
أفيه سبع أو حية ، يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .
فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفار ثلاثاً ومعه أبو بكر ، وجعلت
قريش فيه ، حين قدوه ، مائة ناقة ، لمن يرده عليهم . وكان عبد الله بن
أبى بكر يكون في قریش نهاره معهم ، يسمع ما يأمرون به ، وما يقولون في شأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .
وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر رضى الله عنه ، يرمى في رعيان أهل مكة ،
فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبجا ، فإذا عبد الله بن أبى بكر
غدا من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغم حتى يقى عليه . حتى
إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه
ببيريها وببير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها بسفرتها ،
ونسيت أن تحمل لها عصاماً^(١) ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفره فإذا ليس لها
عصام ، فتعل نطاقها فتجعله عصاماً ، ثم علقها به .

فكان يقال لأسماء بنت أبى بكر : ذات النطاق ، لذلك .

فلما قرب أبو بكر ، رضى الله عنه ، الراحلتين إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، قدم له أفضلهما ، ثم قال : اركب ، فذاك أبى وأمى . فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بغيراً ليس لى . قال : فهى لك يا رسول
الله بأبى أنت وأمى . قال : لا ، ولكن ما للثمن الذى ابتعتما به ؟ قال : كذا

(١) العصام . مانعاً به السفره .

وكذا . قال : قد أخذتها به . قال : هي لك يا رسول الله فركبها وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن فهيرة مولاة خلفه ؛ ليخدمهما في الطريق .

وتقول أسماء : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر رضي الله عنه ، أنا أنا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قلت : لا أدري والله أين أبي ؟ فرجع أبو جهل يده - وكان قاحشاً خبيثاً - فاطم خدي لكمة طرح منها قرطى ثم انصرف ، فكئنا ثلاث ليال وما ندري أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما .

وتقول أسماء : ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه احتفل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أرسلته آلاف ، فانطلق بها معه . قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قلت : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

• • •

ويقول سراقه بن مالك : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن يرد عليهم . قال : فبينما أنا جالس في نادى قومي إذ أقبل رجل منّا ، حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت ركة ثلاثة مروا على آفتابنا ، إني لأراهم عمداً وأصعابه فأومأت إليه بعيني : أن اسكت ، ثم قلت : إنا هم بنو فلان ، يتبعون ضالة لهم . قال : لعله ، ثم سكت ، ثم مكثت قليلاً ، ثم قلت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسي ، فتيدلي إلى بطن الوادي ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لي من دبر حجرتي ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت ، فابست لأمتى^(١) ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، وكنت أرجو أن أرده على قريش فأخذ المائة الناقة ، فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عشر بى فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عشر بى فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عشر بى فسقطت عنه قلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره . فلما بدا لى القوم ورأيتهم ، عشر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، فعرفت حين رأيت ذلك ، أنه قد منع منى ، فناديت القوم فقلت : أنا سراقه بن جعشم ، انظرونى أكلكم ، فوالله لأربيكم ولا يأتىكم منى شئ تكرهونه فقال رسول

(١) الأئمة : الدرر والالاح .

الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : قل له : وما تبغى منا ؟ فقال ذلك أبو بكر .
قلت : تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك . قال : اكتب له يا أبا بكر .
ثم ألقاه إلى ، فأخذته ، فجاءته فى كنانتى ، ثم رجعت ، فسكت فلم أذكر
شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ
من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فرفعت يدى بالكتاب ،
ثم قلت : يا رسول الله ، هذا كتابك لى ، أنا صراقة بن جشم ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبرء ادته ، فدوت منه فأسلت .

ويقول رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما سمعنا
بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، كنا نخرج إذا صابنا الصبح ،
إلى ظاهر حرتنا فننظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله لا نبرح حتى تغلبنا
الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى إذا
كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلسنا كما كنا
نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين دخلنا البيوت ، فسكان أول من رآه رجل من اليهود ، فصرخ بأعلى
صوته : يا بنى قيلة^(١) ، هذا جدكم قد جاء . فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرتنا
لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، وركبه الناس - وما
يعرفونه من أبى بكر - حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقام أبو بكر وأظله بردائه ، فمرفناه عند ذلك .

فنزّل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كاثوم بن هدم ، أخى بنى عمرو
ابن عوف .

(١) قيلة : هم الأنصار ، وقبيلة إخوة كانت لهم .

ونزل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على خبيب بن أساف .

وأقام علي بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليلال وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل معه على كلثوم ابن هدم .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء ، في بني عمرو بن عوف ، يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس ، وأسس مسجده . ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة ، فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف ، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

٤٤ - مسجد الرسول بالمدينة وبيته

فأتاه رجال من بني سالم بن عوف فقالوا : يا رسول الله ، أقم عندنا في المدد والمدة والمنة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، لناقة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بني بياضة ، تلقاه رجال من بني بياضة ، فقلوا : يا رسول الله ، هلم إلينا ، إلى المدد والمدة والمنة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضه رجال من بني ساعدة فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا إلى المدد والمدة والمنة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج ، قالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا إلى المدد والمدة

والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا
مرت بدار بنى عدي بن النجار - وهم أخواله دنيا - اعترضه رجال من بنى
عدي بن النجار ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلى أخوالك ، إلى الهدد والدة
والمنعة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ،
حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار ، بركت على باب مسجده صلى الله
عليه وسلم ، وهو يومئذ مر بدار الغلامين يتييمين من بنى النجار ، فلما بركت ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل ، وثبتت فسارت غمير بعيد ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضح لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت إلى
خلقها ، فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ، فنزل عنها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فاحتل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته ،
ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المرء لمن هو ؟ فقال له
عاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسمل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيان لي ،
وسأرضيهما منه ، فاتخذ مسجداً .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبني مسجداً ، ونزل رسول
الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون
والأنصار ، ودأبوا فيه .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي أيوب حتى بنى له مسجده
ومساكنه .

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق بمكة منهم
أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولم يهرب أهل هجرة من مكة بأهلهم وأموالهم
إلى الله تبارك وتعالى ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أهل دور

مسمون: بنو مظلومون من بنى جمح ، وبنو جعش من رثاب، حلفاء بنى أمية ،
و بنو البكير، من بنى سمد بن ليث، حلفاء بنى عدى بن كعب، إذ دورهم غلقت
بمكة هجرة ، ليس فيها ساكن .

ولما خرج بنو جعش بن رثاب من دارهم ، عدا عليها أبو سفيان بن
حرب ، فباعها من عمرو بن علقمة ، فلما بلغ بنى جعش ما صنع أبو سفيان
بدارهم ، ذكر ذلك عبد الله بن جعش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال
له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى يا عبد الله أن يمطيك الله بها
داراً خيراً منها في الجنة ؟ قال : بلى . قال : فذلك لك . فلما افتتح رسول
الله صلى الله عليه وسلم مكة كلمه أبو أحمد بن جعش في دارهم ، فأبطأ
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس لأبى أحمد : يا أبا أحمد ،
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا في شيء من
أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل ، فأمسك عن كلام رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

• • •

• • • المواخاة بين المهاجرين والأنصار

وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصعابه من المهاجرين والأنصار،
فقال :

تآخروا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبى طالب ، فقال :
هذا أخى .

فلما اطمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع إليه أخوانه
من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكمت أمور الإسلام ، فقامت الصلاة ،
وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ

الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تسبوا والدار
والإيمان .

• • •

٥٦ - حديث الأذان

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة إنما يجتمع
الناس إليه للصلاة حين موافقتها ، بغير دعوة ، فهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم ،
ثم كرهه .

فبينما هم على ذلك ، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه ، أخو
بلعازث بن الخزرج ، النداء ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :
يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مربى رجل عليه ثوبان
أخضران ، يحمل ناقوساً فى يده ، فقالت له : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟
قل : وما تصنع به ؟ قلت : ندعوه إلى الصلاة . قال : أفلا أدلك على خير
من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قل : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر
الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد
أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة ، حتى
على الصلاة ، حتى على الفلاح ، حتى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ،
لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حق إن
شاء الله ، فتم مع بلال فآلقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك .
فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبي الله ، وأندى بعثك

بالحق ، لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا الحمد على ذلك .

• • •

٥٧ - الرسول ويهود المدينة

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة .
بغياً وحسداً وضمناً ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ،
وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان بقى على جاهليته ،
فكانوا أهل نفاق على دين آباؤهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن
الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنّة
من الانتل ، وناقوا في السر ، وكان هوام مع يهود ، لتكذيبهم النبي صلى الله
عليه وسلم ، وجعورهم الإسلام ، وكانت أحبار يهودهم هم الذين يسألون رسول
الله صلى الله عليه وسلم ويتمتونه ، ويأتونه باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان
القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام ،
كان المسلمون يسألون عنها .

• • •

وكان من حديث عبد الله بن مسلام حين أسلم ، وكان حبراً عالماً ،
قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي
كنا نتوقع له ، فكنت مسرّاً لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله صلى
الله عليه وسلم المدينة .

فلما نزل بقاء ، في بني عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبره بقدمه ،
أنو في رأس نخلة لي أهل فيها ، وعمى خالدة بنت الحارث حتى جالسة ، فلما

سمعت الخبير بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لي همتي ،
حين سمعت تكبيري : خيبك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن هيران
قادمًا ما زدت ! فقلت لها : أي همة ، هو والله أخ موسى بن هيران ، وعلى
دينه ، بعث بما بعث به . فقالت : أي ابن أخي ، أهو الذي الذي كنا نخبر أنه يبعث
مع نفس الساعة ؟ فقلت لها : نعم . فقالت : فذاك إذن . قال : ثم خرجت
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتي ،
فأمرتهم فأسلموا .

وكان من حديث مخيريق ، وكان حبراً عالماً ، وكان رجلاً غنياً كثير
الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ،
وما يجد في علمه ، وغلب عليه لئف دينه ، فلم يزل على ذلك ، حتى إذا كان
يوم أحد ، وكان يوم أحد يرم السبت ، قال : يا معشر يهود ، والله إنكم
لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال :
لا سبت لكم . ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بأحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم ، فأموالي لحمد
صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله . فلما اقتتل الناس ، قاتل حتى
قتل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مخيريق خير يهود .
وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامة صدقات رسول الله صلى
الله عليه وسلم بالمدينة منها .

وكان حي بن أخطب ، وأخوه أبو ياسر بن أخطب ، من أشد يهود

للعرب حسداً ؛ إذ خصهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله تعالى فيهما : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَنُوا وَاصْتَبِعُوا حَتَّىٰ بَيِّنَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

• • •

وكان ممن انضاف إلى يهود : جلاس بن سويد بن الصامت ، وأخوه الحارث بن سويد .

وجلاس الذي قال - وكان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك - : ائن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحر . فرجع ذلك من قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم همير بن سعد ، وكان في حجر جلاس ، خلف جلاس على أمه بعد أبيه ، فقال له همير بن سعد : والله يا جلاس ، إنك لأحب الناس إلى ، وأحسنهم عندي بدأ ، وأعزهم على أن يصيبه شيء بكرهه ، ولقد قلت مقالة لنن رفعتما عليك لأفضحك ، ولئن صمت عليهما ليهلكن ديني ، وإلحداها أيسر على من الأخرى . ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له ما قاله جلاس ، فعطف جلاس بالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كذب على همير ، وما قلت ما قال همير بن سعد . فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ .

فزهوا أنه تاب فعسفت توبته ، حتى عرف منه الخير والإسلام . وأخوه الحارث بن سويد ، الذي قتل الجذر بن زياد البلوي ، وقيس بن زبد ، أحد

بنى صيعة ، يوم أحد ، خرج مع المسلمين ، وكان منافقاً ، فلما التقى الناس عدا
عليهما قتلها ثم لحق بقريش .

• • •

ونبتل بن الحارث ، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب
أن ينظر إلى الشيطان ، فليتنظر إلى نبتل بن الحارث . وكان رجلاً جسيماً
أسود نائر شعر الرأس ، أحمر العينين ، أسفح الخدين ، وكان يأتي رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، يتحدث إليه ، فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ،
وهو الذي قال : إنما محمد أذن من حديثه شيئاً صدقه . فأنزل الله عز وجل فيه .
(وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيُكْفُرُونَ هُوَ أذنٌ قَلَّ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

• • •

ومربع بن قبيط ، وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أجاز
في بستانه ورسول الله صلى الله عليه وسلم عامد إلى أحد : لا أحل لك يا محمد ،
إن كنت نبياً ، أن تمر في بستانى ، وأخذ في يده حفنة من تراب ، ثم قال :
والله لو أعلم أنى لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به . فابتدره القوم
ليقتلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه . فهذا الأعمى أعمى القلب ،
أعمى البصيرة . فضربه سعد بن زيد ، أخو بنى عبد الأشهل ، بالقوس فشجعه .

• • •

وعبد الله بن أبي بن سلول ، وكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون ،

وهو الذي قال : لئن رجعنا إلى المدينة لينخرجن الأعز منها الأذل ، في غزوة
بنى المصطلق ، وفي قوله ذلك ، نزلت سورة « المنافقون » بأمرها .

• • •

وكان ممن تعمود بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره ،
وهو منافق ، من أحبار يهود : زيد بن اللصيت ، الذي قاتل عمر بن الخطاب
رضي الله عنه بسوق بني قينقاع ، وهو الذي قال ، حين ضلت ناقة رسول الله
صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقة
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءه الخبر بما قال عدو الله في رحله ،
ودل الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ناقة : إن قائلًا قال : يزعم
محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقة ؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله
وقد دلتني الله عليها ، فهي في هذا الشعب ، قد حبستها شجرة بزمامها . فذهب
رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وكما وصف .

• • •

ورافع بن حريملة ، وهو الذي قال له الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين
مات : قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين .

• • •

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون إلى المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين
ويسخرون ويستمزنون بدينهم ، فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس ، فرآهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعدثون بينهم خافض أصواتهم ، قد لصق
بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد
إخراجاً عديفاً .

ففي هؤلاء من أحيار يهود ، وللناقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها .

• • •

وكان يهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبته ، فلما بعث الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، أخو بني سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام ابن مشكم ، أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكره لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فآمنه الله على الكافرين) .

• • •

وقال رافع بن خزيمة ، ووهب بن زيد ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، اتقنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهاراً ، نقبعك ونصدقك . فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما : (أم تريدون أن نألوا رسولكم كما نأل موسى من قبل وبن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) .

• • •

ولما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحيار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رافع ابن خزيمة : ما أنتم على شيء ، ومكفر بعبسى وبالإنجيل ، فقال رجل من

أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجهد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأزل الله تعالى في ذلك من قولهم: (وقالت اليهود ليست للنصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يقولون الكتاب كذلك قال الذين لا ينهون مثل قولهم فإله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون).

* * *

وقال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله فليكلنا حتى نسمع كلامه. فأزل الله تعالى في ذلك من قوله: (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ).

* * *

ولما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس وآخرون، فقالوا: يا محمد، ما ولاك من قبلك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلك التي كنت عليها، نتبعك ونصدقك، وإنما يريدون بذلك فتنه عن دينه، فأزل الله تعالى فيهم: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

٥٨ - حديث المباهلة

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، ستون
راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، في الأربعة عشر منهم ثلاثة
نقر إليهم بثول أصرم : العاقب ، أمير القوم وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ،
والذي لا يصدرون إلا عن رأيه ، واسمه عبدالمسيح ؛ والسيد ، ثمالم (١) ،
وصاحب رحابهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم ؛ وأبو حارثة بن علقمة ، أحد بني بكر
ابن وائل ، أسقفهم وحبيرهم وإمامهم ، وصاحب مدارسهم .

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ، ودرس كتبهم ، حتى حسن عمله في
دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه .
وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يلبفهم عنه من علمه
واجتهاده في دينهم .

فلما رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران ، جلس أبو حارثة
على بغلة له موجهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى جنبه أخ له ، يقال
له : كرز بن علقمة ، فمئرت بغلة أبي حارثة ، فقال كرز : تعس الأبعد ، يريد
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست . فقال :
ولم يا أخي ؟ قال : والله إنه للنبي الذي كنا نتنظر . فقال له كرز : ما يمتك منه
وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا وكرمونا ،
وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فطت نزعوا منا كل ما ترى . فأضمر عليها منه أخوه
كرز بن علقمة ، حتى أسلم بعد ذلك .

ولما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم للدينة ، فدخلوا عليه مسجده

(١) أعمال القوم ، ككتاب : غياثهم الذي يقوم بأمرهم .

حين صلى العصر ، عليهم ثياب الخيرات ، جُيب وأردية ، في جمال رجال بني الحارث بن كعب ، وقد حانت صلاتهم ، فقاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوهم ، فصَلُّوا إلى المشرق .

فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم : أبو حارثة بن عنقة ، والعاقب عبدالمسيح ، والأبيهم السيد ، وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف من أمرهم ، يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة . وكذلك قول النصرانية .

فلما كلمه الخيران ، قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسلما . قالوا : قد أسلما . قال : إنكما لم تسلما فأسلما . قالوا : بلى ، قد أسلما قبلك . قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير . قالوا : فن أبوه يا محمد آفصمت عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهما .

فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : واختلاف أمرهم كله ، صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أمر من ملاعنتهم ، دعاهم إلى ذلك .

فقالوا له : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه . فانصرفوا عنه ، ثم حلوا بالعاقب - وكان ذا رأيهم - فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : يا معشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمداً نبي

مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاهن قوم نبياً
قط فبقي كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن
كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في
صاحبكم ، فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا الأتلاءك ، وأن تتركك على
دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ،
يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اثقوني العشية أبث معكم النوى
الأمين . فكان عمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارة قط حتى إياها يومئذ ،
رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلما صلى بنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه ، وعن يساره ، فجأت أنطاول
له ليراني ، فلم يزل يلمس ببصره ، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعا ،
فقال : اخرج معهم ، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه . قال عمر : فذهب
بها أبو عبيدة .

• • •

٥٩ - من أخبار منافق المدينة

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وسيد أهلها عبدالله بن أبي بن
سلول العمري ، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج
قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره ، حتى جاء الإسلام ،
ومعه في الأوس رجل ، هو في قومه من الأوس شريف مطاع ، أبو عامر عبد
هرو بن صبي بن النعمان ، أحد بني ضبيعة بن زبد ، وهو أبو حنظلة ، الفسيل
يوم أحد ، وكان قد ترهب في الجاهلية ، ولبس السوح ، وكان يقال له :
الراهب ، فثقتا بشرقهما وضرهما .

فأما عبد الله بن أبي ، فكان قومه قد نظروا له انحرز ليتوجوه ، ثم
يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم على
ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام ؛ دخل فيه
كارهاً مصرغاً على نفاق وضغن .

وأما أبو عامر فابى إلا الكفر وانزاع قومه ، حين اجتمعوا على الإسلام
فخرج منهم إلى مكة بيضة عشر رجلاً ، مفارقاً للإسلام ورسول الله صلى
الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا : الراهب .
ولكن قولوا الفاسق .

وكان أبو عامر أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ،
قبل أن يخرج إلى مكة ، فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ فقال : جئت
بالحنيفية دين إبراهيم . قال : فأنا عابها . فدل له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إنك لست عليها . قال : بلى . قال : إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها
قال : ما فعلت ، ولكن جئت بها بيضاء نقية . قال : الكاذب أمانته الله طريداً
غريباً وحيداً — يعرض برسول الله صلى الله عليه وسلم — قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : أجل ، فمن كذب فدل الله تعالى ذلك به . فكان هو ذلك
عدو الله ، خرج إلى مكة ، فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج
إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فأت بها طريداً
غريباً وحيداً .

٦ - غزواته صلى الله عليه وسلم

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة يوم الاثنين ، حين اشتد الضجاء ، وكادت الشمس تعتدل ، اثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة . وذلك بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة ، فأقام بها بقية شهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الآخر ، وجهاديين ، ورجباً ، وشعبان ، وشهر رمضان ، وشوالاً ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والمحرم ، ثم خرج غازياً في صفر ، على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة واستعمل على المدينة سعد بن عباد .

حتى بلغ ودان ، وهي غزوة الأبواء ، يريد قريشاً . وبنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، وكان الذي وادعه منهم عليهم مخشى بن عمرو الضمري ، وكان سيدهم في زمانه ذلك . ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ولم يبق كيداً ، فأقام بها بقية صفر ، وصدرًا من شهر ربيع الأول . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في مقامه ذلك بالمدينة ، عبدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز ، بأسفل ثنية المرة ، فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش ، فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به في الإسلام .

ثم انصرف التوم عن التوم ، وللمسلمين حامية ، وفر من الشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرايمي ، حليف بني زهرة ، وعتبة بن غزوان بن جابر اللاتمي ، حليف بني نوفل بن عبد مناف ، وكانا مسلمين ، ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار ، وكان علي القرم عكرمة بن أبي جهل .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامه ذلك ، حمزة بن عبد المطلب
ابن هاشم إلى سيف البحر ، من ناحية العيص ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ،
ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثمانية
راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهني - وكان موادعاً
للفريقين جميعاً - فأنصرف بعض القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال .
ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً ،
واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، حتى بلغ بواط من
ناحية رضوى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فلبث بها بقية شهر ربيع
الآخر ، وبعض جمادى الأولى .

ثم غزا قريشاً ، فاستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، فسلك على نعب
بني دبنار ، ثم على فيفاء الخبار ، فنزل تحت شجرة يبطحاء ابن أزر ، يقال لها :
ذات الساق ، فصلى عندها . ثم مسجده صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتحل رسول
الله صلى الله عليه وسلم فترك الخلائق^(١) يساراً ، وسلك شعبة يقال لها : شعبة
عبد الله ، وذلك اسمها اليوم ، ثم حسب لليسار حتى هبط بليل ، فنزل بمجتمعه
ومجتمع الضبوعة ، واستقى من بئر بالضبوعة ، ثم سلك الفرش - فرش ملل -
حتى اتى الطريق بصعيرات اليمام ، ثم اعتدل به الطريق ، حتى نزل العشيرة من
بطن بنبع ، فأقام بها جمادى الأولى وإيالي من جمادى الآخرة ، ووادع فيها بني
مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

• • •

وقد كان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بين ذلك من غزوة ، سعد

(١) الخلائق : أرض كانت لعبد الله بن جحش بناحية المدينة .

ابن أبي وقاص ، في ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتى بلغ الخرار ، من أرض
الحجاز ، ثم رجع ولم يلق كيدا .

• • •

ولم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين قدم من غزوة المشيرة
إلا ليالي قلائل ، لا تبلغ العشرة ، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على مسرح
للمدينة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه واستعمل على المدينة
زيد بن حارثة .

حتى بلغ واديا ، يقال له : صفوان ، من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر ،
فلم يدركه ، وهي غزوة بدر الأولى ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
للمدينة ، فأقام بها بقية جمادى الآخرة ، ورجبا وشعبان .

• • •

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جعش بن رثاب الأودي
في رجب ، مقتله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ،
وليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى
يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي لسائر أمره به ، ولا يتكلم من أصحابه
أحدًا .

فلما سار عبد الله بن جعش يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فإذا فيه :
إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخله ، بين مكة والطائف ، فتصد
بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . فلما نظر عبد الله بن جعش في الكتاب ،
قال : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن أمضى إلى نخلة ، أرصد بها قريشاً ، حتى آتيتهم منهم بخبر ، وقد نهاني أن
أستكره أحداً منكم . فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينتلق ، ومن كره
ذلك فليرجع ، فأما أنا ففاض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضى ومعه
أصحابه ، لم يتخاف منهم أحد .

وسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بمعدن ، فوق الفرع ، يقال له : بحران ،
أضل سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، بميراً لهما ، كانا يمتقانه ، فتنخفا
عليه في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ،
فمرت به غير قريش تحمل زيباً وأدماً ، وتجارة من قريش ، فيها عمرو بن
الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله ، الحزوميان ،
والحكيم بن كيسان ، مولى هشام بن المغيرة .

فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن
محسن ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا : همار ، لا بأس
عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم :
والله لئن تركم القوم هذه الآية ليدخلن الحرم ، فليمتنن منكم به ، ولئن
قتلنهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم وهاجوا الإقدام ، ثم شجعوا
أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم ،
فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان
ابن عبد الله ، والحكيم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله ، فأعجزهم ،
وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالخير والأسيرين ، حتى قدموا على رسول
الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قال : ما أمرتكم
بقتال في الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك
شيئاً . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سقط في أيدي القوم ، وظنوا
أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش :
قد استعمل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه
الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ) .

فلما نزل القرآن بهذا الأمر ، وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه
من الخوف ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين ، وبعثت إليه
قريش في فداء عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : لا نفديكما حتى يقدم صاحبانا - يعني سعد بن أبي وقاص ،
وعتبة بن غزوان - فإننا نمشاكم عليهما ، فإن نقتلوهما قتل صاحبكم . فقدم
سعد وعتبة ، فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

فأما الحكم بن كيسان فأسلم ، فحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بدر معونة شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله
فلحق بمكة ، فأت بها كافراً .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي سفيان بن حرب مقبلاً من

الشام، فوهير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش، وتجارة من تجارتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، منهم: مخزوم بن نوفل بن أحيب ابن عبد مناف بن زهرة، وعمرو بن العاص بن وائل بن هشام.

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلاً من الشام، فدب المسلمين إليهم، وقال: هذه غير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها. فانتدب الناس، فغف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم باقى حرباً. وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتعسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن عمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فعذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الففارى، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشاً، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن عمداً قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة.

وقد رأت مائكة بنت عبد المطلب، قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال، رؤيا أفزعها فمشت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فقالت له: يا أخى، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عنى ما أحدثك به. فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أفبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا ففدر^(١) لمصارعكم، فى ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما

(١) غدر: جمع غدور.

هم حوله ، مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا بالغدر لمصارعكم ، في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ، فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارضت ، فما بقي بيت من بيوت مكة ، ولا دار ، إلا دخلها منها قلقة . قال العباس : والله إن هذه رؤيا ، وأنت طاكتها ، ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس ، فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقا ، فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، فنشا الحديث بمكة ، حتى تحدث به في أنديتها .

قال العباس : فعدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش يعود ، يتعدثون برؤيا عاتكة ، فلما رأني أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلت ، حتى جلست معهم ، فقال لي أبو جهل : يا بني عبد المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبوة ؟ قلت وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عاتكة . قلت : وما رأت ؟ قال : يا بني عبد المطلب ، أمارضيتهم أن يتنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا ، في ثلاث ، فستريص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقا ما تقول فيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت في العرب . قال العباس : فوالله ما كان مني إليه كبير ، إلا أني وجدت ذلك ، وأنكرت أن تكون رأت شيئا . قال : ثم تفرقنا .

فلما أمسيت ، لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن

عندك غير شيء مما سمعت اقات : والله قد فعلت ، ما كان منى اليه من كبير ،
وايم الله لا تعرضن له ، فإن عاد لا كفيينكنه .

فقدوت في اليوم الثالث من رؤيا عائكة ، وأنا حديد مفضب ، أرى أنى
قد فأتنى منه أمر أحب أن أدركه منه ، فدخلت المسجد فرأيت ، فوالله إنى لأمشى
نحوه أتعرضه ليمود لبعض ما قال ، فأقع به - وكان رجلاً خفيفاً ، حديد الوجه ،
حديد اللسان ، حديد النظر - إذ خرج نحو باب المسجد يشتد . فقلت في نفسى :
ماله لعنه الله ، أكل هذا فرق منى أن أشاتم ، وإذا هو قد سمع ما لم أسمع : صوت
ضمضم بن عمرو الغفارى ، وهو بصرخ يبطن الوادى واقفاً على بعيره ، قد جدم
بعيره ، وحول رجلاه ، وشق قميصه ، وهو يتول : يا مشرق قريش ، اللطيمة^(١) ،
اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن
تدركوها ، الفوث الفوث . فشغلق عنه ، وشغلنى عنى ، ما جاء من الأمر .

فتجهز الناس سراعى ، وقالوا : أياظن محمد وأصحابه أن تكون كبير
ابن الحضرمى ، كلا والله ليعلمن غير ذلك . فكانوا بين رجلين : إما خارج ،
وإما باعث مكانه رجلاً . وأوعيت قريش ، فلم يتخلف من أشرافها أحد .

إلا أن أباهب بن عبد المطلب تخلف ، وبعث مكانه العاصى بن هشام
ابن المغيرة ، وكان قد لاطله بأريمة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ،
فاستأجره بها ، على أن يجزى عنه ، بعثه فخرج عنه ، وتخلف أبو لهب .

ولما فرغوا من جهازهم ، وأجهزوا السير ، ذكروا ما كان بينهم وبين
بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب ، فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من
خلفنا ، وكاد ذلك يشبههم ؛ فتبدي لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك

(١) اللطيمة : الإبل تحمل البر والطيب .

ابن جعشم الدجلى ، وكان من أشرف بنى كنانة ، فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأنيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراهما .
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه ، واستعمل عمرو بن أم مكتوم - أخا بنى عاصم بن لؤى - على الصلاة بالناس ، ثم رد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة .
ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان أبيض .

وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان : إحداهما مع علي بن أبي طالب ، يقال لها : العقاب ، والأخرى مع بعض الأنصار .

وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعين بعيراً ، فاعتقبوها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلي بن أبي طالب ، ومرثد ابن أبي مرثد الفزوي ، يعتقبون بعيراً ، وكان حمزة بن عبد المطلب ، وزيد ابن حارثة ، وأبو كبشة ، وأمنة ، موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعتقبون بعيراً ، وكان أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، يعتقبون بمسيراً .
وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة ، أخا بنى مازن بن النجار . وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ . فسلك طريقته من المدينة إلى مكة ، على نعب للمدينة ، ثم على العتيق ، ثم على ذى الحليفة ، ثم على أولات الجيش .

واقفوا رجلاً من الأعراب ، فسألوه عن الناس ، فلم يجدوا عنده خبراً ، فقال له الناس : سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : أوفيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، فلم عليه ، ثم قال : إن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه . قال له سلمة بن سلامة بن وقش : لا تسأل رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، وأقبل على ، فأنا أخبرك عن ذلك : تزوت عليها ، ففى
بطنها منك سخلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفعثت على الرجل
ثم أعرض عن سلمة .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجج ، وهى بئر الروحاء ، ثم
ارتحل منها ، حتى إذا كان بالنصرف ، ترك طريق مكة بيسار ، وسلك ذات
اليمين على النازية ، يريد بدرآ ، فسلك فى ناحية منها ، حتى جزع وادبأ ، يقال
له : رحقان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم على المضيق ، ثم انصب
منه ، حتى إذا كان قريباً من الصفراء ، بعث بسبس من الجهنى ، حليف
بنى ساعدة ، وعدى بن أبى الزغباء الجهنى ، حليف بنى النجار ، إلى بدرية مسان
له الأخبار ، عن أبى سفيان بن حرب وغيره ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وقد قدمها . فلما استقبل الصفراء ، وهى قرية بين جبلين ، سأل عن
جبليهما ما اسماهما فقالوا : يقال : لأحدهما هذا صالح ، والآخرة هذا منخري ،
وسأل عن أهلها ، فقيل : بنو النار ، وبنو حراق ، بطنان من بنى غفار ، فكرههما
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرور بينهما ، وتقال باسميهما وأسماء أهلها ،
وتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصفراء بيسار ، وسلك ذات اليمين
على واد يقال له : ذفران ، فجزع فيه ، ثم نزل .

وأناه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس ، وأخبرهم
عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال
وأحسن ؛ ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن
معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ،
إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ،
فوالذى بعتك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغنجدنا لقاتلنا معك من دونه ، حتى
تبانة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعاه به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علي أيها الناس . وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم عـدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة ، قالوا : يا رسول الله . إنا برآء من ذمامك . حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا بمن دمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموائمةنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن يبقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في الاتماء . ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزل قريباً من بدر ، فركب هو وأبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش ، وعن محمد وأصحابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبر كما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم قال الشيخ : فإنه باعني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، لكان الذي به رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا كذا ، وإن كان
الذى أخبرنى صدقنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى فيه قريش .
فلما فرغ من خبره ، قال : من أنما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
نحن من ماء ، ثم انصرف عنه . قال : يقول الشيخ : ما من ماء ؟ أمن ماء
العراق ؟

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على
ابن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، فى نفر من أصحابه ،
إلى ماء بدر ، يلتمسون الخبر له عليه ، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم ، غلام
بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار ، غلام بنى العاص بن سعيد ، فأتوا بهما ، فسأواهما ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا
نستقيهم من الماء ؟ ففكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما ،
فلما بالغا فى ضربهما قالوا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما ، وركع رسول الله
صلى الله عليه وسلم وسجد وسجدت بنى ثمة سام ، وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ،
وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ، والله إيهما لقريش ، أخبرانى عن قريش ؟
قالا : هم والله وراء هذا الكتيب الذى ترى بالمدوة القصوى . والكتيب :
العنقل . قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟
قالا : كثير . قال : ما عدتكم ؟ قالوا : لا ندري . قال : كم ينعرون كل يوم ؟
قالا : يوماً تسماً ، ويوماً عشراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم
فيا بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا :
عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البغترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ،
ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ،

والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأممية بن خلف ،
ونبيه ، ومنبه ، إبن الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبدود . فأقبل رسول
الله صلى الله عليه وسلم على الناس ، فقال : ههنا مكة قد أتت إليكم
أفلاذ أبادها .

وكان بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبي الزغباء ، قد مضيا حتى نزلا بدرأ ،
فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شئاً لهما يستقيان فيه ، ومجدى بن عمرو
الجهنى على الماء ، فسمع عدى وببسب جاريتين من جوارى الحاضر ، وهما
يتلازمان على الماء ، وللزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتي العير غداً أو بعد غد ،
فأعمل لهم ، ثم أفضيك الذى لك . قال مجدى : صدقت ، ثم خلص بينهما .
وسمع ذلك عدى وببسب ، فجلسا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه بما سمعا .

وأقبل أبو صفيان بن حرب ، حتى تقدم العير حذراً ، حتى ورد الماء ،
فقال لمجدى بن عمرو : هل أحسست أحداً ؟ فقال : ما رأيت أحداً أنكره ،
إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شئ لهما ، ثم
انطلقا . فأتى أبو صفيان مناخهما ، فأخذ من أبقار بعيريهما ، فقتله ، فإذا فيه
النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى أصحابه سريعا ، فضرب
وجه غيره عن الطريق ، فساحل بهما ، وترك بدرأ يسار ، وانطلق حتى أسرع .

وأقبلت قريش ، فلما نزلوا الجحفة ، رأى جهيم بن الصلت بن مخزومة بن
الطلب بن عبدمناف رؤيا ، فقال : إني رأيت فيما يرى النائم ، وإني لبين النائم
واليقظان ، إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس ، حتى وقف ، ومعه بميرله ،
ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأممية

ابن خلف ، وفلان وفلان ، فعدد رجالا ممن قتل يوم بدر ، من أشرف قريش ، ثم رأيت ضرب في لبة ببيره ، ثم أرسله في السكر ، فما بقي خباء من أخبية السكر إلا أصابه نضح من دمه .

فبلغت أبا جهل ، فقال : وهذا أيضاً نبي آخر من بني المطلب ، سيمم غداً من للقتول إن نحن التقينا .

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجها الله ، فارجموا . فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ - وكان بدر موسماً من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، وننقى الخمر ، وتعزف علينا النيان ، وتسمع بنا العرب ، ويمسرونا وجهنا ، فلا يزالون بها يومنا أبداً بعدها ، فامضوا .

وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، وكان حليفاً لبني زهرة ، وهم بالحنفة : يا بني زهرة ، قد نبى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وإنا نفرتم لتمنصوه وماله ، فاجعلوا لي جنبها وارجموا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة ، لا ما يقول هذا ، يعني أبا جهل ، فرجموا ، فلم يشهدا زهرى واحداً طاعوه ، وكان فيهم مطاعاً . ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس ، إلا بني عدى ، من كعب ، لم يخرج منهم رجل واحد ، فرجعت بني زهرة مع الأخنس بن شريق ، فلم يشهد بدرأ من هاتين القبيلتين أحد ، ومضى القوم . وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة ، فقالوا : والله لقد عرفنا يا بني

هاشم ، وإن خرجتم معنا ، أن هوامكم لمع محمد ، فرجع طاب إلى مكانه مع من رجع .

ومضت قريش حتى نزلوا بالمدوة الفصوى من الوادى ، وبعث الله السماء ، وكان الوادى دهساً ، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ، ولم يمنعم من السير ، وأصاب قريش منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه ، فنخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

ثم أن الحباب بن المنذر بن الجوح قال : يا رسول الله ، أ رأيت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانفض بالناس حتى تأنى أدنى ماء من القوم ، فنزله ، ثم نفور ما وراءه من القلب ، ثم نبى عليه حوضاً ، فتماؤزه ماء ، ثم قاتل القوم قشرب ولا يشربون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب ففورت ، وبنى حوضاً على القلب الذى نزل عليه ، فملء ماء ، ثم قذفوا فيه الأنية .

ثم إن سعد بن معاذ قال : يا نبى الله ، ألا نبى لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلعنت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام - يا نبى الله - ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يناصرونك ويجاهدون

صعك؟ فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير . ثم بنى
لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً ، فكان فيه .

وقد ارتحلت قريش حين أصبحت ، فأقبلت ، فلما رآها صلى الله عليه
وسلم تصوب من العققل - وهو الكنيب الذي جاء منه إلى الوادي - قال :
اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلاً لها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولاك ، اللهم
فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحسنهم الغداة .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم
على جبل له أحمر - إن يكن في أحد من القوم خير ، فمند صاحب الجبل الأحمر ،
إن يطيموه يرشدوا .

وقد كان خفاف بن أيماء بن رخصة الغفاري ، أو أبوه أيماء بن رخصة
الغفاري ، بعث إلى قريش ، حين مروا به ، ابناً له بجزائر أهداها لهم ، وقال :
إن أحببتم أن ندمكم بسلاح ورجال فقلنا . فأرسلوا إليه مع ابنته : أن وصلتك
رحم ، قد قضيت الذي عليك ، فلم يرد لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من
ضئف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ، فما لأحد بالله من طاقة .

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوهم ،
فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل ، إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم
يقتل ، ثم أسلم بعد ذلك ، فعسن إسلامه . فكان إذا اجتمع في بيئته قال : لا
والذي نبأني من يوم بدر .

ولما اطمأن القوم ، بهنوا حمير بن وهب الجمعي ، فقالوا : احزر لنا أصحاب
محمد . فاستجبال بفرسه حول المسكر ، ثم رجع إليهم ، فقال : ثلثمائة رجل يزيدون

قليلاً أو ينتصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر : ألقوم كين أو مدد ؟ ف ضرب
في الوادي حتى أبعدته ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكني
قد رأيت ، ياممشر قريش ، البلايا تحمل الغايا ، فواضح يترب تحمل اللوت النافع ،
قوم ليس مهم منعة ولا ماجاً إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم
حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟
فروا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس ، فأنى عتبة بن ربيعة ، فقال :
يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال
تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذلك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس
وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي . قال : قند فطت ، أنت على بذلك ،
إنما هو حليف ، فملى عتله وما أصيب من ماله ، فأت ابن المنظلية فأنى لا أخشى
أن يشجر أمر الناس غيره ، ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً ، فقال : ياممشر
قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لن أصبتموه
لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله
أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن
أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه
ما تريدون .

قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته قد قتل درعاً له من
جرايبها - فهو يهبتها - فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلني إليك بكذا
وكذا ، لا أرى قال ، فقال : انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا
والله لا ترجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعثت ما قال . ولكنه قدر أرى

أن عمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه . ثم بعث إلى
عامر بن الحضرمي ، فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت تارك
بمينك ، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمي ، فاكتشف ثم صرخ : واهمراه ا واهمراه ا
فعميت الحرب ، وحبب أمر الناس ، واستوسقوا على عامر عليه من الشر ، وأفسد
على الناس الرأي الذي د عامر إليه عتبه .

فلما بلغ عتبه قول أبي جهل « انتفخ والله سعره » ، قال : سيملم مصفر
استه من انتفخ سعره ، أنا أم هو ؟

ثم التمس عتبه بيضة ليدخلها في رأسه ، فلما وجد في الجيش بيضة تسعه ، من
عظام هامته ، فلما رأى ذلك اعتمر على رأسه يرد له .

وقد خرج الأسود بن عبد الأسد الخزومي ، وكان رجلاً شرساً صبيح
الطلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن
دونه . فلما خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن
قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشعب رجله دماً نحو
أصعابه ، ثم حبا إلى الحوض ، حتى اقتعم فيه ، يريد أن يربميته ، وأتبعه
حمزة فضربه ، حتى قتله في الحوض .

ثم خرج بعده عتبه بن ربيعة ، بين أخيه شيبه بن ربيعة ، وابنه الوليد
ابن عتبه ، حتى إذا فصل من الصف ، دما إلى البارزة ، فخرج إليه فتية من
الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومعوذ - ابنا الحارث ، وأمهما عفراء - ورجل
آخر ، يقال : هو عبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من
الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديبهم : يا عمدا ، أخرج إلينا

أ كفاءنا من قومنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبيدة بن الحارث ،
وقم يا حمزة ، وقم باهل ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة :
عبيدة ، وقال حمزة : حمزة ، وقال علي : هل . قالوا : نعم ، أ كفاء كرام .
فبارز عبيدة ، وكان أسن القوم ، عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ،
وبارز علي الوليد بن عتبة . فأما حمزة فلم يعمل شيبة أن قتله ، وأما علي فلم
يعمل الوليد أن قتله ، واختاف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت
صاحبه ، وكر حمزة وعلي بأسيا فهما على عتبة فذقفا عليه ، واحتسلا صاحبهما ،
فعاذاه إلى أصحابه .

ثم تراخف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إن اكتنفكم القوم
فانضحوهم عنكم بالنبل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش ، معه
أبو بكر الصديق .

فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر ،
وق يده قدح بمدل به القوم ، فمر بسواد بن غزيرة ، حليف بني عدي بن النجار ،
وهو مستنقل^(١) ، من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح ، وقال : استويا سواد فقال :
يا رسول الله . أوجهتنى : وقد بعثك الله بالحق والمدل . قال : فأقذنى ، فكشف
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه ، وقال : استمد . قال : فاعتقه ، فقبل
بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله ، حضر ما ترى

(١) مستنقل . متقدم

فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلداك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيراً .

وبعد أن عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف رجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق ليس معه فيه غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . وأبو بكر يقول : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعده . وقد خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش ، ثم انشبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أنك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثغاباه النقم .

وقد رمى مهجع ، مولى عمر بن الخطاب ، بسهم قتل ، فسكات أول قتيل من المسلمين ثم رمى حارثة بن سراقة ، أحد بني عدى بن النجار ، وهو يشرب من الحوض ، بسهم ، فأصاب نحره ، فقتل .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فعرضهم ، وقال : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاؤهم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام ، أخو بني سلمة ، وفي يده تمرات يأكلهن : يخ بخ ، أما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .

ثم إن عوف بن الحارث ، وهو بن عفراء ، قال : يا رسول الله ، ما

يضحك الرب من عبده ؟ قال : نعمه يده في الدد وحاسراً . فتزع درءاً كانت عليه ، فقتلها ، ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .
ولما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قال أبو جهل بن هشام :
اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعرف ، فأحنه الفداة . فكان هو المستفتح .
ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال : شأهت الوجوه ، ثم نفعهم بها ، وأمر أصحابه ، فقال :
شدوا ، فكانت الهزيمة ، فقتل الله تعالى من قتل من صنابيد قريش ، وأسر من أسر من أشرفهم . فلما وضع القوم أيديهم بأسرون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متوشح السيف ، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخفون عاياه كرة العدو ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا تكأنت باسمه تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك . فكان الإغنان بأهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال .

• • •

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يومئذ : إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا الجحترى بن هشام بن الحارث ابن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكراً . فقال أبو حذيفة : أقتل آباءنا

وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ، وترك العباس ؟ والله لمن لقيته لأخذه السيف .
فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص -
قال عمر : والله إنه لأول يوم كُنيت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي
حفص - أ يضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ؟ فقال عمر :
يا رسول الله ، دعني فلا أضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد تافق . فكان
أبو حذيفة يقول : ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها
خائفاً ، إلا أن تكفرها عني للشهادة . قتل يوم اليمامة شهيداً .

ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أبي البختري ، لأنه
كان أ كف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ،
ولا يبلغه عنه شيء بكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة ، التي كتبت قريش
على بني هاشم وبني المطلب ، فلقبه الجذر بن زياد البسوي ، حليف الأنصار ،
ثم من بني سالم بن عوف ، فقال الجذر لأبي البختري : إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد نهانا عن قتلك - ومع أبي البختري زميل له ، قد خرج معه من
مكة ، وهو جنادة بن مليحة بنت زهير بن الحارث بن أسد ، و جنادة رجل من
بني ليث . واسم أبي البختري : العاص - قال : وزميلي ؟ فقال له الجذر :
لا والله ، ما نحن بتاركي زميلك ، ما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا
بك وحدك . فقال : لا والله ، إذن لأموتن أنا وهو جميعاً ، لانتحدث في نساء
مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة .

ثم إن الجذر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : والدي بمثك
بالحق ، لقد جهدت عليه أن يعأسر فأنيك به ، فأبي إلا أن يقاناني ، فقائلته
فقتلته .

ويقول عبد الرحمن بن عوف : كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة ،
وكان اسمى عبد عمرو ، فتسميت ، حين أسلمت : عبد الرحمن ونحن بمكة ،
فكان يلقاني إذ نحن بمكة ، فيقول : يا عبد عمرو ، أرغبت عن اسم سماك أبوالك؟
فأقول : نعم . فيقول : فإني لأعرف الرحمن ، فأجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك
به ، أما أنت فلا تبييني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لأعرف .
قال : فكان إذا دعاني : يا عبد عمرو ، لم أجب . قال : فقلت له : يا أبا علي ، اجعل
ما شئت ، قال : فأنت عبد الإله . قال : فقلت : نعم . قال : فكنت إذا مررت
به قال : يا عبد الإله ، فأجيبه فأحدث معه ، حتى إذا كان يوم بدر ، مررت به
وهو واقف مع ابنة ، علي بن أمية ، آخذ بيده ، ومعى أذراع ، قد استلبتها ،
فأنا أحملها ، فلما رأيته قال لي : يا عبد عمرو ، فلم أجبه ، فقال : يا عبد الإله ؟
فقلت : نعم . قال : هل لك في ، فأنا خير لك من هذه الأذراع التي معك ؟
قلت : نعم ، ها الله ذا . فطرحت الأذراع من يدي ، وأخذت بيده وبدا ابنة ،
وهو يقول : ما رأيت كالذيوم قط ، أما لكم حاجة في اللبن ؟ ثم أخرجت
أمشى بها .

قال لي أمية بن خلف ، وأنا بينه وبين ابنة ، آخذاً بأيديهما : يا عبد الإله ،
من الرجل منكم الملم بريشة نعامة في صدره ؟ قلت : ذلك حمزة بن عبد المطلب .
قال : ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل . قال عبد الرحمن : فوالله إني لأقودها إذا
رآه بلال معي - وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام ، فيخرج به
إلى رمضان مكة إذا حيت ، فيضججه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة
فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا أو تقارق دين محمد ، فيقول بلال :
أحد أحد - قال : فلما رآه ، قال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن

نجا . قلت : أي بلال ، أبا سيري ا قال : لانجوت إن نجا . قلت : أسمع
يا ابن السوداء . قال : لانجوت إن نجا . قال : ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار
الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لانجوت إن نجا . فأحاطوا بنا حتى جعلونا
في مثل الحلقة وأنا أذب عنه . قل : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه
فوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط . قلت : انج بنفسك ، ولا نجاء
بك ، فوالله ما أغنى عنك شيئاً . فهبروها بأسيا فهم ، حتى فرغوا منها ، فكان
هدد الرحمن يقول : رحم الله بلالا ، ذهبت أدراعي ولجفتي بأسيري .

• • •

ويقول رجل من بني غفار : أقبلت أنا وابن عم لي ، حتى أصمدنا في
جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، فننظر الوقعة على من تكون
الدبرة ، فننهب مع من ينهب . قال : فبينما نحن في الجبل ، إذ دنت منا
سحابة ، فسمعنا فيها حممة الخيل ، فسمعت قائلاً يقول : أقدام حيزوم ، فأما
ابن عمي فأنكشف قناع قلبه ، فبات مكانه ، وأما أنا فكنت أهلك ثم
تماسكت .

ولم تقا تل الملائكة في يوم سوى بدر من الأيام ، وكانوا يكرونون فيما
سواه من الأيام عدداً ومدداً . لا يضربون .

وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : أحد
أحد .

فأما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، أمر بأبي جهل أن
يلتمس في القتلى .

قال معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الحرجة ، وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه . قال : فلما سمعتها جعلته من شأني ، فصعدت نحوه ، فلما أمكنتني حملت عليه ، فضربتته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها . قال : وضربني ابنة عكرمة على عاتقي ، فطرح يدي ، فتماعت بجلدة من جنبي ، وأجمضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي ، وإني لأسعبها خافي ، فلما آذنتي وضمت عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها . ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان .



ثم مر بأبي جهل ، وهو عقير ، معوذ بن عفران ، فضربه حتى أثبتته ، فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل ، فر عبد الله بن مسعود بأبي جهل ، حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتبس في القتلى ، وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : انظروا ، إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته ، فإني أزدحم يوماً أنا وهو على مادية لعبد الله بن جدهان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف منه يسير ، فدفعته ، فوقع على ركبته ، فبعثت في إحداها جعشاً لم يزل أثره به . قال عبد الله بن مسعود : فوجدته بأخر رمق ، فرفقته ، فوضعت رجلي على عنقه - قال : وقد كان ضيث بن مرة بمكة ، فأذاني ولكرني ، ثم قلت له : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟ أهد من رجل^١ قتلتموه ! أخبرني بن الدائرة اليوم ؟ قلت : لله ولرسوله .

ثم احتززت رأسه ، ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) أي هل لوق رجل لثله قومه ؟

الله الذي لا إله غيره - وكانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم - قلت :
نعم ، والله الذي لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فحمد الله .

* * *

وقاتل عكاشة بن محسن بن حمرثان الأسدي ، حليف بني عبد شمس بن
عبد مناف ، يوم بدر بيته ، حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فأعطاه جذلاً من حطب ، فقال : قاتل ، بهذا باعكاشة ، فلما أخذه
من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه ، فعاد سيفاً في يده طويلاً القامة ،
شديدة المتن ، أبيض الحديد ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين ، وكان
ذلك السيف يسمى : المون . ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، حتى قتل في الردة ، وهو عنده ، قتله طليحة بن خويلد الأسدي
وعكاشة بن محسن الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : يدخل الجنة سبعون ألفاً من أمتي على صورة القمر
ليلة البدر ، قال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم . قال : إنك منهم ، أو
اللهم اجعلني منهم . فقام رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله
أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة ، وبردت الدعوة ^(١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغنا عن أهله : منا خير
فارس في العرب ، قالوا : ومن هو يا رسول الله قال عكاشة بن محسن
فقال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك رجل منا يا رسول الله : قال
ليس منكم ولكنه منا للعطف .

* * *

(١) بردت الدعوة : ثبت .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل أن يطرحوا في القليب ،
طرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خلف ، فإنه انتفخ في درعه فملاها ،
فذهبوا ليعرکوه ، فتزائل له ، فأقروه ، وألقوا عليه ما غيبه من التراب
والحجارة . فلما أقام في القليب وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني
ربي حقاً . فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتكلّم قومًا موتى ؟ فقال لهم : لقد
علموا أن ما وعدم ربهم حقاً .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتمسوا في القليب ، أخذ عتبة
ابن ربيعة ، فسحب إلى القليب ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه
أبي حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال : يا أبا حذيفة ، لعلك
قد دخلك من شأن أبيك شيء . ؟ - أو كما قال صلى الله عليه وسلم - فقال : لا والله
يا رسول الله ، ما شككتني أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف
من أبي رابياً وحليماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما
رأيت ما أصابه ، وذكرت مآمات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجوه ،
أحزنتني ذلك ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيراً .



ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بما في العسكر ، مما جمع الناس ،
فجمع ، فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جهة : هو لنا ، وقال الذين كانوا
يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم
حتى أصبتم ما أصبتم ، وقال الذين كانوا يحرصون رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
مخافة أن يخذل إليهم العدو : والله ما أنتم بأحق به منا ، والله لقد رأينا أن

قتل العدو إذ منعنا الله تعالى أكتافه ، ولقد رأينا أن نأخذ اللئاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولسكننا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كره العدو ، قمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا .

• • •

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة . قال أسامة بن زيد : فأتانا الخبر — حين سوي بنا التراب على رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي كانت عند عثمان بن عفان . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفني عليها مع عثمان — أن زيد بن حارثة قدم . قال : فبعثته ، وهو واقف بالمصلى قد غشيته الناس ، وهو يقول : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البغترى العاص بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ، ومنبه ، أبنا الطجاج . قال : قلت : يا أبت ، أحق هذا ؟ قال : نعم ، والله يا بني .

• • •

ثم أقبل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ، وفيهم هتبه بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث . واحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه النفل الذي أصيب من المشركين ، وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف بن مهبول .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا خرج من مضيق الصفراء ، نزل على كئيب بين المضيق وبين النازية ، قسم هناك النفل الذي أظاء الله عن المسلمين من المشركين على السواء ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنتونه بما فتح الله عليه ، ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة : ما الذي تهنتوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلماً كالبدن للملثة ، فنعرناها . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أي ابن أخي ، أولئك الملا .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم واحد .

وقدم بالأسارى حين قدم بهم ، وسودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند آل عفراء ، في مناحتهم على هوف ومعوذ ابني عفراء ، وذلك قبل أن يضرب عليهم الحجاب .

• • •

تقول سودة : والله إنى لعندم إذ أتينا ، قبيل : هؤلاء الأسارى قد أتى بهم . قالت : فرجعت إلى بيتي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو ناحية الحجر ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . قالت : فلا والله ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه ، أن قلت : أعطيتكم بأيديكم ، ألا ممت كراماً ؟ فوالله ما أنبهنى إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت : يا سودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ قلت : يا رسول الله ، والذي بمنك بالحق ، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه ، أن قلت ما قلت .

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل بالأسارى ، فرقمهم بين أصعابه ، وقال : احتوصوا بالأسارى خيراً .

وكان أول من قدم مكة بمصاب قریش ، الحديمان بن عبد الله الخزاعي ،
قالوا : ما وراك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم
ابن هشام ، وأميه بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ،
وأبو البختري بن هشام . فلما جعل يعدد أشرف قریش قال صفوان بن أميه ،
وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عنی . فقالوا : ما فعل صفوان
ابن أميه ؟ قال : ها هو ذاك جالساً في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه
حين قتلا .

ويقول أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاماً
لعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ،
وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ،
وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه ، وكان أبو لهب
قد تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاصم بن هشام بن المغيرة ، وكذلك كانوا
صنعوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً ، فلما جاءه الخبر عن
مصاب أصحاب بدر من قریش ، كتب الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا
قوة وعزاً .

ويقول أبو رافع : وكنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح ، أنحمتها في حجرة
زمزم ، فوالله إنى لجالس أنحمت أقداحي ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد مرنا ما جاءنا
من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يمر رجله بشر ، حتى جلس على طنب الحجر ،
فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان
ابن الحارث بن عبد المطلب قد قدم . فقال له أبو لهب : هلم إلي ، فننك
لعمرى الخبر . فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال : يا ابن أخي ، أخبرني كيف

كان أمر الناس؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمنعناهم أكتافنا ،
يقودوننا كيف شاءوا ، وبأسرونا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما ملت
الناس ، لقينا رجالاً بيضاً ، على خيل بلق ، بين السماء والأرض ، والله ما تلون
شيتاً ، ولا يقوم لها شيء . قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجره بيدي ، ثم
قلت : تلك والله الملائكة ، فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربة
شديدة . قال : وثاورته فاحتماي ، فضرب بي الأرض ، ثم برك على يضري ،
وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى هود من همد الحجره ، فأخذته
فضربت به ضربة شنت في رأسه شجة منكرة ، وقالت : استهففته أن غاب
عنه سيده . فقام مولياً ذليلاً . فوالله ما عاش إلا سبع ليال ، حتى رماه الله
بالعدسة ، فقتلته .

وناحت قريش على قتلهم ، ثم قالوا : لا تفعلوا فيبأن عمداً وأصحابه ،
فيشتموا بكم ، ولا تبهثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم^(١) ، لا يارب^(٢) عليكم
عمداً وأصحابه في الفداء . وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من
ولده : زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود ، والحارث بن زمعة ، وكان
يحب أن يبكي على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل فقال الغلام له ،
وقد ذهب بصره : انظر هل أحل النعب ، هل بكت قريش على قتلاها ؟
لعل أبكي على أبي حكيمة ، يعني زمعة ، فإن جوفى قد احترق . فلما رجع
إليه الغلام قال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته .

وكان في الأسارى أبو وداعة بن ضبيرة السهمي ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذامالاً ، وكانكم به
قد جاءكم في طلب فداء أبيه . فلما قالت قريش : لا تعجلوا بفداء أسراكم ،

(١) حتى تستأنوا بهم ، أي حتى تؤخروا فداءهم .

(٢) لا يارب : لا يشتد .

لا يأرب عليكم محمد وأصحابه . قال المطلب بن أبي وداعة : صدقتم .
لا تمجلوا ، وانسل من الليل قدم للدينة ، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم ،
فانطلق به .

ثم بعثت قريش في فداء الأسارى ، فقيل لأبي سفيان : اقد همراً ابنك .
قال : أجمع على دمي ومالي ، قتلوا حنظلة ، وأفدى همراً ، دعوه في أيديهم ،
يمسكوه ما بدا لهم .

فينا هو كذلك ، محبوس بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال ، معتمراً ، ومع مربة^(١) له ،
وكان شيئاً مسلماً ، في غنم له بالنقيع ، فخرج من هناك معتمراً ، ولا يخشى
الذي صنع به ، لم يظن أنه يجبس بمسكة ، إنما جاء معتمراً ، وقد عهد
قريشاً لا يتعرضون لأحد جاء حاجباً ، أو معتمراً ، إلا بخير ، فمدا عليه أبو
سفيان بن حرب بمسكة ، فحبسه بابنه عمرو ، ومشي بنو عمرو بن عوف إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخبروه خبره ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن
أبي سفيان ، فيفكروا به صاحبهم ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمشتوا به
إلى أبي سفيان ، فغلى سبيل سعد .

وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس .
ختم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته زينب .

(١) مربة ، تصغير امرأة .

وكان أبو العاص من رجال مكة للمدودين : مالا ، وأمانة ، وتجارة ، وكان هالة بنت خويلد ، وكانت خديجة خالته ، فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالفها ، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي ، فزوجه ، وكانت تعده بمنزلة ولدها ، فلما أكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بنبوته ، آمنت به خديجة وبناته ، فصدقته ، وشهدن أن ما جاء به الحق ، وذنَّ بدينه ، وثبت أبو العاص على شركه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوج عتبة بن أبي لهب رقية ، أو أم كلثوم . فلما يادى قريشاً بأمر الله تعالى وبالمدأوة ، قالوا : إنكم قد فرغتم محمداً من همه ، فردوا عليه بناته ، فاشغلوه بهن ، فمشوا إلى أبي العاص ، فقالوا له : فارق صاحبك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت . قال : لا والله ، إني لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بأمرأتى امرأة من قريش . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى عليه في صهره خيراً . ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب ، فقالوا له : طلق بنت محمد ونحن فنكحك أي امرأة من قريش شئت . فقال : إن زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص ، أو بنت سعيد بن العاص ، فارقتها ، فزوجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها ، ولم يسكن دخل بها ، فأخرجها الله من يده كرامة لها ، وهو أئانها ، وخلف عليها عثمان بن عفان بعده .

• • •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحمل بمكة ولا يحرم ، مغلوباً على أمره . وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

حين أسلمت ، وبين أبي العاص بن الربيع ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر أن يفرق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه ، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سارت قريش إلى بدر ، سار فيهم أبو العاص بن الربيع فأصيب في الأسارى يوم بدر ، فكان بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما بعث أهل مكة في فداء أمراءهم ، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عايبها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رفق لها رقة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تعاقبوا لها أسرها ، وتردوا عايبها مالها ، فافعلوا ، فقالوا : نعم يا رسول الله . فأطلقوه ، وردوا عليها الذي لها . R

• • •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عايبه ، أن يخلى سبيل زينب إليه ، فلما قدم أبو العاص مكة ، أمرها بالحقوق بأبيها ، فخرجت تجهز .

فلما فرغت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهازها ، قدم لها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها ، معها فركين ، وأخذ تومسه وكنائسه ، ثم خرج بها تباراً يهود بها ، وهي في هودج لها . وتحدث بذلك رجال من قريش ، فخرجوا في طلبها ، حتى أدركوها بذي طوى ، فسكن أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن الطالب بن أسد بن عبد العزى ، والنهري ، فزوجها هبار بالرمح ، وهي في هودجها ، وكانت المرأة حاملاً - فيما يزعمون - فلما ربت طرحت ذا بطنها ، وبرك حموها كنانة ، ونثر كنائسه ، ثم قال : والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما ، فرجع الناس عنه . وأتى أبو سفيان في جلة من قريش فقال : أيها الرجل ، كلف عنا نيلك حتى تكلمك ، فكف ، فأقبل

أبو سفيان حتى وقف عليه ، فقال : إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رسول
الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن
الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رسول الناس من بين أظهرنا ،
أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك منا ضف ووهن ،
ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا في ذلك من فخر ، ولكن
ارجع بالمرأة ، حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها
سراً ، وألحظها بأبيها ، ففعل ، فأقامت ليالي ، حتى إذا هدأت الأصوات ،
خرج بها ليلاً ، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدمها على رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالمدينة ، حين فرق بينهما الإسلام . حتى إذا كان قبيل الفتح ، خرج
أبو العاص تاجراً إلى الشام ، وكان رجلاً مأموناً ، بماله وأموال لرجال
من قريش ، أبيضوها معه ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً ، لقيته سرية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هارباً ، فلما قدمت
السرية بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل ، حتى دخل على
زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجار بها ، فأجارته ، وجاء في
طلب ماله ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح ، فكبر وكبر
الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس ، إني قد أجرت
أبا العاص بن الربيع ، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة ،
أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم ، قال :
أما والذي نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه
يجير على المسلمين أديانهم . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل

على ابنته ، فقال : أى بنية ، أكرمي مثواه ، ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى المرية الذين أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فى الله الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحق به . فقالوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه ، فردوه عليه ، حتى إن الرجل لياتى بالدلو ، ويأتى الرجل بالشنه ، وبالإداوة ، حتى إن أحدهم لياتى بالشنط ، حتى ردوا عليه ماله بأسره ، لا يفقد منه شيئا . ثم احتمل إلى مكة ، فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ، ومن كان أبضع معه ، ثم قال : يا معشر قريش ، هلبقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ، قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما . قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعتنى من الإسلام عنده . إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم ، وفرغت منها ، أسلمت ، ثم خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجلس همير بن وهب الجمعى مع صفوان بن أمية ، بعد مصاب أهل بدر من قريش ، فى الحجر بدير ، وكان همير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، وعن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولتى منه عناء وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن همير فى أسارى بدر .

فذكر أصحاب القليب ومصائبهم ، فقال صفوان : والله ليس في العيش
بعدهم خير ، قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لو لا دين عليّ ليس له عندي
قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، ركبت إلى محمد حتى أتته ،
فإن لي قلمم علة : ابن أسير في أيديهم ، فاعتنمها صفوان ، وقال : على دينك ،
أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أو أسيرهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .
فقال له عمير : فاكتم شأنى وشأنك . قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه ، فشعذله وسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما
عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم
الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب ، حين أناع
على باب المسجد متوشعاً بالسيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير
ابن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا ، وحزرتنا^(١) للقوم
يوم بدر .

• • •

ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، هذا
عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشعاً بسيفه ، قال : فأدخله عليّ . فأقبل عمر حتى
أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبيه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :
ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجلسوا عنده ؛ واحذروا عليه
من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو آخذ بحمالة سيفه في عنقه ، قال :
أرسله يا همر ، ادن يا همر ، فدنا ثم قال : أنعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل

(١) حزرتنا : قمر عددنا تخميناً .

الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحية
خير من تحيتك يا حمير ، بالسلام تحية أهل الجنة . فقال : أما والله يا محمد ،
إن كنت بها لحديث عهد . قال : فما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير
الذى في أيديكم ، فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبعتها
الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : أصدقني ، ما الذى جئت له ؟
قال : ما جئت إلا لذلك ، قال : بل قدمت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ،
فذكرت ما أصعب القلب من قريش ، ثم قلت : لولا دين عليّ وعيال عندي ،
لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتعمل لك صفوان بدينك وعيالك ، على أن تقتلني
له ، والله حائل بيني وبين ذلك ، قال حمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا
يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك
من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك
به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة
الحق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قهروا أخاكم في دينه ، وأقرئوه
القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا .

ثم قال يا رسول الله ، إني صكنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد
الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لي ، فأقدم مكة
فأدعوم إلى الله تعالى ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الإسلام
لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم ، كما كنت أؤذى أصحابك في دينهم .
فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلعق بمكة . وكان صفوان بن أمية
حين خرج حمير بن وهب ، يقول : أبشروا بركة تانيكم الآن في أيام تذيكم
وقعة بدر . وكان صفوان يسأل عن الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن
إسلامه ، فعلف ألا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه ينفع أبداً .

فلما قدم حمير مكة ، أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالقه أذى شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير .

وأسر من المشركين من قريش يوم بدر ثلاثة وأربصون رجلاً .

• • •

٦٢ - غزوة السويق

- ثم غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق في ذي الحجة ، وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة ، ورجع فل^(١) قريش من بدر ، نذر ألا يمسه رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً صلى الله عليه وسلم ، فخرج في مائتي راكب من قريش ، ليبر يمينه ، فإلك النجدية حتى نزل بصدرة قناة إلى جبل يقال له : ثيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج من الليل ، حتى أتى بني النضير تحت الليل ، فأتى حيسى بن أخطب ، فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له بابه وخافه ، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم ، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك ، وصاحب كنزهم ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فقراه وسقاه ، وأعلمه من خبر الناس . ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبث رجلاً من قريش إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها ، يقال لها : العريض ، فحرقوا في أصوار - جماعة من نخل بها - ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لها ، فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ، ونذر بهم الناس . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبهم ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر ، وهو أبو لبابة ، حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً ، قد فاته أبو سفيان - وأصحابه ، وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث ، يتخفون منها للنجاة . فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أنطمع أن نكون لنا غزوة ؟ قال : نعم .

(١) الفل : القوم المنهزمون .

وإنما سميت غزوة السويق ، لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم السويق ، فهجم المسلمون على سويق كبير ، فسميت غزوة السويق .

• • •

٦٣ - غزوة ذي أمر

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة السويق ، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها ، ثم غزا نجدًا ، يريد غطفان ، وهي غزوة ذي أمر . واستعمل على المدينة عثمان بن عفان ، فأقام بنجد صفرًا كله ، أو قريباً من ذلك ، ثم رجع إلى المدينة ، ولم يبق كيداً . فلبث بها شهر ربيع الأول كله ، أو إلا قليلاً منه .

• • •

٦٤ - غزوة الفرع

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد قريشًا ، استعمل على للمدينة ابن أم مكتوم ، حتى بلغ بحران ، ممدنا بالحجاز من ناحية الفرع ، فأقام بها شهر بيب الآخر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

• • •

٦٥ - حديث بنى قينقاع

وقد كان فيما بين ذلك من غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر بنى قينقاع ، وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جهم بسوق بنى قينقاع ، ثم قال : يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم قالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ، لا يفرئك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لعلنا أننا نحن الناس .

وكان بنو قينقاع أول يهود تقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد .

• • •

وكان من أمر بنو قينقاع أن امرأة من العرب قدمت يجلب لها ، فباعته بسوق بنو قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فعملوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ؛ فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فنقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم للمسلمين على اليهود ؛ فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنو قينقاع . فعاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكة ، فقام إليه عبد الله ابن أبي بن سلول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى ، فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلني ، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم قال : ويحك ، أرسلني . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، أربعمائة حامر وثلاثمائة دارع وقد منعوني من الأحمر والأسود وتمصدم في غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك .

• • •

وامتعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة في محاصرته إياهم
بشهر بن عبد المنذر ، وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة .

• • •

ولما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تشبث بأمرهم عبدالله
ابن أبي بن سلول ، وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد بني عوف ، لم من حلفه مثل الذي لم من
عبد الله بن أبي ، فدخلهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبرأ إلى الله
عز وجل ، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم من حلفهم ، وقال : يا رسول الله ،
أنزلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار
وولايتهم .

• • •

٦٦ - سرية زيد

وأما سرية زيد بن حارثة ، التي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ،
حين أصاب عبر قريش ، وفيها أبو سفيان بن حرب ، على القردة : ماء من
مياه نجد ، فكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون
إلى الشام ، حين كان من وقعة بدر ما كان ، فسلكوا طريق العراق ، فخرج
منهم تجار ، فيهم : أبو سفيان بن حرب ، ومعه فضة كثيرة ، وهي عظم
تجارهم ، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل ، يقال له : فرات بن حيان ،
يدلهم في ذلك على الطريق .

• • •

٦٧ - مقتل كعب بن الأشرف

وكان من حديث كعب بن الأشرف ، أنه لما أصيب أصحاب بدر ،
وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، وعهد الله بن ربيعة إلى أهل العالية ،

بشبرين ، بثمما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من المدينة من المسلمين
بفتح الله عز وجل عليه ، وقتل من قتل من المشركين .

قال كعب بن الأشرف ، حين بلغه الخبر : أحق هذا ؟ أترون محمداً قتل
هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان - يني زيدا وعبد الله بن رواحة - فهؤلاء
أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم ،
لبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن عدو الله الخبر ، خرج حتى قدم مكة ، فنزل على المطالب بن
أبي وداعة بن ضبيرة السهمي وعنده عاتكة بنت أبي الميهم بن أمية بن عبد شمس
ابن عبد مناف ، فأنزلته وأكرمه ، وجعله يمرض على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وينشد الأسمار ، ويبكي أصحاب القليب من قريش ، الذين أصيبوا
ببدر . ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لي يا بن الأشرف ؟ فخرج إليه محمداً
ابن مسلة فقتله .

٦٨ - غزوة احد

ربما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع فلهم
إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بهيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ،
وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش ممن أصيب
آهؤم وأبناؤم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت
له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا مشر قريش ، إن محمداً قد وترككم ،
وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربيه ، فلعلنا ندرلك منه ثارنا بمن
أصاب منا ، ففعلوا .

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فعل ذلك

أبو سفيان بن حرب وأصحاب العير بأحايشها ، ومن أطاعها من قبائل كنانة ، وأهل تهامة ، وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي قد منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وكان فقيراً ذاعياً وحاجة ، وكان في الأعرابي ، فقال : إني فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها فامنن عليّ ، صلى الله عليك وسلم ، فنّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له صفوان بن أمية : وأبا عزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فأخرج معنا ، فقال : إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال : بلى ، فأعنا بنفسك فلك والله عليّ إن رجعت أن أغنيك وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر . فخرج أبو عزة يسير في تهامة ، وبدعو بني كنانة .

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بني مالك ابن كنانة ، يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له : وحشى ، يقذف بحربة له قذف الحبشة ، فلما يخطئ بها ، فقال له : أخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة هم محمد ، بنى طعيمة بن عدي ، فأنت عتيق .

فخرجت قريش بمحدها وجددها وحديدها وأحايشها ، ومن تابعها من بني كنانة ، وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظن ، التماس الحفيظة وألا يفروا ، فخرج أبو سفيان بن حرب ، وهو قائد الناس ، بمنة بنت عتبة ، وخرج حكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن حمير النخعية ، وهي أم عبد الله بن صفوان ابن أمية .

وخرج عمرو بن العاص بربطة بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو، وخرج أبو طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية، وهي أم بني طلحة: مسافع، والجلال، وكلاب، قتلوا يومئذهم وأبوهم، وخرجت خنص بنت مالك بن الضرب، إحدى نساء بني مالك بن حسل، مع ابنها أبي عزيز بن حمير، وهي أم مصعب ابن حمير، وخرجت حمرة بنت علقمة، إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناة ابن كنانة.

• • •

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مر بها، قالت: وبها أبادسمة، اشف وامتشف ا وكان وحشى يكنى بأبى دسمة، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين، بجبل ببطن السبخة، من قناة على شفير الوادى، مقابل المدينة. فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والنساء-ون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين: إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقرأ، ورأيت في ذباب سبي في ثلماً، ورأيت أنى أدخلت يدي في درع حصينة، فأولتها المدينة.

فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قائلناهم فيها، وكان رأى عبد الله بن أبي بن سلول مع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أننا جبننا عنهم وضمفنا ا قتال عبد الله بن

أبي بن سلول : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ، لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا
منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم
يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في
وجوههم ورمم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا
خائبين كما جاءوا . فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين
كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته
فلبس لأمته ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مات في ذلك اليوم
رجل من الأنصار يقال له : مالك بن عمرو ، أحد بني النجار ، فعلى عليه رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إليهم ، وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك . فلما خرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت
فأقم صلى الله عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغي لبي إذا لبس
لأمته أن يضمها حتى يقاتل . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه .
حتى إذا كانوا بالشروط بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبي
ابن سلول بثلك الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ما تدري علام نزل أنفسنا
ها هنا أيها الناس ، فرجم بن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، واتبهم
عبد الله بن عمرو بن حرام ، أخو بني مسلة ، يقول : يا قوم ، أذكركم الله ألا
تخذلوا قومكم ونبئكم ، عندما حضر من عدوهم ، فقالوا : لو نعام أنكم تقاتلون
لما أسلمناكم ، ولسكننا لا نرى أنه يكون قتال فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف
عنهم ، قال : أهدمكم الله أعداء فيصغى الله عنكم نبيه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سلك في حرة بني حارثة ،

فذب فرس بذنبه ، فأصاب كلاب (١) سيف فاستله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يعجب للفأل ولا يمتاف ،
لصاحب السيف : شم سيفك ، فإنى أرى للسيف سلسل اليوم .
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : من رجل يخرج بنا على
القوم من كذب ، أى من قرب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ؟ قال أبو خيثمة
أخو بنى حارثة بن الحارث : أنا يا رسول الله ، فنفذ به فى حرة بنى حارثة
وبين أموالهم ، حتى سلك فى مال لمربع بن قبيظ ، وكان رجلاً منافقاً خريز
البصر ، فلما سمع حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ،
قام يمشى فى وجوههم التراب ، ويقول : إن كنت رسول الله فإنى لأحل
لك أن تدخل حائطى ، وأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال : والله لو أعلم
أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد ، لضربت بها وجهك . فابتدره القوم ليقتلوه ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب ،
أعمى البصر . وقد بدر إليه سعد بن زيد ، أخو بنى الأشجول ، قبل
نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، فضربه بالقوس فى رأسه
فشجبه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد ،
فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال :
لا يقانلن أحد منكم حتى تأمره بالقتال .

•••

وتهباً رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال ، وهو فى سبع مائة
رجل ، وأمر على الرمسة عبد الله بن جبير ، أخا بنى عمرو بن
عوف ، وهو معلم يومئذ بثياب بيض ، والرمسة خمسون

(١) صلاب السيف : لائمه .

رجلا ، فقال : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك ، لا تؤتينا من قبلك . وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، أخى بنى عبد المدار .

وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ، ورافع بن خديج ، أخا بنى حارثة ، وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وكان قد ردهما ، فقيل له : يا رسول الله ، إن رافعا رام ، فأجازه ، فلما أجاز رافعا ، قيل له : يا رسول الله ، فإن سمرة يصرع رافعا ، فأجازه . ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، أحد بنى مالك بن النجار ، والبراء بن عازب ، أحد بنى حارثة ، وحمرو بن حزم ، أحد بنى مالك بن النجار ، وأسيد بن ظهير ، أحد بنى حارثة ، ثم أجازهم يوم الخندق ، وهم أبناء خمس عشرة سنة .

• • •

وتعمأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مئتا فرس قد جنبوها ، فجعلوا هل مينة الخليل خالد بن الوليد ، وهلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال ، فأمسك عنهم ، حتى قام إليه أبو دجانة صمك بن خرشة ، أخو بنى ساعدة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به العدو حتى ينحني ، قال : أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه إياه . وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يمتثل عند الحرب ، إذا كانت ، وكان إذا أعلم بمصيبة له حراء ، فاعتصب بها ، علم الناس أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

أخرج عصابته تلك ، فصبب بها رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفين .

• • •

ثم إن أبا عامر ، عبد عمرو بن صيني بن مالك بن النعمان ، أحد بني ضبيعة ، وقد كان خرج حين خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، معه خمسون غلاماً من الأوس — وبعض الناس كان يقول : كانوا خمسة عشر رجلاً — وكان يعد قريشاً أن لو قد اتقى قومه ، لم يختلف عليهم منهم رجلان . فلما التقى الناس كان أول من تقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك علينا يا فاسق — وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية : الراهب ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : الفاسق — فلما سمع ردم عليه قال : لقد أصاب قومي بعدى شر ، ثم قاتلهم قتالاً شديداً ، ثم راض عنهم بالحجارة .

وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد المطلب عرضهم بذلك على القتال : يا بني عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيت ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فلما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلو بيننا وبينه ، فنكفيكوه ، فهو ابه ، وتواعدوه ، وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذ التقينا كيف نصنع !

• • •

فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذت الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم . فاقنتل الناس حتى حبت الحرب ، وقاتل أبو دجانة حتى أمدن في الناس ، فجعل لا يبقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا ذفف عليه ،

فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب
المشرك أبادجانة ، فاتقاه بدرتته فمضت بسيفه ، وضربه أبادجانة فقتله .

وقال أبادجانة سمالك بن خرشة : رأيت إنسانا يحمش الناس خمشا شديدا ،
فصدمت له ، فلما حملت عايه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة .

• • •

وقال وحشى ، غلام جبير بن مطعم ، والله إنى لأنظر إلى حمزة يهد الناس
بسيفه ما يلبق به شيئا ، مثل الجمل الأورق ، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ،
فقال له حمزة : هلم إلى يابن مقطعة البظور ، فضربه ضربة فكأنت ما أخطأ
رأسه ، وهزرت حربى ، حتى إذا رضيت منها ، دفعتها عليه ، فوقمت فى ثنته ،
حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوى ، فقلب فوقع ، وأمهلته حتى إذا
مات جئت فأخذت حربى ، ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم تكن لى بشيء
حاجة غيره .

• • •

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل ،
وكان الذى قتله ابن قنينة البقي ، وهو بطن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فرجع إلى قريش ، فقال : قتلت عمدا . فلما قتل مصعب بن عمير ، أعطى رسول
الله صلى الله عليه وسلم اللواء إلى على بن أبى طالب ، وقاتل على بن أبى طالب
ورجال من المشركين .

ولما اشتد القتال يوم أحد ، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت
راية الأنصار ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على بن أبى طالب

رضوان الله عليه : أن قدم الراية . فتقدم علي ، فقال : أنا أبو القاسم ، فناداه أبو سعد بن أبي طلحة ، وهو صاحب لواء المشركين : أن هل لك يا أبا القاسم في البراز من حاجة ؟ قال : نعم . فبرزنا بين الصفيين ، فاختلفنا ضربتين ، فضربه علي فصرعه ، ثم انصرف عنه ، ولم يجرز عليه ، فقال له أصحابه : أفلا جهزت عليه ؟ فقال : إنه استقباني بمورته ، فمطفتني عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله .

* * *

وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، فقتل مسافع بن طلحة ، وأخاه الجلاس بن طلحة ، كلاهما بشمره سهماً ، فأنى أمه سلاقة ، فيضع رأسه في حجرها ، فتقول : يا بني ، من أصابك ؟ فيقول : سميت رجلاً حين رماني وهو يقول . خذها وأنا ابن أبي الأفلح ، فندرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمس مشركاً أبداً ، ولا يمس مشرك .

* * *

والتقى حنظلة بن أبي عامر الفسيل وأبو سفيان ، فلما استعلاه حنظلة ابن أبي عامر ، رآه شاد بن الأسود ، وهو بن شعوب ، قد علا أبا سفيان ، فضربه شداد فقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صاحبكم ، يعني حنظلة ، لتغله الملائكة فسألوا أهله وما شأنه ؟ فسئلت صاحبه عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة .

* * *

ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فغصوم بالسيوف ، حتى كشفهم عن المسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيهما .

ويقول الزبير : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماة إلى المسكر ، حين كشفنا القوم عنه ، وخلصوا ظهورنا للخييل ، فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا أن عمداً قد قتل ، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم ، بعد أن أصبنا أصعاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم .

ثم إن اللواء لم يزل صريعاً حتى أخذته عمرة بنت عقبة الحارثية ، فرفضته لقريش ، وكان اللواء مع صواب ، غلام لبني أبي طلحة ، حبشي ، وكان آخر من أخذه منهم ، فقاتل به حتى قطعت يده ، ثم برك عليه ، فأخذ اللواء بصدرة وعنقه حتى قتل عليه ، وهو يقول : اللهم هل أعزرت .

وانكشف المسلمون ، فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتحميس ، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصيب بالحجارة ، حتى وقع لشقه ، فأصيبت ربايعته ، وشج في وجهه ، وكلت شفته ، وكان الذي أصابه عقبة بن أبي وقاص .

ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التي همل أبو عامر ، لوقع فيها المسلمون ، وهم لا يعلمون ، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفع طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى قائماً ، ومص مالك بن سنان ، أبو أبي سعيد الخدري ، الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ازدردده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مس دمي دمه لم تصبه النار .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين غشيه القوم : من يخرج مني بشري لنا نفيه؟ فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار - وبمض الناس يقول : إنما هو عمارة بن يزيد بن السكن - فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ثم رجلا ، يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد ، أو عمارة ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوه عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدنوه مني ، فأدنوه منه ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول عمارة : خرجت أول النهار ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في أصعابه ، والهدوء والريح للمسلمين ، فلما انهزم للمسلمون ، انحزرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فممت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلى .

ولما ولي الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل رجل يقول : دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجما ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربني هذه الضربة ، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وترس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل في ظهره ، وهو منعن عليه ، حتى كثر فيه النبل . ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد : فلقد رأيتك يتناولني النبل وهو يقول : ارم ، فسذاك أبي وأمي ، حتى إنه ليتناولني السهم ماله نصل ، فيقول : ارم به .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رمى عن قوسه حتى اندقت
سيتها ، فأخذها قتادة بن النعمان ، فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عين قتادة
ابن النعمان ، حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ،
فكانت أحسن عينيه وأحدهما .

• • •

وانتهى أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك ، إلى عمر بن الخطاب ، وطالعة
ابن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد أتوا بأيديهم ، فقال :
ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإذا تصنعون
بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على مامات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل .

ولقد وجدوا بأنس بن النضر يومئذ صبيها فربية ، فأعرفه إلا أخته ،
عرفته بيناته .

• • •

وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ،
وقول الناس : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كعب بن مالك ، قال :
عرفت عيني تزهرا من تحت المعفر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين ،
أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم : أن أنصت .

فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ، ونهض
معهم نحو الشعب ، معه أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وحلي بن
أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، رضوان الله عليهم ، والحارث
بن الصمة ، ورهط من المسلمين .

فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب ، أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أي محمد ، لانجوت إن نجوت ، فقال القوم : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه ، فلما دنا ، تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، انتفض بها انتفاضة ، تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذ انتفض بها - والشعراء : ذباب له لدغ - ثم استقبله نطحه في عنقه طعنة تدأدا منها عن فرسه مرارا .

• • •

وكان أبي بن خلف ، ياتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فيقول : يا محمد ، إن عندي العوذ ، فرسا أعلاه كل يوم فرقا^(١) من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قتلتني والله محمد اقلوا له : ذهب والله فؤادك ، والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق علي لقتاني . فمات عدو الله بسرف^(٢) ، وهم قافلون به إلى مكة .

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فم بالشعب ، خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس ، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) مكيا لا بيم اثني عشر وملا .

(٢) موضع على ستة أميال من مكة .

وسلم ، يشرب منه ، فوجد له ريحاً ، فمات ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من أدمى وجهه فيه . وكان سعد بن أبي وقاص يقول : والله ما حرصت على قتل رجل قط ، كحرصى على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان ما علمت لسيء الخلق مبنضاً في قومه ، ولقد كفانى منه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشتد غضب الله على من أدمى وجه رسوله .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثعب ، معه أولئك النفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قريش الجبل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا ! فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين ، حتى أهبطوهم من الجبل . ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر بين درعين ، فلما ذهب ليمرض صلى الله عليه وسلم لم يستطع ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به ، حتى استوى عليها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجب طلحة ، حين صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع .

• • •

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح التي أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً . ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد ، رفع حسيل بن جابر ، وهو أيمان أبو حذيفة بن أيمان ، وثابت ابن وقش ، في الأظلام مع النساء والصبيان ، فقال أحدهما لصاحبه ، وهما شيخان كبيران : لا أبالك أما تنتظر ؟ فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظمء حار ، إنما نحن هامة اليوم أو غد ، أفلا نأخذ أسياقنا ، ثم نلحق برسول

الله صلى الله عليه وسلم ، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأخذنا أسياقمنا ، ثم خرجنا ، حتى دخلنا في الناس ، ولم يعلم بهما ، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون ، وأما حسيل بن جابر ، فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه ولا يعرفونه ، فقال حذيفة : أبى ، قالوا : والله إن عرفناه ، وصدقوا . قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يديه ، فتصدق حذيفة بدينه على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً .

ثم إن رجلاً منهم كان يدعى حاطب بن أمية بن رافع ، وكان له ابن يقال له يزيد بن حاطب أصابته جراحة يوم أحد ، فأتى به إلى دار قومه وهو بالموت ، فاجتمع إليه أهل الدار ، فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء : أبشر يا ابن حاطب بالجنة ، قال : وكان حاطب شيناً قد صا في الجاهلية ، فنجم يومئذ ثقافة ، فقال : بأى شيء تبشرونه ، بجنة من حرمل ؟ غررتم والله هذا الغلام من نفسه .

ويقول عامر بن صعصعة بن قتادة : كان فينا رجل أتى (١) لا يدري من هو ، يقال له : قزمان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، إذا ذكر له : إنه لمن أهل النار . فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس ، فأثبته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بني ظفر ، فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان ،

(١) أتى ستره فريب .

فأبشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت . فلما اشتدت عليه جراحته ، أخذ سهماً من كنفاته ، فقتل به نفسه

وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق ، فإنه لما كان يوم أحد ، قال : يا معشر يهود ، والله لو علمتم أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لاسبت لكم ، فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فإلى الحمد سيصنع فيه ما يشاء ، ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاتل معه حتى قتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مخيريق خير يهود .

وكان عمرو بن الجرح أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد ، فلما كان يوم أحد ، أرادوا حبسه ، وقالوا له : إن الله عز وجل قد عذرك ، فإني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن بني يريدون أن يمسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فوالله إني لا أرجو أن أطأ بمرجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد عذرك الله ، فلا جهاد عليك . فقال لبنيه : ما عليكم ألا تتموه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه ، فقتل يوم أحد .

ووقت عند بنت عتبة ، والنسوة التي معها ، يمتلن بالفتلى ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يمدعن الأذان والأنف ، حتى أخذت هند من أذان الرجال وأنفهم خدماً وقلانداً ، وأعطت خدمها وقلانداً

وقرطتها وحشياً ، غلام جبير بن مطعم ، وبقرت عن كبد حمزة ، فلا كتبها ، فلم تستطع أن تسيبها ، فانفلتت .

• • •

ثم إن أبا سفيان بن حرب ، حين أراد الانصراف ، أشرف على الجبل . ثم صرخ بأعلى صوته ، فقال : أنعمت فمال^(١) ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، أغل هبل - أي أظهر دينك - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عمر فأجبه ، قال : الله أعلى وأجل ، لا سواه ، قتلتنا في الجنة ، وقتلناكم في النار . فلما أجاب عمر أبا سفيان ، قال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه أسمع كلامك الآن ، قال : أنت أصدق عندي من ابن قنينة وأبر ، لقول ابن قنينة لهم : إنى قد قتلت محمداً .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه ، نادى : إن موعدكم بدر للعام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب ، فقال : اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخليل ، وامتعطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخليل وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون للدينة . والذى نفسي بيده ، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأنجزنهم . قال على : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخليل ، وامتعطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة .

• • •

وفرغ الناس لتتلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل
ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من
الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد ، فنظر فوجده جريحاً
في القتلى وبه رمق . قال : فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمرني أن أنظر ، أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : أنا في الأموات ،
فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع
يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً من أمته ، وأبلغ قومك عنى
السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عنز لكم عند الله ،
أن خلص إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم ومنكم عين تطرف . قال : ثم لم أبرح
حتى مات ، فبحث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره .

• • •

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلتمس حمزة بن عبد المطلب ،
فوجده يبطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ، ومثل به فجدع أقه وأذناه .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما رأى : لولا أن تمزن
صنية ، ويكون سنة من بهدى لتركته ، حتى يكون في بطون السباع ،
وحواصل الطير ، وأئن أظبرني الله على قريش في موطن من المواطن ، لأمثلن
بثلاثين رجلاً منهم . فلما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم
وغيفه على من فعل بعه ما فعل ، قالوا : واثن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر ،
لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب .

ولما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة قل : لن أصاب
بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أغيف إلى من هذا ثم قال : جاءني جبريل

فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع :
حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله ، وأسد رسوله .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمزة فسجى بريدة ، ثم صلى عليه ،
فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى ، فيوضعون إلى حمزة ، فصلى عليهم
وعليه معهم ، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة .

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب ، لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأميها ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينها الزبير بن العوام : انما فأرجعها ،
لا ترى ما بأخيها ، فقال لها : يا أمه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يأمرك أن ترجعي ، قات : ولم أرقد بلفظي أن قد مُثل بأخي ، وذلك في الله ،
فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحسب ولأصبرن إن شاء الله . فلما جاء
الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك . قال : خل سيابها ،
فأنته ، فنظرت إليه ، فصلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ، ثم أمر به
رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن .

* * *

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يومئذ ، حين أمر بدفن القتلى :
انظروا إلى عمرو بن الجوح ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، فإنهما كانا
متصافيين في الدنيا ، فأجعلوهما في قبر واحد .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة ، فلقيت حمزة
بنت جعش ، فلما لقيت الناس نهي إليها أخوها عبد الله بن جعش ، فاسترجعت
واستغفرت له ، ثم نهي لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت له ،

ثم نسي لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولوت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن زوج المرأة منها لمكان ، لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالتها ، وصياحها على زوجها .

• • •

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل ونظر ، فسمع البكاء والنوائح على قتلام ، فسذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى ، ثم قال : لكن حمزة لا بواكي له ، فلما رجع سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، إلى دار بني عبد الأشهل ، أمرا نساءهم أن يتعزمن ، ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاء من على حمزة خرج عليهن ، ومن على باب مسجده يبكين عليه ، فقال : ارجعن يرحمك الله ، فقد آسيتن بأنفسكن .

• • •

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بني دينار ، وقد أميب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، فلما نوراها ، قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، وهو بمحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جلال ، تريد صغيرة .

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ، وناول سيفه ابنته فاطمة ، فقال : اغسلي عن هذا دمه يابنية ، فوالله لقد صدقتي اليوم ، وناولها على بن أبي طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضاً ، فاغسلي عنه دمه ،

فوالله لقد صدقني اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين كنت
صدقت القتال ، لقد صدق معك سهل بن حنيف ، وأبو دجاجة .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب : لا يصيب
المشركون منا مثلها ، حتى يفتح الله علينا . وكان يوم أحد يوم السبت
للنصف من شوال .

فلما كان الغد من يوم الأحد ، لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن
مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو ، فأذن مؤذنه :
ألا يخرج من معنا أحد حضر إلا أحد يومنا بالأمس . فكلمه جابر بن عبد الله
ابن عمرو بن حرام ، فقال : يا رسول الله ، إن أبي كان خلقني على أخوات لي
سبع ، وقال : يا بني ، إنه لا ينبغي لي ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لارجل
فيهن ، واست بالقي أو ترك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ،
فتخلف على أخواتك ، فتخلفت عليهن ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فخرج معه ، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهباً للعدو ، وليبليهم
أنه خرج في طلبهم ، ليظنوا به قسوة ، وأن الذي أصابهم ، لم يوهنهم
عن عدوهم .

• • •

وكان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من بني
عبد الأشهل ، شهد أحداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : شهدت
أحداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا وأخي لي ، فرجعنا جريحين ، فلما أذن
مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالخروج في طلب العدو ، قلت لأخي أو
قال لي : أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله ما لنا من دابة

تركبها ، وعامنا إلا جريح قليل ، فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وكنت أيسر جرحاً ، فكان إذا غاب حملته عقبه - مرة - ومشى عقبه ،
حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى حراء الأسد ، وهي
من المدينة على ثمانية أميال ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، فأقام بها
الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة .

وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة ، مسلمهم
ومشركهم ، عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتهمته ، لا يخفون عنه
شيئاً كان بها ، ومعبد يومئذ مشرك ، قال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا
ما أصابك ، ولوددنا أن الله عاقبك فيهم . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
بجھراء الأسد ، حتى أتى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا
الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حد أصحابه
وأشرافهم وقادتهم ، ثم رجع قبل أن نستأصلهم ! انكروا على بقيتهم ، فلنفرغن
منهم . فلما رأى أبو سفيان معبداً ، قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد
خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتصرفون عليكم تحرقاً ، قد
اجتمع معه من كان يخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من
الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ، قال : ويحك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى
أن ترتحل حتى أرى نواصي الليل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكفرة عليهم ،
لنستأصل بقيتهم . قال : فإني أنهارك عن ذلك .

ثم إن أبا سفيان بن حرب لما انصرف يوم أحد ، وأراد الرجوع إلى
للمدينة ، ليستأصل بقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لهم صفوان

ابن أمية بن خلف : لا تفعلوا ، فإن النوم قد حربوا ، وقد خشينا أن يكرن
لم قتال غير الذي كان ، فأرجعوا ، فرجعوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ،
وهو بحمراء الأسد ، حين بلغه أنهم هموا بالرجعة : والذي نفسي بيده ، لقد
سومت لهم حجارة ، لو صبغوا بها لكانوا كأمس القاهب .

• • •

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهة ذلك ، قبل رجوعه إلى المدينة ،
معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وهو جد عبد الملك
ابن مروان ، أبو أمه عائشة بنت معاوية ، وأبا عزة الجمعي ، وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم أسره بيدر ، ثم منّ عليه ، فقال : يا رسول الله ، ألقى ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لأتمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول :
خذعت محمداً مرتين ، اضرب عنقه بإزبير . فضرب عنقه .

• • •

وكان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، وحن
به المنافقين ، وحن كان يظهر الإيمان بلسانه ، وهو مستخف بالكفر في قلبه ،
ويوماً أكرم الله فيه من أراء كرامته بالشهادة من أهل ولايته .

وكان جميع من استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين
والأنصار خمسة وسبعين رجلاً .

• • •

٦٣ - يوم الرجيع

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة

قالوا : يا رسول الله، إن فينا إسلاماً ، فابث معنا نقرأ من أصحابك
يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويطهروننا شرائع الإسلام . فبث
رسول الله صلى الله عليه وسلم نقرأ ستة من أصحابه ، وهم مرتد بن أبي مرتد
الغنوي ، حليف حمزة بن عبد المطاب ، وخالد بن البكير الليثي ، حليف بنى
عدي بن كعب ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأتلع ، أخو بنى عمرو بن عوف
ابن مالك بن الأوس ، وخبيب بن عدي ، أخو بنى جحجحي بن كلفة بن
عمرو بن عوف، وزيد بن الدثنة بن معاوية، أخو بنى بياضة بن عمرو بن زريق
ابن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج ، وعبدالله بن طارق ،
حليف بنى ظفر بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم مرتد بن أبي مرتد الغنوي،
فخرج مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرجيع ، ماء لهذيل بناحية الحجاز ، على
صدر الهداة^(١) غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلًا ، فلم يبرح القوم وهم في
رحالهم، إلا الرجال بأيديهم السيوف، قد غشوم ، فأخذوا أسيافهم ليقاتلهم،
فقالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة،
ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

فأما مرتد بن أبي مرتد ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، فقالوا :
والله لا تقبل من مشرك عهداً ولا عهداً أبداً .

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ، لبيعهوه من سلافة بنت سعد
ابن شهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد : أن قدريت على

(١) بين موضع عسفان ومكة .

رأس عاصم ، لتشرين في قحفه الخمر ، فمنتهه الدبر^(١) ، فلما حالت بينه وبينهم الدبر قالوا : دعوه يمسي ، فنذهب عنه ، فناخذوه . فبعث الله الوادي ، فاحتمل عاصماً ، فذهب به . وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك ، ولا يمسه مشركاً أبداً ، تنجساً ، فكان هر بن الخطاب رضى الله عنه يقول ، حين بلغه : إن الدبر منتهه : يحفظ الله العبد المؤمن ، كما عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمسه مشركاً أبداً في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته .

• • •

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي ، وغبد الله بن طارق ، فلانوا ورقوا ، ورغبوا في الحياة ، فأعطوا بأيديهم ، فأسروهم ، ثم خرجوا إلى مكة ، ليبيعهم بها ، حتى إذا كانوا بالظهران انزع عبد الله بن طارق يده من القرآن^(٢) ، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره رحمه الله ، بالظهران .

• • •

وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ، فقدموا بهما مكة ، فابتاع خبيباً حجبر بن أبي إهاب التميمي ، حليف بني نوفل ، لعقبة بن الحارث بن عامر نوفل ، وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه ، ليقتله بأبيه .
وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ، ليقتله بأبيه ، أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له ، يقال له نسطاس ، إلى التنعيم ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش ، فيهم أبوسفيان بن حرب ، فقال

(١) الدبر: الزناير والنعل .

(٢) القرآن : الحبل .

له أبو سفيان ، حين قدم ليقتل : أشدك الله بازيد ، أحب أن عمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه ، وأنت في أمك ؟ قال : والله ما أحب أن عمداً الآن في مكانه الذي هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أمي . قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحُب أصحاب محمد عمداً ، ثم قتله نسطاس ، يرحمه الله .

ثم خرجوا بخبيب ، حتى إذا جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه ، قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين ، فافعلوا ، قالوا : دونك فاركع . فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم ، فقال : أما والله لو لا أن تظنوا أني إنما طولت جزءاً من القتل ، لاستكثرت من الصلاة .

فكان خبيب بن عدي أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين . ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه ، قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدءاً ، ولا تفر منهم أحداً . ثم قتلوه يرحمه الله .

٦٤ - حديث بئر معونة

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة ، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب بئر معونة في صفر ، على رأس أربعة أشهر من أحد .

وقدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاحب الأسنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، ودعاه ، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجلاً من

أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابمشهم ، فايدموا الناس إلى أمرك .
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم للنذر بن عمرو ، أخا بني ساعدة ، في أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهي إلى حرّة بني سليم أقرب .

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ماعان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر في كتابه ، حتى عدا على الرجل قتله ، ثم استصرخ عليهم بني عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى مادعاهم إليه ، وقالوا : لن نفتخر أبا براء ، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا ، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم ، يرحمهم الله ، إلا كعب بن زيد ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا رحمه الله .

وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ، ورجل من الأنصار ، فلم ينبشهما ببصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على المسكر ، فقالا : والله إن هذه الطير لشأنا ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دماثهم ، وإذا الخيل ، التي أصحابهم واقفة ، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنخبره الخبر ، فقال الأنصاري : لكني ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرني عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل .

وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مضر ، أطلقه عامر بن
الطافيل ، وجز ناصيته ، وأعتقه عن رقبة ، زعم أنها كانت على أمه .
فخرج عمرو بن أمية ، حتى إذا كان بالقرقرة^(١) ، أقبل رجلان من
بنو عامر حتى نزلا معه في خلل هو فيه . وكان مع العامرين عقد من رسول
الله صلى الله عليه وسلم وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أمية ، وقد سألهما حين نزلا :
عن أنما ؟ فقالا : من بني عامر ، فأمرهما ، حتى إذا ناما ، عدا عليهما فقتلها ،
وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم . فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأخبره الخبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد قتلت
قتيلين لأدينيهما .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً
متخوفاً . فباغ ذلك أبا براء ، فشق عليه إختار عامر إياه ، وما أصاب أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه وجواره ، وكان فيمن أصيب عامر
ابن فهيرة .

• * *

٦٥ - إجلاء بني النضير

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك
القتيلين من بني عامر ، اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري ، للجوار الذي كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لها ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد
وحلف ، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك

(١) القرقرة : موضع قريب من المدينة .

التتيلين ، قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فن رجل يلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جعاش بن كعب ، أحدهم ، فقال : أنا ذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، رضوان الله عليهم .

فأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم انخر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجماً إلى المدينة : فلما استلبث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، قاموا في طلبه ، فأتوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فدأوه عنه ، فقال : رأيت داخل المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهوا إليه صلى الله عليه وسلم ، فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود أرادت من الضرب به .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ للحربهم ، والسير إليهم . واستعمل على للمدينة ابن أم مكتوم . ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، وذلك في شهر ربيع الأول ، فحاصروهم ست ليال ، ونزل تحريم الحجر ، فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل ، والتعريق فيها ، فنادوه : أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد ، وتمييه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريره ؟

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج ، منهم عدو الله عبد الله ابن أبي بن سلول ، ووديمة ، ومالك بن أبي قوقل ، وسويدا وداعس ،

قد بعثوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإننا لن نسلّمكم ، إن قوتكم
قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ،
وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ،
ويكف عن دماهم ، على أن لم يماحات الإبل من أموالهم إلا السلاح ، ففعل .
فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن
عتبة يابه فيضمه على ظهر بعيره ، فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من
سار إلى الشام . وخلصوا الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت لرسول
الله صلى الله عليه وسلم خاصة بضمها حيث يشاء ، فقسمها رسول الله صلى الله
عليه وسلم على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حنيف ،
وأبا دجانة سمالك بن خرضة ، ذكرا فقرا ، فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان ، يامين بن حمير ، أبو كعب
ابن عمرو بن جعاش ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما ، فأحرزاهما .

• • •

٦٦ - غزوة ذات الرقاع

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بني النضير ،
شهر ربيع الآخر وبعض جمادى ، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من
عطفان ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري ، حتى نزل نخلاً^(١) ، وهي غزوة ذات
الرقاع ، وإنما قيل لها : غزوة ذات الرقاع ، لأنهم رقعوا فيها راياتهم . فلقى بها
جماً عظيماً من عطفان ، فتقارب الناس ، ولم تكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس

(١) نخل . وضع بنجد .

بعضهم بعضاً ، حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف ،
ثم انصرف بالناس .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة ذات الرقاع ، أقام بها
بقية جهادى الأولى وجهادى الآخرة ورجباً .

• • •

٦٧ - غزوة بدو الآخرة

ثم خرج في شعبان إلى بدر ، لميعاد أبي سفيان ، حتى نزله .
واستعمل على المدينة عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول الأنصارى ، فأقام
عاهة ثمانى ليال ينظر أباسفيان . وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة ،
من ناحية الظهران ، ثم بدا له في الرجوع ، فقال : يا معشر قريش ، إنه
لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن
عامكم هذا عام جذب ، وإني راجع ، فأرجعوا ، فرجع الناس . فسام أهل
مكة جيش السويق ، يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق .

ولما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على بدر ينتظر أباسفيان لميعاده أتاه
عشى بن عمرو الضمرى ، وهو الذى كان وادعه على بنى ضمرة في غزوة ودان ،
فقال : يا محمد ، أجتت للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : نعم ، يا أخا بنى ضمرة ،
وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدناك حتى يحكم
الله بيننا وبينك . قال : لا والله يا محمد مالنا بذلك منك من حاجة .

• • •

٦٨ - غزوة دومة الجندل

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فأقام بها أشهراً ،
حتى مضى ذو الحجة ، وهي سنة أربع ، ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم

دومة الجندل ، في شهر ربيع الأول ، واستعمل على المدينة سبع بن عرفطة الغفاري . ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إليها ، ولم يبق كيداً ، فأقام بالمدينة بقية سنته .

٦٩ - ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس

وكان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود ، منهم : سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحي بن أخطاب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل ، وهم الذين حاربوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة ، فدعوم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . فلما قالوا ذلك لقريش ، سرهم ونشطوا لما دعوم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا لذلك ، واتعدوا له . ثم خرج أولئك النفر من يهود ، حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان ، فدعوم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه . وأن قريشاً قد تابوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش ، وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها

هيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، في بني فزارة ، والحارث بن عوف بن
أبي حارثة المري ، في بني مرة ، ومسر بن ربيعة ، فيمن تابعه من قومه أشجع .
فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أجمعوا له من الأمر ،
ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيباً
للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ، وأبطأ عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين في عملهم ذلك ، رجال من
المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسلون إلى أهلهم بغير علم
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا
تابته نائبة ، من الحاجة التي لا بد له منها ، يذكر ذلك لرسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ويستأذنه في التعرق بحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع
إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير ، واحتساباً له .



ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ، أقبلت قريش ، حتى
نزلت بمجتمع الأسسبيل من رومة ، في عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن
تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ،
حتى نزلوا إلى جانب واحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ،
حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع ، في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هناك
عسكره ، والخندق بينه وبين القوم .

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالدراري والنساء فجعلوا
في الأطلال .

وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري ، حتى أتى كعب بن أسد

القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده . فلما سمع كعب بن يحيى بن أخطب ، أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه يحيى : ويحك يا كعب افتح لي ، قال : ويحك يا يحيى ! إنك امرؤ مشثوم ، وإني قد عاهدت محمداً ، فليست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً ، قال ويحك افتح لي أكلك ، قال : ما أنا بفاعل ، قال : والله إن أغلقت دوني إلا عن جيشك أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل ، ففتح له ، فقال : ويحك يا كعب ؛ جئتكم بمز الدهر وبيع عظام ، جئتكم بقريش على قادتها وساداتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وساداتها ، حتى أنزلتهم إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نتأصل محمداً ومن معه ، فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، ويحك يا يحيى ؛ قد عنى وما أنا عليه ، فأبى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء . فلم يزل يحيى يكعب يفتله في القروة والغارب ، حتى سمح له ، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً ، أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ ما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر وإلى المسلمين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد بن دليم ، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وخوات بن جبير ، أخو بني عمرو بن عوف ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا ، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً ، فألحقوا لي لحناً

أعرفه ، ولا تفتروا في أعضاء الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم ،
فاجروا به للناس . فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم
منهم ، فيما نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : من رسول الله ؟
لا عهد بيننا وبين محمد ولا عهد . فشاأهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلا
فيه حدة ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاأهم ، فما بيننا وبينهم أربى
من المشاأة . ثم أنبل سعد وسعد ومن معهما ، إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فسلموا عليه ؛ ثم قالوا : عضل والقارة - أي كندر عضل والقارة
بأصحاب الرجيم ، خبيب وأصحابه - قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله
أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن
أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ،
حتى قال مهتب بن قشير ، أخو بني عمرو بن عوف : كأن محمداً يعدنا أن
نأكل كنوز كسرى وقبهر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى
الفاط .

وحى قتل أوس بن قبيلى ، أحد بني حارثة بن الحارث : بارسول الله ،
إن بيوتنا عورة من العدو ، وذلك عن ملاء من رجال قومه ، فآذن لنا أن
نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج المدينة . فأقام رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وأقام عليه المشركون بعضاً وعشرين ليلة ، قريباً من شهر ، لم تكن
بينهم حرب إلا المرامة بالنبل والحصار .

فلما اشتد على الناس البلاء ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
عبيدة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف بن
أبي حارثة المري ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، على أن

يرجما بمن مهمما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كفتوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، إلا المراوضة في ذلك . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ، بعث إلى سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله ، أمراً نحببه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به ، لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أضمن ذلك إلا لأنتى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبيوم من كل جانب . فأردت أن أكرم عنكم من شوكتهم إلى أمر ما . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيما ، أنعين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

• • •

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وعدوهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس من قريش ، منهم عمرو بن عبد ود بن أبي قيس ، أخو بني عامر بن لؤي ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ، المخزوميان ، وضرار بن الخطاب الشاعر ، ابن مرداس ، أخو بني معارب بن فهر ، تلبسوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم ، حتى مروا بمنازل بني كنانة ، فقالوا : تهيبوا يا بني كنانة للعرب ، فستعلمون من الفرسان

اليوم ، ثم أقبلوا تعلق بهم خيلهم ، حتى وقفوا على الخندق ، فلما رآه قالوا :
والله إن هذه لكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم ، فافتحمت منه
فجالت بهم في السبغة بين الخندق و سلم ، وخرج علي بن أبي طالب رضي الله
عنه في نفر من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها بخيلهم .
وأقبلت الفرسان تعلق نحوم ، وكان عمرو بن عبدود قد قاتل يوم بدر
حتى أنبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً
ليرى مكانه .

فلما وقف هو وخيله ، قال : من يبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب ، فقال
له : يا عمرو ، إنك قد كنت عاهدت الله ألا بدعوك رجلاً من قريش إلى
إحدى خلتين إلا أخذتها منه ؟ قال له : أجل ، قال له علي : فإني أدعوك إلى
الله وإلى رسوله ، وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لي بذلك . قال : فإني أدعوك
إلى النزال . فقال له : يا بن أخي ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له علي :
لكني والله أحب أن أقتلك ، فعصى عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فمقره ،
وضرب وجهه ثم أقبل على علي ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه ،
وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى افتحمت من الخندق هاربة .

• • •

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيما وصف الله من الخوف
والشدة ، لتظاهر عدوم عليهم ، وإنيابهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم .
ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن هلال بن
خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال : يا رسول الله : إنى قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فرنى بما
سئمت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل
منا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى
قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية ، فقال : يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى
إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم ، قالوا : صدقت ، لست عندنا بآتهم ، قال لهم :
إن قريشاً وغطفان ليـوا كأنهم ، البلاد بلكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم
ونسائكم ، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد
جاءوا للحرب محمد وأصحابه وقد ظاهروهم عليه ، وبلادهم وأموالهم ونسائهم
بغيره ، فليسوا مكانتم ، فإن رأوا هزيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحترا
ببلادهم وخلقوا بينكم وبين الرجل ببلادكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا
تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم ، يكونون بأيديكم ثقة
لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه . فقالوا له : لقد أشرت بأمرى

• • •

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال
قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على
حقاً أن أبلغكموه ، نصحاً لكم فآكتموا عني ، فقالوا : نفضل ، قال : تعلمون أن
مشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه :
إننا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين : من قريش
وغطفان ، رجلاً من أشرفهم ، فنمطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك
على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعم . فإن بعثت إليكم
يهود يلمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً

• • •

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا مشر غطفان ، إنكم أصل وعشيرتي ،
وأحب الناس إلي ، ولا أراكم تنهونني ، قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم ،
قل : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ،
وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله
صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورواس غطفان إلى
بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا
لهم : إننا لنا بدار مقصام ، قد هلك الخلف والحافر ، فاغدوا للقتال ، حتى
تفاجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرحلوا إليهم ، إن اليوم يوم السبت وهو
يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بهضنا حدثاً ، فأصابه ما لم يخف
عليكم ، ولستنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تطونا رهناً من رجالكم ،
بكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى تفاجز محمداً ، فإننا نخشى أن خرسكم الحرب ،
واشتهد عليكم القتال أن تذهبوا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ،
ولا طاقة لنا بذلك منه . فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت
قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق . فأرسلوا إلى بني
قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال
فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة ، حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي
ذكره لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يربد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة
انتهزوها . وإن كان غير ذلك انشروا إلى بلادهم وخذوا أيديكم وبين الرجل في بلدكم ،
فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تطونا رهناً .
فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم . وبث الله عليهم الريح في ليل ثانية باردة

شديدة البرد ، فجمعت تكفاً قدورهم ، وتطرح أبنيتهم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم ، لينظر ما فعل القوم ليلاً .

قال حذيفة : فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء . فقام أبو سفيان ، فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جلسه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، قلت : من أنت ؟ قال : فلان ابن فلان .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك السكران والخلف ، وأخافتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما أرونا ، ما نطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل . ثم قام إلى جملته وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى « أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني » ثم شئت لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه ، فراجل ، فلما رأني أدخلني إلى رجله ، وطرح عليّ طرف المرط ، ثم ركع وسجد ، وإني لفيده ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وصممت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسدون ، ووضعوا السلاح .

فلما كانت الظهر ، أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممتجعاً
بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة ، عليها قطفة من ديباج ، فقال : أوقد
وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال جبريل : فما وضعت لللائكة
السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم . إن الله عز وجل يأمرك
يا محمد بالسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم فمززل بهم .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً ، فأذن في الناس ، من كان
سامعاً مطيعاً ، فلا يصاين المصر إلا بيني قريظة . واستعمل على المدينة
ابن أم مكتوم .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب براكبه إلى بني
قريظة ، وابتدرها الناس . فار على بن أبي طالب ، حتى إذا دنا من الحصون
سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع حتى لقي رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالطريق ، فقال : يا رسول الله ، لا عليك ألا تدنو من
هؤلاء الأخابث ، قال : لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ؟ قال : نعم يا رسول
الله ، قال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً . فلما دنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم من حصونهم . قال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل
بكم نعمته ؟ قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنهر من أصحابه بالصورين^(١) قبل
أن يصل إلى بني قريظة فقال : هل مر بكم أحد ؟ قالوا : يا رسول الله ، قد مر بنا
دحية بن خليفة الكلبي ، على بغلة بيضاء عليها رحالة ، عليها قطفة ديباج . فقال

(١) الصورين : موضع قرب المدينة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك جبريل ، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم
حصونهم ، ويقذف الرعب في قلوبهم .

ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة نزل على إثر من
آبارها من ناحية أموالهم ، يقال لها : برأني .

وتلاحق به الناس ، فأتى رجال منهم من بعد المشاء الآخرة ، ولم يصلوا
المصر ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدين أحد المصر
إلا ببني قريظة » ، فغلبهم ما لم يكن منه بد في حربهم ، وأبوا أن يصلوا ،
لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حتى تأتوا بني قريظة » فصلوا المصر بها
بعد المشاء الآخرة كما عابهم الله بذلك في كتابه ، ولا عنفهم به رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً وعشرين
ليلة ، حتى جهدم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب .

وقد كان حي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصونهم ، حين رجعت
عنهم قريش وغطفان ، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا
بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى
يأجزم ، قال كعب بن أسد لم : يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر
ماترون ، وإن عارض عليكم خلا لا ثلاثاً ، فخذوا أيها شتم ، قالوا : وما هي ؟
قال : تتابع هذا الرجل ونصده ، فوالله لقد تبين لكم إنه لني مرسل ، وإنه
لذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دماءكم وأموالكم وأبنائكم
ونسائكم ، قالوا : لا تشارك حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره قال :
فلذا أبيتم على هذه ، فهلم فانتقل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه
رجالاً مصلتين السهوف ، لم نترك وراءنا قتلاً ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ،

فإن نهلك نهلك ، ولم تترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجعلن
النساء والأبناء ، قالوا : قتل هؤلاء الساكنين ! فما خير العيش بعدهم ؟ قال :
فإن أبيتم عليّ هذه ؛ فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه
قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ، قالوا : لقد
صبتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت ، فأصابه
ما لم يخف عليك من المنع ؟ قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة
واحدة من الدهر حازماً .



ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ابث إلينا أبا لبابة
ابن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حلقاء الأوس ، لتتشيره
في أمرنا . فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما رأوه قام إليه
الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم . وقالوا له :
يا أبا لبابة ! أنرى أن نزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى
حلقه . إنه الذبيح . قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت
أنى قد خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ،
ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من
حمده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت ، وعاهد الله
ألا أطأ بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ، وكان قد استبطأه ، قال :
أما إنه لو جاعني لاستغفرت له . فأما إذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من
مكانه حتى يتوب الله عليه .

ثم إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من
السحر ، وهو في بيت أم سلمة . فقالت أم سلمة : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم من السحر وهو يضحك ، قلت : نعم تضحك يا رسول الله ، أضحك
الله منك ؟ قال : تيب على أبي لبابة ، قالت : قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟
قال : بلى ، إن شئت . فقامت على باب حجرتها — وذلك قبل أن يضرب
عليهن الحجاب — فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك . فنار الناس
إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي
يطلقني بيده ، فلما مر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجاً إلى صلاة
الصبح أطلقه .



وقد أقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ست ليال ، تأتبه امرأته في كل وقت
صلاة ، فتعده للصلاة ، ثم يعود فترتبط بالجذع ، ثم إن ثعلبة بن سمية ، وأسيد
ابن سمية ، وأسد بن عبيد ، وهم نفر من بني هذيل ، ليسوا من بني قريظة ولا النضير ،
هم بنو عم القوم ، أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول
الله صلى الله عليه وسلم . وخرج في تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظي ، فر
بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه محمد بن مسلمة تلك الليلة ، فلما رآه
قال : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سعدى — وكان عمرو قد أبى أن يدخل
مع بني قريظة في غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا أغدر بمحمد
أبداً — فقال محمد بن مسلمة حين عرفه : اللهم لا تحرمني إقالة عشرات
الكرام ، ثم خلى سبيله . فخرج على وجهه حتى أتى باب مسجد رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالمدينة تلك الليلة ، ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض

إلى يومه هذا ، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه ، فقال : ذاك رجل
نجاه الله بوفاته . فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فخوابت الأوس ، فقالوا : يا رسول الله ، إنهم مواليتنا دون الخزرج ، وقد ضاعت
في أموال إخواننا بالأمس ما قد عامت - وقد كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قبل بني قريظة قد حاصر قريظة ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على
حكمه ، فسأله إمام عبد الله بن أبي بن سلول ، فوجههم له - فلما كلمته الأوس ،
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم
رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذاك إلى
سعد بن معاذ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ
في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها: رفيدة ، في مسجده ، كانت تداوى الجرحى ،
وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ، وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالحنديق : اجعلوه في خيمة
رفيدة ، حتى أعوده من قريب . فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في
بني قريظة ، أتاه قومه ، فعملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من آدم ، وكان
رجلا جسيماً جميلاً ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يقولون :
يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك
ذلك اتعجب فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله اومة
لاثم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال
بني قريظة ، قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التي سمع منه ، فلما انتهى سعد إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا

إلى سيدكم - فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار، وأما الأنصار، فيقولون : قد عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمر ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم ، وعلى من هاهنا ، في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه لإجلاله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسي الدراري والنساء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقمة » ، ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدينة في دار بنت الحارث ، امرأة من بني النجار ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة ، التي هي سوقها اليوم ، فخذق بها خنادق ، ثم بهت إليهم ، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالا ، وفيهم عدو الله حمي بن أخطب ، وكعب بن أسد ، رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، والمكبر لهم يقول : كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة . ولقد قالوا لكعب بن أسد ، وهم يذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا : يا كعب ، ما تراه يصنع بنا ؟ قال : في كل موطن لائمة لون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع ، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل . فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

•••

وأتى بحمي بن أخطب عدو الله ، وعليه حلة له من الوشي قد شقها عليه

من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل - فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل . ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ومصلحة كتبها الله على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه . قالت عائشة : ولم يقتل من نساءهم إلا امرأة واحدة . قالت عائشة : والله إنها لعندي تحدث معي ، وتضعك ظهراً وبطناً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالها في السرق ، إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة ؟ قالت : أنا والله . قالت : قلت لها : وبلك مالك ؟ قالت : أقتل . قلت : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثته . قالت : فانطلق بها ، فضربت عنقها ، فكانت عائشة تقول : فوالله ما أنسى عجباً منها ، طوب نفسها وكثرة ضحكها ، وقد عرفت أنها تقتل .

وكان ثابت بن قيس بن الشماس قد أتى الزبير بن ياطا القرظي ، وكان الزبير قد من على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية ، أخذه يوم بقات فجز ناصيته ، ثم خلى سبيله ، فجاءه ثابت وهو شيخ كبير ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، هل تعرفني ؟ قال : وهل يجهل منلى مثلك ، قال : إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي ، قال : إن الكريم يجزي الكريم . ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه قد كانت للزبير على منة ، وقد أحببت أن أجزيه بها ، فهب لي دمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو لك ، فأتاه فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لي دمك ، فهو لك ، قال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ؟ قال : فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله : هب لي امرأته وولده ، قال : هم لك . قال : فأتاه ، فقال : قد وهب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم

أهلك وولدهك ، فهم لك ، قال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأبى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله : ماله ؟ قال : هو لك . فأناه ثابت فقال : قد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ، فقولك ، قال : أبى ثابت ، ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يترامى فيها عذارى الحلى ، كعب بن أسد ، قال : قتل . قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى حيسى بن أخطب ؟ قال : قتل ، قال : فما فعل مقدمتنا إذا شدونا ، وحاميتنا إذا فررنا ، عزال بن سموءل ؟ قال : قتل . قال : فما فعل المجلسان ؟ يعى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة ، قال : ذهبوا ، قتلوا قال : فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم ، فوالله ما فى العيش بمد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح^(١) حتى ألتى الأحبة ؛ فقدمه ثابت ، فضرب عنقه .

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين . ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصاري ، أخا بنى عبد الأشهل ، بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد ، فاتباع لهم بهاخيلا وسلاحا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نساءهم ريحانة بنت عمرو ، إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة ، فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى عنها وهي فى ملكه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض عليها أن يتزوجها ، ويضرب عليها الحجاب ، فقالت : يا رسول

(١) الناضح : الحبل ، أى مقدار ما تخرج به اللؤلؤ من البئر .

الله ، بل تركني في ملكك ، فهو أخف عليّ وعليك ، فتركها . وقد كانت حين سبها قد تعصت بالإسلام ، وأبت إلا اليهودية ، فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجد في نفسه لذلك من أمرها . فبينما هو مع أصحابه ، إذ سمع وقع نعلين خلفه ، فقال : إن هذا لثعلبية بن سعية يبشرني بإسلام ربحانة ، فجاءه فقال : يا رسول الله ، قد أسلمت ربحانة ، فسرره ذلك من أمرها .

ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لمن تغزواكم قريش بعد عامكم هذا ، لو كنتم تغزونهم . فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، وكان هو الذي يفزوها حتى فزع الله عليه مكة .

ولما اتقضى شأن الخندق ، وأمر بني قريظة ، وكان سلام بن أبي الحقيق ، وهو أبو رافع . فبين حزب الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الأرس قبل أحد قنات كعب بن الأشرف ، في عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحريضه عليه ، استأذنت الخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل سلام بن أبي الحقيق ، وهو بخيبر ، فأذن لهم .

٦٨ - غزوة بني لحيان

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفرًا وشهري ربيع ، وخرج في جمادى الأولى ، على رأس ستة أشهر من فتح قريظة ، إلى بني لحيان ، يطلب بأصحاب الرجيع : خبيب بن عدي وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشام ، ليصيب من القوم غرة . فخرج من المدينة صلى الله عليه وسلم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، فسلك على غراب ، جبل بناحية المدينة ، على طريقه إلى الشام ، ثم استقام به الطريق ، على الحجة من طريق

مكة، فأخذ السير سريعاً ، إلى بلد يقال له : ساية ، فوجدهم قد حذروا وتمنعوا
في رموس الجبال، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخطأه من غرتهم
ما أراد ، قال : لو أنا هبطنا مسفان ، لرأى أهل مكة أننا قد جئنا مكة . ففرج
في مشي راكب من أصحابه، حتى نزل مسفان ، ثم بعث فارسين من أصحابه،
حتى بلغا كراع النميم ، ثم كر ، وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم قاقلا،
وهو يقول حين وجه راجعاً : آيئون ثابتون إن شاء الله ، لربنا حامدون ،
أعوذ بالله من وعناء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال .

• • •

٦٩ - غزوة ذي قرد

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم يبق بها إلا ليالٍ قلائل ،
حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، في خيل من غطفان ،
على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بني غفار
وامرأة له ، فقتلوا الرجل ، واحتملوا المرأة في اللقاح .

وكان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي ، غدا يريد
الغابة متوشحاً قوسه ونبله ، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله ، معه فرس له يقوده ،
حتى إذا علا ثنية الوداع ، نظر إلى بعض خيولهم فأشرف في ناحية صلح ،
ثم صرخ : واصباحاه ! ثم خرج يشتد في آثار القوم ، وكان مثل السبع ، حتى
لحق بالقوم ، فجعل يردهم بالنبل ، ويقول إذا رمى : خذها وأنا ابن الأكوع ،
فإذا وجهت الخيل نحوه ، انطلق هارباً ، ثم عارضهم ، فإذا أمكنه الرمي رمى ،
ثم قال : خذها وأنا ابن الأكوع . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صباح
ابن الأكوع ، فصرخ بالمدينة : الفرع الفرع ! فترامت الخيول إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم . فلما اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليهم سعد بن زيد ، ثم قال : اخرج في طلب القوم ، حتى ألحقك في الناس . فخرج الفرسان في طلب القوم ، حتى تلاحتوا . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نزل بالجبل من ذي قرد ، وتلاحق به الناس ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وأقام عليه يوماً وليلة ، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه في كل مائة رجل جزوراً ، وأقاموا عليها ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً حتى قدم المدينة . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجباً .

• • •

٧٠ - غزوة بني المصطلق

ثم غزا بني المصطلق من خزاعة ، في شعبان سنة ست ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري . وكان بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن بني المصطلق يجمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار ، أبوجوهرية بنت الحارث ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خرج إليهم حتى أقيم على ماء يقال له : الرئيسيم ، من ناحية قديد إلى الساحل ، فتزاحف الناس واقتتلوا ، فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم ، ونقل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفادهم عليه . فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الماء ، وردت واردة الناس . ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له : جهجاه بن مسعود ، بقود فرسه ، فآزدهم جهجاه وسنان بن وبرة الجهني ، حليف بني عوف بن الخزرج على

الماء ، فاقبلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبي بن سلوة ، وعنده رهط من قومه ، فيهم : زيد بن أرقم ، غلام حدث ، فقال : أو قد فذلواها ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فطم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فآيةتاه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيهم ، فارتحل الناس .

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، فعرف بالله : ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به — وكان في قومه شريكاً عظيماً — فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدبأعلى ابن أبي بن سلوة ودفأ عنه .

فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعة منكورة ، ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو

ما بلغت ما قال صاحبكم ؟ قال : وأى صاحب يارسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي ، قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يارسول الله والله تخرجه منها إن شئت ، هو والله القليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

* * *

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليانهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليثقل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله ابن أبي ، ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وسلك الحجاز ، حتى نزل على ماء بالحجاز ، فوبق التقيح ، يقال له : بقاء . فلما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم هبت على الناس ريح شديدة ، آذتهم وتخوفوها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخافوها ، فإنما هبت لوت عظيم من عطاء الكفار . فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن الثابت ، أحسده بنى قوتقاع ، وكان عظيماً من عطاء يهود ، وكهناً للمنافقين ، مات في ذلك اليوم .

ثم إن عبد بن عبد الله بن أبي أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بذاك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا ، فمضى به ، فأنا أحل إليك رأسه ، فوالله لقد عدت الخرز ما كان لها من رجل أبر بوالله منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدهنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمضى في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً

مؤمنًا بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نترقب به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا . وجعل بعد ذلك إذا حدث الحدث ، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويمتقونهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلتك يوم قلت لي لأرعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله عدت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

• • •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصاب من بنى المصطلق سبيًا كثيرًا ، فداعمه المدون ، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبابا ، جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار . ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق ، ومعه جويرية بنت الحارث - وكان بذات الجيش - دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة ، وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالمعيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء ، فرغب في بيعها منها ، ففياهما في شعب من شعاب المعيق ، ثم أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد ، أصبتم ابنتي ، وهذا فداؤها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين البهران للذان غيبتما بالمعيق ، في شعب كذا وكذا ؟ فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت محمد رسول الله ، فوالله ما اطلم على ذلك إلا الله ، فأسلم الحارث ، وأسلم معه ابنته له ، وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين ، فجاء بهما ، فدفع الإبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ودفعت إليه ابنته جويرية ، فأصلحت ، وحسن إسلامها :

فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها ، فزوجه إياها ، وأصدقها
أربعمائة درهم .

• • •

٧١ - حديث الإفك

وتقول عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أفرع
بين نسائه ، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كانت غزوة بني المصطلق
أفرع بين نسائه كما كان يصنع ، فخرج سهمي عليهن معه ، فخرج بي رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وكنت إذا رحلت لي بعيري ، جلست في هودجى ، ثم
يأتى القوم الذين يرحلون لي ويحملوننى ، فيأخذون بأسفل الهودج ، فيضمونه ،
فيضمونه على ظهر البعير ، فيشدونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير ، فينطلقون
به . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك ، رجع قافلاً ، حتى
إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً ، فبات به بعض الليل ، ثم أذن في الناس
بالرحيل ، ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى ، وفى عنقى عقد لى ،
فيه جزع ظفار^(١) ، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت إلى
الرحل ، ذهبت ألتسه فى عنقى ، فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ،
فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه ، فالتسته حتى وجدته ، وجاء القوم
خلافى ، الذين كانوا يرحلون لى البعير ، وقد فرغوا من رحلتهم ، فأخذوا
الهودج ، وهم يظنون أنى فيه ، كما كنت أصنع ، فأحتملوه ، فشده على
البعير ، ولم يشكروا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير ، فانطلقوا به ، فرجعت إلى
المسكر وما فيه من داع ولا مجيب . قد انطلق الناس .

• • •

(١) ظفار : مدينة باليمن .

فتلفت بجلبابي ، ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى ، فوالله إنني اضطجعت إذ مر بي صفوان بن المطل السلمي ، وقد كان تخاف عن المسكر لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى ، فأقبل حتى وقف على - وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رأني قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فطمينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا متلطفة في ثيابي ، قال : ما خانك برحمتك الله ؟ قالت : فما كلمته ، ثم قرب البعير ، فقال : اركبني ، واستأخر عني . قالت : فركبت ، وأخذ برأس البعير ، فانطلق مريباً ، يطالب للناس ؛ فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت . ونزل الناس ، فلما اطمانوا طلع الرجل بقود بي البعير ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، فاضطرب المسكر ، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك .

ثم قدمنا المدينة ، فلم البث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغني من ذلك شيء ، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أبوي ، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً ، إلا أنني قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه بي ، كنت إذا اشتكيت رحمتي ، ولطف بي ، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك ، فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل حلي وعندي أمي تمرضني ، قال : كيف تبيكم ، لا يزيد حلي ذلك ، حتى وجدت في نفسي ، فقلت : يا رسول الله ، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي : لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي ، فرضتني ؟ قال : لا عليك . فانتقلت إلى أمي ، ولا علم لي بشيء مما كان ، حتى نهدت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة . وكنا قوماً عرباً ، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم ، نفاقها ونكرها ، إنما كنا نذهب في فسخ المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن

كل ليلة في حوائجهم ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ، ومعى أم مسطح بنت
أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق رضي الله
عنه ، فوالله إنها لتشي معي إذ عثرت في مرطها ، فقالت : تص مسطح ، قلت :
بئس لعمر الله ما قات لرجل من المهاجرين قد شهد بدرأ ، قالت : أو ما بلغتك
الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل
الإفك ، قات : قات : أو قد كان هذا ؟ قالت : نعم والله لقد كان . قالت :
فوالله ما قدرت على أن أنفي حاجتي ، ورجعت . فوالله ما زلت أبكي حتى
ظننت أن البكاء سيصاح كبدي ، وقالت لأبي : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما
نحدثوا به ، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً . قالت : أي بنية ، خفتي عليك
الشأن ، فوالله لقد كانت امرأة حسناء ، عند رجل يحبها . لهاضرائر ، إلا كثرن
وكثر الناس عليهما . قالت : وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس
يخطبهم ولا أعلم بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، ما بال
رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا
خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من
بيوتى إلا وهو معي . وكان كبير ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول ، في
رجال من الخزرج ، مع الذي قال مسطح وحننة بنت جعش ، وذلك أن أختها
زينب بنت جعش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من
نساء امرأة تناصبن^(١) في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله تعالى
بدينها ، فلم تقل إلا خيراً ، وأما حننة بنت جعش ، فأشاعت من ذلك ما أشاعت
تضادني لأختها ، فثقت بذلك .

• • •

(١) تناصبن : تناوض .

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة ، قال أسيد بن حضير :
يا رسول الله ، إن يكونوا من الأوس نكذبتهم ، وإن يكونوا من إخواننا
من الخزرج ، فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم ، قالت : فقام
سعد بن عباد - وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال : كذبت لعمر الله ،
لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من
الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أسيد : كذبت لعمر الله ،
ولكنك مدافق ، تجادل عن المنافقين ، وتجاوز الناس ، حتى كاد يكون بين
هذين الحيين من الأوس والخزرج شر . وزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل
على . فدعا على بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وأسامة بن زيد ، فاستشارهما ،
فأما أسامة فأتى على خيراً وقاله ، ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ولا نعلم منهم
إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل .

وأما على فإنه قال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على
أن تستعانف ، وسل الجارية ، فإنما صدقتك . فدعا رسول الله صلى الله عليه
وسلم بريرة لبسها ، قالت : فقام إليها على بن أبي طالب ، فضربها ضرباً شديداً ،
ويقول : صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فتقول : والله ما أعلم
إلا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً ، إلا أنى كنت أعجب عجبى ،
فأمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأني الشاة فتأكله .

ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندى أبواى ، وعندى امرأة من
الأنصار ، وأنا أبكى ، وهى تبكى معى ، فجاس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : يا عائشة ،
إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فأتى الله ، وإن كنت قد عرفت سورة

عما يقول الناس ، فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك ، فقلص دمي ، حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبوإي أن يجيبا عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتكلم .
قالت : وايم الله ، لأنا كنت أحترق نفسى ، وأصفر شأننا من أن ينزل الله فى قرآننا يقرأ به فى المساجد ، ويصلى به ، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يكذب به الله عنى ، لما يعلم من برأتى ، أو يخبر خيراً ، فأما قرآن ينزل فى ، فوالله لنفسى كانت أحتر عندى من ذلك . قالت : فلما لم أرا أبوإي يحكمان ، قلت لهما : ألا يجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا : والله ما ندرى بماذا نجيبه !

قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام ، فلما أن استعجما على ، استعبرت فىكيت ، ثم قلت : والله لا أنوب إلى الله عما ذكرت أبداً ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أنى منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى ، ثم التمت اسم بهتوب فما أذكره ، فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) .

• • •

فوالله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلعه حتى تنشاه من الله ما تنشاه ، فسجى بشوبه ، ووضعته له وسادة من آدم تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فرغت ولا باليت ، قد عرفت أنى بريئة ، وأن الله عز وجل غير ظالمى ، وأما أبوإي ، فوالله نفس عائشة بيده . ما سرى عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ظننت لتخرجن أنفسهما ، فرقا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس .

ثم مرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس ، وإياه ليتعذر منه مثل الجمان في يوم شاتٍ ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ، ويقول : أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله برأتك ؛ قالت : قلت : بحمد الله . ثم خرج إلى الناس ، فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ، ثم أمر مسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ، وحننة بنت جحش ، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ، فضربوا حدهم .

فلما نزل هذا في عائشة ، وفيمن قال لها ما قال ، قال أبو بكر ، وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته : والله لا أتفق على مسطح شيئا أبداً ، ولا أنفعه بشفع أبداً ، بعد الذي قال لعائشة ، وأدخل علينا ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَالسَّائِكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَهْنُؤُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)

فقال أبو بكر : بلى والله : إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح فنقته التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

وكانت عائشة تقول : لقد سئل عن أبي المطلب فوجدوه رجلاً حصوراً ، ما يأتي النساء ، ثم قتل بعد ذلك شهيداً .

• • •

٧٢ - حديث الخديبية

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة شهر رمضان وشوالاً ،
وخرج في ذى القعدة معتمراً ، لا يريد حرباً .

واستعمل على المدينة نبيعة بن عبد الله الليثي ، واستنفر العرب ومن حوله
من أهل البوادي من الأعراب ، ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش الذي
صنعوا ، أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من
الأعراب ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين
والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ، ليأمن
الناس من حربه ، ولم يعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، معظماً له .

وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وكان الناس أربعمئة رجل ، فكانت كل
بدنة من عشرة نفر ، حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسفان^(١)
لقيه بشر بن سفيان السكبي ، فقال : يا رسول الله ، هذه قريش ، قد سمعت
بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل^(٢) ، قد لبسوا جلود الثور ، وقد
زلوا بذي طوى^(٣) ، يماهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن
الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغنيم^(٤) . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : يا أوبح قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين
سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم
دخلوا في الإسلام وافرقت ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ،

(١) سفان: بين الجحفة ومكة .

(٢) العوذ المطافيل : الذئب والاصبيان .

(٣) ذو طوى : موضع قرب مكة .

(٤) كراع الغنيم : موضع بين مكة والمدينة .

فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعث الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه
السالفة^(١)؛ ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم
بها ؟

قال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعمراً بين
شعاب ، فلما خرجوا معه - وقد شن ذلك على المسلمين - قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : قولوا نستغفر الله ونتوب إليه . فقالوا ذلك . فقال :
والله إنها لحطة^(٢) التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .

• • •

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، فقال : اسلكوا ذات
اليمين ، فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش غبار الجيش ، قد
خالفوا طريقهم ، رجسوا راكضين إلى قريش ، وخرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، حتى إذا سلك في ثنية المزار بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت^(٣)
الناقة ، قال : ما خلأت ، وما هو لها مخاق ، ولكن حبسها حابس الفيل
عن مكة ، لا تدعوني قريش لليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم ، إلا
أعطيتمهم إياها . ثم قال للناس : انزلوا ، قيل له : يا رسول الله ، ما بالوادي
ماء نزل عليه ، فأخرج سهواً من كنانته ، فأعطاء رجلاً من أصحابه ، فنزل
به في قلب من تلك القلب ، ففرزه في جوفه ، فبعاش بالرواء حتى ضرب الناس
عنه بمطن .

فلما اطمان رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بديل بن ورقاء الخزاعي ،
في رجال من خزاعة ، فكلموه وسألوه : ما الذى جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم

(١) السالفة : صفحة الضيق . (٢) يريد قوله تعالى لى إسرائيل : « وتولوا حطة » .

(٣) خلأت : بركت .

يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمة . ثم قال لهم نحواً مما قال
لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ، إنكم تمجلون علي
محمد ، إن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، فاتهموهم وجبهوهم ،
وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا بدخلها علونا عنوة أبداً ، ولا
تحدث بذلك عنا للعرب .

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم
مقبلاً قال : هذا رجل غادر . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وكلمه ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً مما قال لبديل وأصحابه ،
فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، فلما
رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألمسون ، فابعثوا
الهدى في وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي
في قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحليس عن مهله ، رجع إلى قريش ،
ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إعظماً لما رأى ، فقال لهم
ذلك . فقالوا له : اجلس : فإنما أنت أمراني لا علم لك .

* * *

ثم إن الحليس غضب عند ذلك ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما على
هذا حالناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيبعد عن بيت الله من جاء معظماً
له ؟ والهدى نفس الحليس بيده ، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن
بالأحابيش نقرة رجل واحد . فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس ، حتى نأخذ
لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عروة بن مسعود الثقفي ،
قال : يا معشر قريش ، إنى قد رأيت ما ياتى منكم من بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم ،
من التمنيى وسوء اللفظ ، وقد سمعت بالذى نابىكم ، فجئت من أطاعنى من
قوى ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ،
نخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بين يديه ، ثم قال : يا محمد ،
أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لنفضها بهم ، إنى قريش قد
خرجت معها العمود المطافيل ، قد لبسوا جلود النور ، يعاهدون الله لا تدخلها
عليهم عنوة أبداً ، وإيم الله ، لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً . وأبو بكر
الصديق خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد ، فقال : أمن نكشف عنه ؟
قال : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبى قحافة ، قال : أما والله لو لا بد
كانت لك عندى لكافأتك بها ، ولكن هذه بها ، ثم جعل يتناول لحية رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديد ، فبعضل يقرع يده إذا تناول لحية
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، قبل ألا تصل إليك ، فيقول عروة : ويحك ! ما أظلمك
وأغلفك ! قال : فبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عروة : من هذا
يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ، قال : أى غدر ! وهل غللت
سوءتك إلا بالأمس ؟

أراد عروة بقوله هذا أن للمغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر
رجلا من بنى مالك ، من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط
المقتولين ، والأحلاف رهط للمغيرة ، فودى عروة للمقتولين ثلاث عشر دية

وأصلح ذلك الأمر .

فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

• • •

وقد رأى عروة ما يصنع به أصحابه فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلّمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعا خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له ، يقال له : الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فمقروا به جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا قتله ، فنمته الأحابيش ، فخلوا سبيله ، حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم ، أو خمسين رجلاً ، وأمروهم أن يطيقوا بمسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليعيبوا لهم من أصحابه أحداً ، فأخذوا أخذاً ، فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفا عنهم ، وخلي سبيلهم ، وقد كانوا رموا في مسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والتبيل .

ثم دعا عمر بن الخطاب ، ليعثه إلى مكة ، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول الله ، إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدى ابن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلفتي عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم

أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ، ومعظماً لحرمته . فخرج عثمان إلى مكة ، فلقه أبان بن سعيد بن العاص ، حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره ، حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف ، قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم . واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون أن عثمان ابن عفان قد قتل .

• • •

٧٣ - بيعة الرضوان

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ، حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى فئاجز القوم . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : يايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر .

فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها ، إلا الجعد بن قيس ، أخو بني سلمة ، فكان جابر ابن عبد الله يقول : والله لكانى أنظر إليه لاصفاً يابط ناقته ، يستتر بها من الناس .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذي ذكر من أمر
ثمان باطل .

٧٤ - الهدنة

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، أخا بنى عامر بن لؤى ، إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له : إيت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن
يرجع عنا عامه هذا : فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً .
فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً ، قال :
قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى سهيل بن عمرو
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تكلم ، فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم
جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب ،
فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا
بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام
نعطى الدنيا في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه (١) ، فإني أشهد أنه رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى ،
قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى .
قال : فعلام نعطى الدنيا في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ،
ولن يضيئني أ

فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق ، من

(١) الزم غرزه : الزم أمره .

الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : لا أعرف هذا . ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها . ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولمكن اكتب : اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عمرو ، اصطفا على وضع الحرب من الناس عشر مئةين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أنى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

فتواتبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواتبت بنو بكر ، فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وإنك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وإنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك ، فأقت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

قد بعثته قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشد العقد ، ويزيد في المدة ،
وقد رهبوا الذي صنعوا . فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء ، قال : من أين
أقبلت يا بديل ؟ وغلن أنه قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : تسيرت
في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادي ، قال : أو ماجئت محمداً ؟
قال : لا . فلما راح بديل إلى مكة ، قال أبو سفيان : لئن جاء بديل المدينة
لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحته ، فأخذ من بعرها فغفته ، فرأى فيه النوى ،
فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ،
فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان . فلما ذهب ليجلس على فراش رسول
الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا
الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله
عليه وسلم . قال : والله لقد أصابك يا بنية بدمي شر ، ثم خرج حتى أتى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه
أن يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن
الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فوالله لو لم أجد إلا القدر لجاهدتك به .

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وعنده فاطمة بنت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي عنها ، وعندها الحسن بن علي ، غلام يدب بين
يديها ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإني قد جئت في حاجة ،
فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان !
والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ، ما نستطيع أن نكلمه فيه .
فالتفت إلى فاطمة فقال : يا بنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجبر بين

ومحمود بن مسلمة ، ومكرز بن حفص ، وهو بومئذ مشرك ، وعلى بن أبي طالب ،
وكتب ، وكان هو كاتب الصحيفة .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلح قدم إلى حديه فنحره ، ثم جاس فحلق
رأسه . فلما رأى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلق ، تواثبوا
بنعرون وبخاتون .

• • •

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلا ، حتى إذا
كان بين مكة والمدينة ، نزلت سورة الفتح . فما فتح في الإسلام فتح قبله كان
أعظم منه ، وإنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت
الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ،
فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل
من كان في الإسلام قبل ذلك ، أو أكثر .

• • •

٧٤ - فزوة خيبر

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، حين رجع من الحديبية ،
ذا الحجة وبمض الحرم ، ثم خرج في بقية الحرم إلى خيبر .

واستعمل على المدينة عميلة بن عبد الله الليثي ، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب
رضي الله عنه ، وكانت بيضاء .

ويقول أنس بن مالك : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا
قوماً لم يفر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار .
فنزّلنا خيبر ليلاً ، فهات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أصبح لم يسمع
أذاناً ، فركب وركبنا معه ، فركبت خلف أبي طلحة ، وإن قدمي لتمس قدم

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقبلنا همال خير غادين ، قد خرجوا بمساحيقهم
ومكانتهم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش ، قالوا : محمد
والحميس معه ! فأدبروا هراباً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ،
خربت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين !

وتدنى^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال يأخذها مالا مالا ، ويفتحمها
حصناً حصناً ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سبايا ، منهم : صفية
بنت حيي بن أخطب وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وبنتي عم لها ،
فاصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه .

وكان دحية بن خليفة الكلبي قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية ،
فلما اصطفها لنفسه ، أعطاه ابنتي معها ، وفشت السبايا من خير في المسلمين .



وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بني النضير ،
فسأله عنه ، فوجد أن يكون برف مكانه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
رجل من يهود ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني رأيت كنانة يطيف بهذه
الخرابة كل غداة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة : رأيت إن وجدناه
عندك : أأنتك ؟ قال : نعم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخرابة
فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقي ، فأبى أن يؤديه ،
فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام ، فقال : عذبه حتى
تستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ،
ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه بأخيه
عمود بن مسلمة .

(١) تدنى : أخذ الأذن فالأذن .

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعدت له زينب بنت الحارث ،
امرأة سلام بن مشكم ، شاة مصلية^(١) ، وقد سألت : أى عضو من الشاة أحب
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها : القراع ، فأكثرت فيها السم ،
ثم سمحت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، تناول القراع ، فلاك منها مضخة ، فلم يسفها ، ومعه بشر بن البراء
ابن معرور ، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر
فأساغها ، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ، ثم قال : إن هذا العظم
ليخبرنى أنه مسوم ، ثم دعا بها ، فاعترفت ، فقال : ما حالك على ذلك ؟ قالت :
بانت من قوى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن
كان نبياً فسينخبر ، فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات بشر
من أكلته التى أكل .



فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ، قذف الله الرعب فى
قلوب أهل فذك ، حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر ، فبعثوا إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ويصالحونه على النصف من فذك ، فقدمت عليه رسالهم
بخيبر ، أو بالطائف ، أو بعد ما قدم المدينة ، فقبل ذلك منهم ، فكانت فذك
لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح خيبر جعفر بن أبى طالب
رضى الله عنه ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه والتزمه وقال :
ما أدرى بأبيهما أنا أسر : بفتح خيبر أم بقدم جعفر ؟



٧٦ - عمرة القضاء

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من خيبر، أقام بها شهرى ربيع وجاديين ورجباً وشعبان ورمضان، وشوالاً، يبيت فيما بين ذلك من خزوه وسراياه صلى الله عليه وسلم، ثم خرج في ذي القعدة في الشهر الذى صده فيه المشركون معتبراً عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها. واستعمل على المدينة عوف بن الأضبط الديلى، ويقال لها: عمرة القصاص، لأنهم صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست، فاقتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم. فدخل مكة في ذي القعدة وفي الشهر الحرام الذى صدوه فيه، من سنة سبع.

وخرج معه المسلمون ممن كان صد معه في عمرته تلك، وهى سنة سبع، فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه، وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة، وصفوا له عند دار الندوة، لينظروا إليه، وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد اضطجع بردائه، وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: رحم الله امرأ أرام اليوم من نفسه قوة، ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا وراه البيت منهم واستلم الركن اليمانى، مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرهما فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما صنعها لهذا الحى من قريش لئلا يلمه عنهم، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها، فقضت السنة بها.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام، وكان الذى زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، وكانت

جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل ، وكانت أم الفضل تحت العباس ، فجعلت
أم الفضل أمرها إلى العباس ، فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ،
وأصدقها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمئة درهم .

•••

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثاً ، فأتاه حويطب بن عبد العزى
في نفر من قريش ، في اليوم الثالث ، وكانت قريش قد وكلته بإخراج رسول
الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فقالوا له : إنه قد انقضى أجلك ، فأخرج عنا .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما عليكم لو تركتموني فأمرست بين أظهركم ،
وهنمنا لكم طعاماً فعضرتموه ؟ قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فأخرج عنا .
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة ،
حتى أتاه بها بسرف ، فبقي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك ، ثم انصرف
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في ذى الحجة ، فأقام بها بقية
ذى الحجة ، والحرم وصفر وشهري ربيع .

•••

٧٧ - غزوة مؤتة

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة ، في جادى الأولى
سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي
طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس .
فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ،
ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلموا عليهم ، فلما ودع
عبد الله بن رواحة من ودع ، من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكى ،

قالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباية
بكم ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله
مز وجل ، يذكر فيها النار ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ،
فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صعبكم الله ودفع
عنكم ، وردكم إلينا صالحين . ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله صلى الله عليه
وسلم يودعهم ، ثم مضوا حتى تزلوا معان ، من أرض الشام ، فبلغ الناس أن
هرقل قد نزل مآب ، من أرض البلقاء ، في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم
من نطم وجدام والذين وجهاء ويلي ، مائة ألف منهم ، فلما بلغ ذلك المسلمون
أقاموا على معان ليلتين ، يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فنخبره بمدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن
يأمرنا بأمره ، فنمضي له . فشجع الناس عبد الله بن رواحة ، وقال : يا قوم ،
والله إن التقي تكروهون ، لالتقى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما تقاتل الناس بمدد ولا
قوة ولا كثرة ، ما تقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا
فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور ، وإما شهادة . فقال الناس : قد والله
صدق ابن رواحة .

فمضى الناس ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم جموع هرقل ، من
الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء ، يقال لها : مشارف ، ثم دنا للمدو ،
وانحاز للمسلمون إلى قرية يقال لها : مؤتة ، فالتقى الناس عندها ، فتعبأ لهم المسلمون ،
فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذرة ، يقال له : قطبة بن قتادة ، وعلى
ميسرتهم رجلا من الأنصار ، يقال له : عباية بن مالك ، ثم التقى الناس واقتلوا ،
فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شاط^(١) في رماح القوم .

(١) شاط : سال دمه فهلك .

ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها ، حتى إذا أبلجه القتال ، اقتحم عن فرس له شقراء فمقرها ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام ، أخذ الأواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بمضديه حتى قتل رضي الله عنه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء .

فلما قتل جعفر ، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد ، ثم نزل . فلما نزل أتاه ابن عم له يعرق من لحم ، فقال : شد بهذا صابك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، ثم اتهمش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة^(١) في ناحية للناس ، فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدم ، فقاتل حتى قتل .

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم ، أخو بني العجلان ، فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلع الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز وانمىز عنه ، حتى انصرف بالناس .

ولما أصيب القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما بكرهون ، ثم قال : ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم قال : لقد رفعوا إلى في الجنة ، فيما يرى النائم ، على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير

(١) الحطمة : زحام الناس .

عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه ، قلت : عم هذا ؟ فقول لي :
مضياً ، وتردد عبد الله بعض التردد ، ثم مضى .

* * *

ولما دنوا من حول المدينة ، تقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ،
وانبيهم الصبيان يشقون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل مع القوم على
دابة ، فقال : خذوا الصبيان فاحلوم ، وأعطوني ابن جعفر ، فأتى بعبد الله ،
فأخذه فحمله بين يديه ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون :
يا فرار ، فررتم في صبي الله ! فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليسوا
بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

° ° °

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بثه إلى مؤنة جمادى الآخرة
ورجبا .

* * *

٧٨ - فتح مكة :

ثم إن بنى بكر بن عبدمناة بن كنانة عدت على خزاعة ، وهم على ماء
لهم بأسفل مكة ، وكان الذي هاج ما بين بنى بكر وخزاعة ، أن رجلا من بنى
الحضرمي ، خرج تاجراً ، فلما توسط أرض خزاعة ، عدوا عليه فقتلوه ، وأخذوا
ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه ، فبينما بنو بكر وخزاعة
على ذلك حجز بينهم الإسلام ، وتشاغل الناس به ، فلما كان صلح الحديبية بين
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، كان فيما شرطوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وشرط لهم ، أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله
عليه وسلم وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم
فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد

رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده . فلما كانت الهدنة اغتتمها بنو الدبيل ،
من بني بكر من خزاعة ، وأرادوا أن يصيبوا منها ثأراً ، ورفدت بنو بكر
قريش بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً ، حتى حازوا
خزاعة إلى الحرم .

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ،
وتفوضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق ،
بما استحلوا من خزاعة - وكانوا في عهده وعهده - خرج عمرو بن سالم
الغزاعي ، أحد بني كعب ، حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة -
وكان ذلك مما حاج فتح مكة - فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني
الناس ، فقال :

يا رب إني ناشد محمدا حاف أبينا وأبيه الأتلا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نصرت يا عمرو بن سالم . ثم عرض
لرسول الله صلى الله عليه وسلم عنان من السماء ، فقال : إن هذه السحابة لتستعمل
ببصر بنو كعب .

• • •

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبظاهرة قريش بنو
بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم للناس : كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد في المدة .

ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه حتى أتوا أبا سفيان بن حرب بمحفلان ،

قد بعثته فريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشد المقد ، ويزيد في المدة ، وقد رهبوا الذي صنعوا . فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء ، قال : من أين أتيت يا بديل ؟ وعزن أنه قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : تسيرت في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادي ، قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا . فلما راح بديل إلى مكة ، قال أبو سفيان : لئن جاء بديل المدينة لقد علف بها النوى ، فأنى مبارك راحته ، فأخذ من بصر حافظته ، فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان . فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : والله لقد أصابك يا بنية بعمى شر ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الدر لجاهدتكم به .

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي عنها ، وعندها الحسن بن علي ، فلام يذب بين يديها ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإنى قد جئت في حاجة ، فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ، ما استطع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا بنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجبر بين

الناس . فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ بني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا أبا الحسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى . قال : والله ما أعلم لك شيئاً يفنى عنك شيئاً ، ولسكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، قل : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ، إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق . فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما رد عليّ شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عليّاً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشيء صنمته ، فوالله ما أدري هل يفنى ذلك شيئاً أم لا ؟ قالوا : ويلاك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، فما يفنى عنك ما قالت ، قال : لا والله ، ما وجدت غير ذلك .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها ، وهي تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أي بنية : أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فتجهز ، قال : فأين تريه يريده ؟ قالت : لا والله ما أدري . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأصرم بالجد والتهيؤ ، وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها . فتجهز الناس .

ولما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى مكة ، كتب حاطب
ابن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من
الأمر ، في السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جملاً على أن تبلفه قريشاً ،
فجعلته في رأسها ، ثم قتلت قرونها ، ثم خرجت به . وأتى رسول الله صلى الله
عليه وسلم انظر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبي طالب والزبير
ابن العوام ، رضي الله عنهما ، فقال : أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن
أبي بلتعة بكتاب إلى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا في أمرهم . فخرجا حتى
أدركاها بالظلمة^(١) فاستنزلاها ، فالتصا في رحلها ، فلم يجدوا شيئاً ، فقال لها على
ابن أبي طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا
كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أولئك شفتك . فلما رأت الجلد منه ،
قالت : أعرض ، فأعرض ، ففعلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته
إليه ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه
وسلم حاطباً ، فقال : يا حاطب ، ما حالك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، أما
واقف إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدت ، ولكنني كنت امرأة
ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ،
فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعني فلا ضرب عنقه ،
فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما بدرينك يا امرئ ،
لعل الله قد أطلع إلى أصعاب بدر يوم بدر ؟ فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد
غفرت لكم .

• • •

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره ، واستخلف على المدينة
أباهم ، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خالف الغفاري ، وخرج لعشر مضيت
من رمضان ، فصام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصام الناس معه ، حتى
إذا كان بالكديد ، بين عتقان وأمج ، أطار . ثم مضى حتى نزل مر الظهران
في عشرة آلاف من المسلمين ، وأوعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
للمهاجرين والأنصار ، فلم يتخلف عنه منهم أحد .

فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الظهران ، وقد سميت الأخبار
عن قريش فلم يأنهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدرون
ما هو فاعل . وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ،
وبديل بن ورقاء ، يتعسسون الأخبار ، وينظرون هل يجسدون خبراً ، أو
يسمعون به . وقد كان العباس بن عبد المطلب تقي رسول الله صلى الله عليه
وسلم ببعض الطريق ، وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ،
وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، قد اتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً
بنيق المقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، فالتما الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة
فيهما ، فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك . قال : لا حاجة
لي بهما ، أما ابن عمي فميتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهرى فهو الذي
قال لي بمكة ما قال . فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بنى له ،
فقال : والله ليأذن لي أو لأخذن بيدي بنى هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى
نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لهما ،
ثم أذن لهما ، فدخلا عليه فأملما .

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذي طوى ، وقف على راحلته معتبراً بشقة برد حبرة حمراء . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عشوته ليسكاد بحس واسطة الرجل .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرق جيشه من ذي طوى ، أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدى ، وكان الزبير على الجنبية اليسرى ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فدخل من الليط ، أسفل مكة ، في بعض الناس ، وكان خالد على الجنبية اليمنى ، وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب . وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ، ينصب لمكة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذاخر ، حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له هناك قبته .

ثم إن صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، كانوا قد جمعوا ناساً بالخدمية ليقاتلوا ، وقد كان حسان بن قيس بن خالد ، أخو بني بكر ، يمد سلاحاً قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصلح منه ، فقالت له امرأته : لماذا تمد ما أرى ؟ قال : لحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم شهد الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة . فلما نفيهم المسلمون من أصحاب خالد بن

الوليد ، فاشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كرز بن جابر ، أحد بني محارب بن
فهر ، وخنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم ، حليف بني منقذ ، وكانا في
خيل خالد بن الوليد ، فشذا عنه ، فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً .

وأصيب من جهينة سلمة بن الليلاء ، من خيل خالد بن الوليد ، وأصيب
من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً ، أو ثلاثة عشر رجلاً ، ثم
انهزموا فخرج حماس منهزماً ، حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقى على بابي ،
قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم التندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
لم نبيت^(١) خلفنا وهمهم لم تنطى في اللوم أدنى كلمة

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة وأطمأن الناس ، خرج
حتى جاء البيت ، فطاف به سبعمائة راحلة ، يستلم الركن بمحجن في يده .
فلما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ،
فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف
على باب الكعبة وقد استدار له الناس في المسجد ، ثم جلس رسول الله صلى الله
عليه وسلم في المسجد ، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ،
فقال يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال : هاك مفناحك
يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

• • •

(١) التبيت : سوت الصدر .

٧٩ - غزوة حنين

ولما سمعت هوازن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصرى . ولما سمع بهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمى ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق بن أبي حدرد ، فدخل فيهم فأقام فيهم ، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الخبر . فدعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عمر بن الخطاب ، فأخبره الخبر . فقال عمر : كذب ابن أبي حدرد . فقال ابن أبي حدرد : إن كذبتى فربما كذبت بالحق يا عمر ، فقد كذبت من هو خير منى . فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كنت ضالاً فهداك الله يا عمر .

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى هوازن ليلقاهم ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً ، فأرسل إليه - وهو يومئذ مشرك - فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا ، نلق فيه عدونا غداً ، فقال : صفوان : أغضباً يا محمد ؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى تؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أن يكفيهم حلها ، ففعل .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، فكانوا اثني عشر ألفاً . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد بن أبي المصعب

ابن أمية بن عبد شمس على مكة ، أميراً على من تخلف عنه من الناس ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه يريد لقاء هوازن .

• • •

ويقول جابر : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط ، إنما تنحدر فيه انحداراً ، في هاية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكنموا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجهوا وتمهثوا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منعطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، واستمر الناس راجعين ، لا يلوي أحد على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال : أين أيها الناس ؟ علموا لي ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . فانطلق الناس ، إلا أنه قد بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، فلما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفأة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن .

ويقول العباس بن عبد المطلب : إني لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بحمكة بقلته البيضاء ، وكنت امرأ جسيماً شديد الصوت ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، حين رأى ما رأى من الناس : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال : يا عباس ، امرنخ ، يا معشر الأنصار ، يلمعشر أصحاب السرة ! فأجابوا : لبيك ! لبيك ! قال : فيذهب الرجل ليثني بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم من بعيره ، ويحلى سبيله ، فيؤم للصوت ، حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة ، استقبلوا الناس

فأنتهوا . وكانت الدعوى أول ما كانت : يا الأتصار اثم خلصت أخيراً :
بالخروج ! وكانوا صبراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في
ركابته ، فنظر إلى مجتهد القوم وهم يجتهدون ، فقال : الآن حمى الوطيس ، والتفت
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ،
وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان حسن الإسلام
حين أسلم ، وهو آخذ بسير بقاته ، فقال : من هذا ؟ قال : أنا ابن أمك ،
يا رسول الله .

ولما انهزم المشركون ، أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر
بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا
بنو غيرة من قيف ، وتبعته خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك في
نخلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الثنايا .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثار من توجه قبل أوطاس
أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فساوشوه القتال ،
فرمى أبو عامر بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ، وهو ابن عمه ،
فقاتلهم ، ففتح الله على يديه وهزمهم .

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر يوماً بامرأة ، وقد قتلها خالد
ابن الوليد والناس مزدحمون عايمها ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا ؟ امرأة قتلتها خالد
ابن الوليد : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه : أدرك خالداً
قتل له : إن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عبيداً (١) .

(١) العفيف : الأجير .

٨٠ - هزوة الطائف

ولما قدم قل تقيف الطائف ، أغلقوا عليهم أبواب مدينتها ، وصنعوا الصنائع للقتال . ثم صار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حين فرغ من حنين ، فسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم على نخلة الجيانية ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب به مسكبه ، فقتل به ناس من أصحابه بالنبل ، وذلك أن المسكر اقترب من حائط الطائف ، فكانت النبل تنالهم ، ولم يقدر للسهون على أن يدخلوا حائطهم ، أغلقوه دونهم ، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل ، وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم ، فحاصرهم بضماً وعشرين ليلة ، ومعهم امرأتان من نسائه ، إحداهما أم سلمة بنت أبي أمية ، فضرب لهما قبتين ، ثم صلى بين القبتين ، ثم أقام . فلما أسلمت تقيف بنى على مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية مسجداً ، وكانت في ذلك للسجدة سارية ، فجا بزعمون فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، وتراموا بالنبل .

ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنجنيق ، حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابه ، ثم زحفوا بها إلى جدران الطائف ليحرقوه ، فأرسلت عليهم تقيف سلك الحديد عمدة بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمتهم تقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعصاب تقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون .

ثم إن خويلد بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوتص السلمية ، وهي امرأة عثمان ، قالت : يا رسول الله ، أعطني إن فتح الله عليك الطائف صلى

بادية بنت غيلان بن مظعون بن سلمة، أو حلى الفارعة بنت عقيل ، وكانت
من أحلى نساء تقيف ، فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها :
وإن كان لم يؤذن لي في تقيف يا خويلة ؟ فخرجت خويلة ، فذكرت ذلك
لعمر بن الخطاب ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله :
ما حديث حدثتني خويلة ، زعمت أنك قلته ؟ قال : قد قلته ، قال : أو ما أذن لك
فيهم يا رسول الله ؟ قال : لا . قال : أفلا أؤذن بالرحيل ؟ قال : بلى . قال :
فأذن هم بالرحيل .

وتزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامته من كان محامراً
بالطائف عبيد ، فأسلموا ، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : لا ، أولئك عتقاء الله .

• • •

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف عن الطائف فيمن
معه من الناس ، ومعه من هوازن سبي كثير . وقد قال له رجل من أصحابه
يومئذ من تقيف : يا رسول الله ، ادع عليهم ، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : اللهم اهد تقيفاً وائت بهم .

ثم إن وفد هوازن أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسلموا ، فقالوا :
يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من الليل ما لم يخف عليك ،
فامن علينا ، من الله عليك . وقام رجل من هوازن فقال : يا رسول الله ،
إنما في الحظائر هانك وخالانك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ، ولو أناملعننا (١)

(١) ملعننا ، أرضنا .

لعنارث بن أبي شمر ، أو لنعمان بن النذر ، ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت به ،
رجونا عطفه وعائده علينا ، وأنت خير المكفولين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم
أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أموالنا وأحبابنا ، بل ترد إلينا
نساءنا وأبنائنا ، فهو أحب إلينا . قال لهم : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب
فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، قصوموا قسولوا : إنا نستشفع
برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيك
عند ذلك ، وأسأل لكم . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس
الظهر ، قاموا ، فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
وأما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون : وما كان لنا
فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من رد سبايا حنين إلى أهلها ،
ركب ، واتبه الناس بقولون : يا رسول الله ، أقسم علينا فيتنا من الإبل
والغنم ، حتى ألبثوه إلى شجرة ، فاختطفت منه رداه ، فقال : أدوا على ردائي ،
أيها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً اتسمته عليكم ،
ثم ما أنفتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ، ثم قام إلى جنب بهر ، فأخذ وبرة
من صنانه ، فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله
مالي من فيتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرفاً
من أشرف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم .
ولما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا ،
في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى
من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقد لقي والله
رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه . فدخل عليه سعد بن عباد ، فقال :
يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ،
لما صنعت في هذا الذى أتى أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا
عظماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحى من الأنصار منها شيء . قال : فأين
أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : فاجمع
لى قومك في هذه الحظيرة . فخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء
رجال من المهاجرين فتركهم ، فدخلوا وجاء آخرون فردم . فلما اجتمعوا له
أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار ،
ما قاله بلغتني عنكم ، وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً
فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ،
الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟ قالوا :
بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : أما والله لو شتمت قلوبكم ، فلصدقتكم ولصدقتكم : أتيتنا مكذباً فصدقناك :
ومخذولاً فنصرناك ، وطريدأ فأويناك ، وعائلاً فأسبناك ، أوجدتم يا معشر
الأنصار في أنفسكم في لعامة ^(١) من الدنيا تأقت بها قوماً ليسلوا ، ووكلتكم

(١) العامة . بفتح خضراء نائمة ، شبه بها زمرة الدنيا ونسبها .

إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب للناس بالشاة والبعير،
وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت
امراً من الأنصار، ولو سلك الناس سلباً وسلكت الأنصار سلباً لسلكت سلب
الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحامهم، وقالوا: رضينا برسول الله تساماً وحفظاً،
ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا.

• • •

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة مستتراً، وأمر ببقايا
النبي فعبس بمجنة، بناحية مر الظهران، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم
من هجرته انصرف راجعاً إلى المدينة، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة،
وخلف معه معاذ بن جبل، يفتي الناس في الدين، ويطلعهم القرآن، واتبع رسول
الله صلى الله عليه وسلم ببقايا النبي.

• • •

ولما استعمل النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل
يوم درهماً، فقام فخطب للناس، فقال: أيها الناس، أجاج الله كبد من جاع
على درهم، فقد رزقني رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً كل يوم، فليست
بي حاجة إلى أحد.

وكانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، فقدم رسول
الله صلى الله عليه وسلم المدينة في بقية ذي القعدة، أو في ذي الحجة.

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للدينة لست ليال بقين من
ذى القعدة .

* * *

وحج الناس تلك السنة ، على ما كانت العرب تحج عليه ، وحج المسلمين
تلك السنة عتاب بن أسيد ، وهي سنة ثمان .

وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم في طائفتهم ، ما بين ذى
القعدة ، إذ انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شهر رمضان من
سنة تسع .

• • •

٨١ - غزوة تبوك

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدينة ، وذلك في زمان من حسرة
للناس ، وشدة من الحر ، وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس
يحبون للقيام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان
الذى هم عليه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى
عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصنده ، إلا ما كان من غزوة تبوك ،
فإنه ينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة المدو الذى يصنده ،
ليتأهب الناس لذلك أهبة ، فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه
يريد الروم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : وهو في جهازه ذلك ،
للجدين نيس ، أحد بنى صلبة : يا جد ، هل لك العام في جلاذ بنى الأصفر ؟

قال : يا رسول الله ، أوتأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء مني ، وأنى أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر إلا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : قد أذنت لك .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن ناساً من اللواقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، يشبطون للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فبعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة ، فاقتمم الضعماك بن حليفة من ظهر البيت ، فانكسرت رجلاه ، واقتمم أصحابه ، فأفلتوا .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جدد في سفره ، وأمر الناس بالجهاز والانتكاش ، وحفص أهل الفتي على النفقة والحملان^(١) في سبيل الله ، فعمل رجال من أهل الفتي واحتسبوا ، وأتفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة ، لم ينفق أحد مثلها .

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم البكاءون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، فاستعملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أهل حاجة ، قال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

(١) الحملان . ما يحمل عليه من الدواب .

فلقى ابن يامين بن حمير بن كعب النضري ، أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب ،
وعبد الله بن مفضل ، وهما يبيكان ، قال : ما بيكيكما ؟ قالوا : جئنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ليعملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى
به على الخروج معه ، فأعطاهما ناضحاً له ، فارتحلاه ، وزودهما شيئاً من تمر ، فخرجوا
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاءه المنذرون من الأعراب ، فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم
الله تعالى .

واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، فلما سار رسول
الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أبي ، فبين تخلف من المناقنين
وأهل الريب .

وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب ، رضوان
الله عليه ، على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المناقنون ، وقالوا :
ما خلفه إلا استئقالاته ، وتحنقأمنه ، فلما قال ذلك للمناقنون أخذ على بن أبي طالب ،
رضوان الله عليه ، سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو نازل بالجرف ، قال : يابني الله ، زعم للمناقنون أنك إنما خلقتني أنك
استئقتني وتحنقت مني ، فقال : كذبوا ، ولمكني خلقتك لما تركت ورائي ،
فارجع فاخلقني في أهل وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون
من موسى ؟ إلا أنه لاني بعدى ، فرجع على إلى المدينة ، ومضى رسول الله
صلى الله عليه وسلم على سفره .

ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم، أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لها في حائطه، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيات له طعاماً، فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأته وما صنعتا له، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح^(١) والرياح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيباً، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهبثا لي زادا، ففعلتا. ثم قدم بعيره فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمعي في الطريق، يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا خيثمة، فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل فلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولى لك يا أبا خيثمة. ثم أخبر رسول الله صلى الله

عليه وسلم انظروا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا
له بخير .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر نزلها ، واستقى
للناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشربوا
من ماءها شيئاً ، ولا تتوضئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه
فأعلقوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرج من أحد منكم الليلة إلا ومعه
صاحب له . ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن
رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته ، وخرج الآخر في طلب بئره .
فأما الذي ذهب لحاجة فإنه خفق على مذهبه ، وأما الذي ذهب في طلب بئره ،
فاحتلمته الريح ، حتى طرحته بجبل طبع . فأخبر بذلك رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فقال : ألم أنهيكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه . ثم دعا رسول
الله صلى الله عليه وسلم للذي أصيب على مذهبه فشق ، وأما الآخر الذي وقع بجبل
طبع ، فإن طبعاً أهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة .

ولما ر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر سجد على وجهه ،
واستعث راحلته ، ثم قال : لا تدخلوا بيوت الدين ظلموا إلا وأنتم باكون ،
خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

فلما أصبح الناس ولا ماء معهم ، شكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الله سبعانة سعاة ،
فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتلموا حاجتهم من الماء .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أصحابه، يقال له: همارة بن حزم، وكان عقيباً بدرياً، وهو عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن الأصميت القينقامي، وكان منافقاً. فقال زيد بن الأصميت، وهو في رحل همارة، وهمارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم من خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلتني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى أتوني بها. فذهبوا، فجاءوا بها. فرجع همارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لمعجب من شيء حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عند بكذا وكذا، لاذي قال زيد بن الأصميت. فقال رجل ممن كان في رحل همارة، ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي. فأقبل همارة على زيد يضرب في عنقه ويقول: إلى عباد الله، إن في رحلي لدهاية وما أشعر! اخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصعبني.

• • •

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه فإن بك فيه خير فسيلعته الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتى قيل: يا رسول

الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بميره ، فقال : دعوه ، فإن يك فيه خير
فسيصلته الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه . وتلوم^(١) أبو ذر
على بعيره ، فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه فعمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر
رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً . ونزل رسول الله في بعض منازل ، فنظر
ناظر من المدينة ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا :
يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله أبا ذر ،
يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

وقد كان رهط من المناقطين ، يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أنحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال
العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكانا بكم غداً مقرنين في الجبال .. إرجافاً
وترهيباً للمؤمنين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر : أدرك القوم ، فإنهم
قد احترقوا^(٢) فلمهم مما قالوا ، فإن أنكروا قتل : بلى ، قائم كذا وكذا .
فانطلق همار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه .

• • •

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذي أوان ، بلد بينه
وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو
يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لدى اللة والحاجة

(١) تلوم ، تلبث .

(٢) احتراقوا : هلكوا .

والليلة المطيرة واليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا ، فتصلي لنا فيه ، فقال : إني
على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا
لكم فيه .

فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم
مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي . أخا بني المجلان ، فقال :
انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه فخرجنا سريعين حتى أتينا بني
سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمن : أنظرنى حتى
أخرج إليك بنار من أهلي . فدخل إلى أهله ، فاخذ سقفا من النخل ، فأشعل فيه
ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقا عنه .

• • •

وكانت مساجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين المدينة إلى تبوك
معلومة مسماة .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان قد تخلف عنه رهط
من المنافقين ، وتخلف ثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن
مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لأصحابه : لانكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة ، فاعتزل المسلمون كلام أولئك
النفر الثلاثة .

ويقول كعب : وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله
علينا ، حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبي
مبشرون ، وركض رجل إلى فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على
الجليل ، فكان الصوت أصرع من القوس . فلما جاءني القى سمعت صوته

يبشرني ، نزلت نبي فكسوتها إياه بشارة ، والله ما أملك يومئذ غيرها ،
واسمعت توبين قلبتهما ، ثم انطلقت أنييم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة ، حتى دخلت للسجد ورسول الله صلى الله
عليه وسلم جالس حول الناس .

فقام إلى طلحة بن عبد الله ، فعياني وهنأني ، فلما سلمت على رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال لي ، ووجهه يرقق من السرور : أبشر بخير
يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند
الله ؟ قال : بل من عند الله .

٨٦ - إسلام ثقيف

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من تبوك في رمضان ، وقدم
عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف .

وكان من حديثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عنهم ، أتبع
أثره عروة بن مسعود الثقفي ، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم وسأله
أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قاتلوك
وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم ،
فقال عروة : يا رسول الله ، أنا أحب إليهم من أبقارهم .

وكان فيهم كذلك محبياً مطاعاً ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام ، وجاء
الأيخالفوه ، لمنزلة فيهم ، فلما أشرف لهم على عليته له ، وقد دعاهم إلى الإسلام ،
وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة :

ماترى فى دمك ؟ قال : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلى ، فليس فى إلا مانى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فدفنوه معهم . فزهروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه : إن مثله فى قومه كمثل صاحب ياسين فى قومه .

• • •

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابهم ، أمر عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان أحدثهم سنًا ، وذلك لأنه كان أحرصهم على النفاة فى الإسلام ، وتعلم القرآن . قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إنى رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على النفاة فى الإسلام ، وتعلم القرآن .

فلما فرغوا من أمرهم ، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، معهم أباب سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة ، فى هدم الطاغية ، فخرجوا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أباب سفيان ، فأبى ذلك أباب سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أباب سفيان بماله ، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها بضربها بالمعول ، وقام قومه دونه ، بنومعتب ، خشية أن يرى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حسراً يبكين عليها .

• • •

٨٢ - حج أبي بكر بالناس

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع، ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم. فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين .

ونزلت براءة في تفض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد، الذي كان عليه فيما بينه وبينهم : ألا يبعد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام . وكان ذلك مهتداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك .

وكانت بين ذلك عهد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل من العرب خصائص ، إلى آجال مسماة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك ، وفي قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها أسرار أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون .

• • •

٨٣ - سنة الوفود وهي سنة تسع .

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وفرغ من تبوك ، وأسلفت حيف ربايمت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه . وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ،

ومصريح وه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه . ولما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام ، وعرفت العرب أنه لا طائفة لها بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله ، كما قال عز وجل ، أفواجا ، يضربون إليه من كل وجه .

فقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفود العرب . فقدم عليه عطار بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي ، في أشرف بن تميم .
وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفسد بن عامر ، فيهم عامر ابن الطفيل .

فقدم عامر بن الطفيل عدو الله ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد الغدر به ، وقد قال له قومه : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم . قال : والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عتبي ، فأنا أتبع عتب هذا النقي من قريش ثم قال لأريد : إذا قدمنا على الرجل ، فإنني سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عامر بن الطفيل : يا محمد ، خالني^(١) ، قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده . قال : يا محمد ، خالني . وجعل يكلمه وينتظر من أريد ما كان أمره به ، فجعل أريد لا يغير شيئا . فلما رأى عامر ما يصنع أريد ، قال : يا محمد ، خالني ، قال : لا ، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له . فلما أبى عليه

(١) خالني . أي تفرد لي خاليا أتحدث بك .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً .
فلما ولي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفني عامر بن الطفيل .
فلما خرجوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عامر لأربد : وبلك
يا أربد ! أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو
أخوف عندي على نفسي منك ، وإيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً . قال :
لا أبالك ! لا تمجّل على ، والله ما همت بأقوى أمرتني به من أمره ، إلا دخلت
يفى وبين الرجل ، ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، بعث الله
على عامر بن الطفيل الطاعون في منته ، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول .
ثم خرج أصحابه ، حين واروه ، حتى قدموا أرض بني عامر شاتين ، فلما
قدموا أتاهم قومهم فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شيء والله ، لقد دعانا
إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن ، فأرميه بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد
مقاتله بيوم أو يومين ، معه جمل له يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جماله
صاعقة ، فأحرقتهم . وكان أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمه .

وبعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً منهم ،
يقال له : ضمام بن ثعلبة ، وانداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عليه
وأناخ بهيره على باب المسجد ، ثم عتله ، ثم دخل المسجد ورسول الله صلى
الله عليه وسلم جالس في أصحابه . وكان ضمام رجلاً جليداً أشعر ذا غديرتين ،
فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ، فقال :
أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أحمد؟ قال : نعم ، قال : يا بن عبد المطلب ، إني سألتك ومغلظ عليك في المسألة ، فلا تجدن في نفسك . قال : لا أجد في نفسي ، فهل ما بدا لك . قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كأن بمدك ، آله بمنك إلهنا رسولاً ؟ قال : اللهم نعم . قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كأن بمدك ، آله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم . قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كأن بمدك ، آله أمرك أن تصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال : اللهم نعم . قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها ، كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص . ثم انصرف إلى بئيره راجعاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صدق ذو القمصين دخل الجنة .

فأتى بئيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بثت اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ، قال : ويلكم إلهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا ، وأنزل كتاباً استنفذكم به عما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه .

فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمرو بن حنشل ،
أخو عبد القيس ، ولما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه ، ففرض
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، ودعاه إليه ، ورغبه فيه . قال :
يا محمد ، إني كنت على دين ، وإني تارك ديني هديتكم ، أفتضمن لي ديني ؟
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أنا ضامن أن قد هدتك الله
إلى ما هو خير منه . فأسلم وأسلم أصحابه ، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه
وسلم الحملان ^(١) ، فقال : والله ما عندي ما أحملك عليه . قال : يا رسول
الله ، فإن يئسوا بين بلادنا ضوال من ضوال الناس ، أفنتبغ عليها إلى بلادنا ؟
قال : لا ، إياك وإياها فأنتك حرق النار .

فخرج من عنده الجارود راجعاً إلى قومه ، وكان حسن الإسلام ، صلباً
على دينه ، حتى هلك وقد أدرك الردة . فلما رجع من قومه من كان أحلم منهم
إلى دينهم الأول ، مع الفرور بن المنذر بن النعمان بن المنذر ، قام الجارود
فكلم ، فتشهد شهادة الحق ، ودعا إلى الإسلام ، فقال : أيها الناس ، إني
أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأكفر من لم يشهد .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بمكة بن الحضرمي قبل
فتح مكة إلى المنذر بن صاوي العبدي ، فأسلم وحسن إسلامه ، ثم هلك بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل ردة أهل البحرين ، والملاء عنده ،
أمير الرسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين .

(١) أي ما يحمله عليه .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بني حنيفة ، فيهم مسيلة
ابن حبيب الحنفي الكذاب ، وكانوا قد خلفوا مسيلة في رحالهم ، فلما أسلموا
ذكروا مكانه ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد خلفنا صاحبنا لنا في رحالنا وفي
ركابنا يحفظها لنا ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لقوم ،
ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءوه بما أعطاه . فلما انتهوا
إلى النجاة ارتد عدو الله ، وتنبأ وتكذب لهم ، وقال : إني قد أشركت في
الأمر معه . ثم جعل يسجع لهم الأساجيع ، وأحل لهم الخمر والزنا ، ووضع
عندهم الصلاة ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه نبي .



وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد طيء ، فيهم زيد الخليل ،
وهو سيدم ، فلما انتهوا إليه كلوه ، وعرض عليهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم الإسلام ، فأسلموا ، فحين إسلامهم . وقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتة دون ما يقال
فيه ، إلا زيد الخليل ، فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ، ثم ساء رسول الله صلى الله
عليه وسلم : زيد الخليل ، فخرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً
إلى قومه ، فلما انتهى إلى ماء من مياهه ، أصابته الحمى بها مات .



وأما عدي بن حاتم فكان يقول : ما من رجل من العرب كان أشد
كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به مني ، فلما سمعت برسول
الله صلى الله عليه وسلم كرهته ، فقلت لنفسي كان لي مربي ،
وكان واعياً لإبلي : لا أبالك ، أمدد لي من إبلي أجمالا ذللاً بما ناك ، فاحتبسها

قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطي هذه البلاد فأذني، ففعل. ثم إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عدى، ما كنت صانماً إذا غشيتك لحيل محمد، فاصنعه الآن، فإنني قد رأيت رايات، فسأت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد. قلت: ففرت إلى جبال، فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألقى بأهل ديني من النصارى بالشام، وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها.

وتخالفني خيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتصيب ابنة حاتم، فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبانيا من طيب، وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هربي إلى الشام. قال: فجعلت بنت حاتم في حظيرة باب المسجد، كانت السبانيا يحبس فيها، فربها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ من الله عليك. قال: ومن وافدك؟ قالت: عدى بن حاتم. قال: الفار من الله ورسوله؟ قالت: ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتركني، حتى إذا كان من الغد مررت، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس. قالت: حتى إذا كان الغد، مررت، وقد بنت منه، فأشار إلى رجل من خائفه: أن قومي فكلميه، قالت: ففقت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ من الله عليك. فقال صلى الله عليه وسلم: قد فعلت، فلا تمجلي بخروج، حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذيني. فسألت عن الرجل الذي أشار إلى أن أكلمه، فقيل: حل بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأقمت حتى قدم ركب من بلخ أو قضاة قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام. قالت: فبجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله،

فد قدم رهنط من قومي ، لي فيهم ثقة وبلاغ . قالت : فكساني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلني وأعطاني نفقة ، فخرجت معهم ، حتى قدمت الشام . قال عدى : فوالله إني لقاعد في أهلي ، إذ نظرت إلى ظمينة تصوب إلى تؤمنا ، فقلت : ابنة حاتم ؟ فإذا هي هي . فلما وقفت على ، أخذت في اللوم تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدهك ، وتركت بقية والدهك عورتك اقات : أي أخية ، لا تقولي إلا خيراً ، فوالله مالي من عذر ، لقد صنعت ما ذكرت . قال : ثم نزلت فأقامت عندي ، فقلت لها ، وكانت امرأة حازمة : ماذا ترين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلتحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً ، فالسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً ، فلن تذلل في عز اليمين ، وأنت أنت . قال : قلت : والله إن هذا الرأي .

قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدخلت عليه ، وهو في مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق لي إلى بيته ، فوالله إنه لما مدني إليه ، إذ لقيته امرأة ضميعة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تسكبه في حاجتها . قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا دخل بي بيته ، تناول وسادة من آدم محشوة ليفاً ، فمذفها إلى ، فقال : اجلس على هذه ، قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض . قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تك ركوسياً^(١) ؟ قلت : بلى . قال : أولم

(١) الركوسى ، من الركوسية ، وهو لوم لهم بين دين النصارى والصابئين .

تسكن تدبر في قومك بالرباع ؟ قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحمل لك في دينك ؟ قلت : أجل والله . قال : وعرفت أنه نبى مرسل ، يعلم مالا تعلم . ثم قال : لملك يا عدى إنما يمنك من دخول في هذا الدين ، ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم ، حتى لا يوجد من يأخذه ، ولملك إنما يمنك من دخول فيه ، ما ترى من كثرة عدوم ، وقلة عدوم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور هذا البيت ، لا تخاف ، ولملك إنما يمنك من دخول فيه ، أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وإبم الله ليوشكن أن تسمع بالنصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ، قال : فأسلت .

• • •

وقدم فروة بن مسبك المرادى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقارفاً للوك كندة ، ومباعداً لهم ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهدان وقعة ، أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا ، حتى أئتمنوم في يوم كان يقال له : يوم الردم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله ، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم لا بسوءه ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً .

واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على مراد وزبيد ومذحج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة ، فكان معه في بلاده ، حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن معد يكرب في أناس من بني زبيد ، فأسلم ، وكان عمرو قد قال لقيس بن مكشوح المرادي ، حين انتهى إليهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا قيس ، إنك سيد قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز ، يقول إنه نبي ، فانطلق بنا إليه ، حتى نعلم علمه ، فإن كان نبيا كما يقول ، فإنه لن يخفى عليك ، وإذا لقيناه اتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه . فأبى عليه قيس ذلك ومنه رأيه ، فركب عمرو بن معد يكرب حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدقه وآمن به .

فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد همرا ، واشتد عليه ، وقال : خالفني وترك رأبي . فأقام عمرو بن معد يكرب في قومه من بني زبيد ، وعليهم فروة ابن مسيك . فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد عمرو بن معد يكرب .

• • •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشعث بن قيس ، في وفد كندة في ثمانين راكبا من كندة ، فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، وقد رجلا جهمهم وتكلموا عليهم جهب الخبزة ، وقد كنفوها بالحريز . فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تعلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما بال هذا الحريز في أعناقكم ، قال : فشقوه منها ، فألقوه .

• • •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرد بن عبد الله الأزدي ، فأسلم ، وحسن إسلامه ، في وفد من الأزدي ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم

على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل
الشرك ، من قبل اليمن .

فخرج سرد بن عبد الله بسير بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى
نزل بجرش ، وهي يومئذ مدينة مغلقة ، وبها قبائل من قبائل اليمن ، وقد
ضمت إليهم خثعم ، فدخلوها معهم ، حين سمعوا بسير المسلمين إليهم .
فعاصروهم فيها قريباً من شهر ، وامتنعوا فيها منه ، ثم إنه رجع عنهم قافلاً ،
حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ، ظن أهل جرش أنه إنما ولي عنهم
منهزماً ، فخرجوا في طلبه ، حتى إذا أدركوه ، عطف عليهم ، فقتلهم
قتلاً شديداً .

• • •

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، في شهر ربيع
الآخر أو جمادى الأولى ، سنة عشر ، إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، أمره
أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا فأقبل منهم ،
وإن لم يفعلوا فقاتلهم . فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركب أن يضربون
في كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيها الناس ، أسلموا تسلموا ،
فأسلم الناس ، ودخلوا فيما دعوا إليه . فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام ، وكتاب
الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبذلك كان أمره رسول الله صلى الله عليه
وسلم إن هم أسلموا ولم يقاتلوا .

• • •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية ، قبل خيبر ،
رفاعة بن زيد الجذامي ثم الضبيبي . فأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم

غلاماً ، وأمام ، فحسن إسلامه ، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم
كتاباً إلى قومه .

• • •

وقدم وفد هذاني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك .

٨٤ - حجة الوداع

ولما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذوالقعدة ، تجهز للحج ، وأمر
الناس بالجهاز له ، لا يذكر ولا يذكر الناس إلا الحج . حتى إذا كان بسرف ،
وقد ساق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، معه الهدى وأشراف من أشراف
الناس ، أمر الناس أن يحملوا بكرة إلا من ساق الهدى .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث علياً رضي الله عنه إلى
نجران ، فلقية بكرة وقد أحرم ، فدخل على فاطمة بنت رسول الله صلى الله
عليه وسلم ورضي الله عنها ، فوجدتها قد حلت وتهيأت ، فقال : مالك يا بنت
رسول الله ؟ قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحل بكرة ،
فعلنا . ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من الخبر عن سفره ،
قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلق فطف بالبيت ، وحل كما حل
أصحابك ؟ قال : يا رسول الله ، إني أهلت كما أهلت ، فقال : ارجع فاحلل كما
حل أصحابك . قال : يا رسول الله ، إني قلت حين أحرمت : اللهم إني أهل بما
أهل به نبيك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : فهل معك
من هدى ؟ قال : لا . فأشركه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه ،
وثبت على إحرامه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ من الحج ونحر

رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى عنهما .

• • •

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حجه ، فأرى الناس مناسكهم ، وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين ، وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ، وقد أراهم مناسكهم ، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم ، من الموقف ، ورمى الجمار ، وطواف البيت ، وما أحل لهم من حجهم ، وما حرم عليهم ، فكانت حجة البلاغ ، وحجة الوداع ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجمع بعدما .

• • •

ثم قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام بالمدينة بنية ذى الحجة والمحرم وصفر ، وضرب على الناس بعثاً إلى الشام ، وأمر عليهم أسامة بن زيد ابن حارثة مولاه ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والمباروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرون الأولون .
وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى السلوك رسلاً من أصحابه ، وكتب معهم إليهم يدهموم إلى الإسلام .

• • •

وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعمائة وعشرين غزوة .

وكانت بموته صلى الله عليه وسلم وسراياه ثمانية وثلاثين ، من بين بعث وسرية .

• • •

٨٥ - مرضه صلى الله عليه وسلم وموته

ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج يمشى بين رجلين من أهله :
الفضل بن العباس ، وعلى بن أبي طالب ، عاصباً رأسه ، تخط قدماء ، حتى دخل
بيت عائشة ، ثم غمر^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتد عليه وجعه ، فقال :
هريقوا على سبع قريب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم .
قول عائشة : فأقعدناه في مخضب^(٢) لحنصة بنت عمر ، ثم صبينا عليه الماء
حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عاصباً رأسه حتى جلس على
المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد ، واستغفر لهم ، فأكثر
الصلاة عليهم ، ثم قال : إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين
ما عنده ، فاختار ما عند الله . فقهراً أبو بكر ، وعرف أن نفسه يريد ، فهكى
وقال : بل نحن نقديك بأنفسنا وأبنائنا ، فقال : على رسلك يا أبا بكر ، ثم
قال : انظروا هذه الأبواب اللائقة^(٣) في المسجد ، فسدوها إلا بيت أبي بكر ،
فإنى لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي بدأ منه .

واستبطناً رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس في بحث أسامة بن زيد ،
وهو في وجعه ، فخرج عاصباً رأسه ، حتى جلس على المنبر ، وقد كان الناس
قالوا في إمرة أسامة : أمر غلاماً حدثاً على جلة للهاجرين والأنصار .

(١) أى أصابته غمرة المرض صلى الله عليه وسلم .

(٢) المخضب : إناء يفضل فيه .

(٣) اللائقة : الناقذة .

محمد الله وأبني عليه بما هو له أهل ، ثم قال : أيها الناس ، أنفذوا بك
أسماء ، فلمعري لئن قاتم في إمارته لقد قاتم في إماره أبيه من قبله ، وإنه تخلق
للإمارة ، وإن كان أبوه تخلقاً لها .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وانكش^(١) للناس في جهازهم ،
واستمر برسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ، فخرج أئمة ، وخرج جيشه
معهم حتى نزلوا الجرف ، من المدينة على فرسخ ، فضرب به عسكره ، وتنام إليه
الناس ، وتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام أئمة والناس ، لينظروا
ما الله قاض في رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاجتمع إليه صلى الله عليه وسلم
نساء من نسائه : أم سلمة ، وميمونة ، ونساء بين نساء المسلمين ، منهن : أسماء
بنت عميس ، وعنده العباس عمه ، فأجهروا أن يلدوه^(٢) . وقال العباس : لألدنه ،
فلدوه . فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : من صنع بي هذا أقالوا :
بارسول الله ، عمك ، قال : هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض ،
وأشار نحو أرض الحبشة . ثم قال : ولم فعلتم ذلك ؟ فقال عمه العباس : خشينا
بارسول الله أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : إن ذلك لداء ما كان الله عز
وجل ليقتدي به ، لا يبق في البيت أحسد إلا لله إلا هي ، فلقد لدت ميمونة
وإنها لصائمة ، لقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عقوبة لهم بما صنعوا به .

• • •

(١) انكش : أصرع .

(٢) أي أن يجهلوا الدواء في شق منه .

ويقول أحامة: لما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هبطت وهبط الناس
معي إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أصمت فلا
يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضمها على ، فأعرف أنه يدعو لي .

ولما استتمز برسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس .
قالت عائشة : قلت: يانبي الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت ، كثير
البكاء إذا قرأ القرآن . قال: مروه فليصل بالناس . قالت : فعدت بمثل قولي ،
قال : إنكن صواحب يوسف ، فروه فليصل بالناس . قالت : فوالله ما أقول
ذلك إلا أني كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر ، وعرفت أن الناس
لا يجهون رجلاً قام مقامه أبداً ، وأن الناس سيتشاهمون به في كل حدث كان ،
فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر .

ثم إنه لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ،
خرج إلى الناس ، وهم يصلون الصبح ، فرفع الستر ، وفتح الباب ، فخرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يفتقنون
في صلاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه ، فرحابه ، وتفرجوا ،
فأشار إليهم : أن اثبتوا على صلاتكم . فبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم
سروراً لما رأى من هيبتهم في صلاتهم ، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
أحسن هيئة منه تلك الساعة ، ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قد برئ من وجعه . فرجع أبو بكر إلى أهله بالسبح .

o o o

وتقول عائشة : رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع في حجرى ، فدخل على رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فى يده نظراً عرفت أنه يريد به ، فقلت : يا رسول الله ، أتعجب أن أعطيك هذا السواك؟ قال : نعم ، فأخذته ، فضمته له ، حتى لينته ، ثم أعطيته إياه فاستن كأشد ما رأيت به يستن بسواك قط ، ثم وضعه . ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة ، فقلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

قالت : وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين سعوى ونحرى ، حين اشتد الضحى من يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة عشرين من الهجرة وشهرين واثنى عشر يوماً ، فوضعت رأسه على وصادة ، وقت أقدام مع النساء وأضرب وجهى .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام همر بن الخطاب ، فقال : إن رجالا من المناقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن همران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليتظن أبدى رجال وأرجلهم ، زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات .

وأقبل أبو بكر ، حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وهر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى في ناحية البيت ، عليه برد حبرة . وأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ، ثم رد البرد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج وهر يكلم الناس ، فقال : على رسالك يا عمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أبها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَنْ أَفْلَحَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَابْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَتَّقِلْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَفْرِزَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) .

فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس من أبي بكر ، فإنما هي في أفواههم .

قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرفت^(١) ، حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات .

(١) عمر : دهش .

ثم إن علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس،
وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشقران مولى رسول الله صلى الله
عليه وسلم، هم الذين تولوا غسله. وإن أوس بن خولى، أحد بني عوف بن
الخرزج، قال لعلي بن أبي طالب: أنشدك الله يا علي، وحفظنا من رسول الله
صلى الله عليه وسلم. وكان أوس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأهل بدر. ادخل؟ فدخل فجلس، وحضر غسل رسول الله صلى الله
عليه وسلم، فأسنده علي بن أبي طالب إلى صدره، وكان العباس والفضل
وقثم يلبونه معه، وكان أسامة بن زيد وشقران مولاة، هما اللذان يصبان
الماء عليه، وهما ينسله، قد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه بذلك به من
ورائه، لا يفضى بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلي يقول: باني أنت
وأبي، ما أطيبك حياً وميتاً، ولم ير من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً مما
يرى من البيت.

ولما أرادوا غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه، فقالوا:
والله ما ندري أنجرد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثيابه، كما نجرد موتانا،
أو نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا أتى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل
إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت، لا يدرون من هو:
أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه. فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،
فغسلوه وعليه قميصه، ويصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص
دون أيديهم.

فلما فرغ من غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن في ثلاثة أثواب :
ثوبين صحاريين (١) وبرد حبرة أدرج فيها إدراجاً . ولما أرادوا أن يحفروا
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو عبيدة بن الجراح يصرح كحفر أهل
مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة ، فكان يلعد
فدعا العباس رجلين ، فقال لأحدهما : اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وللآخر :
اذهب إلى أبي طلحة ، اللهم خر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد
صاحب أبي طلحة أبا طلحة ، فجاء به ، فلعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

فلما فرغ من جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء وضع على
سريره في بيته . وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه ، فقال قائل : تدفنه في
مسجده ، وقال قائل : بل تدفنه مع أصحابه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض ، فرفع فراش
رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي عليه ، فحفر له تحته . ثم دخل الناس
على رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون عليه أرسالا ، دخل الرجال ، حتى إذا
فرغوا ، أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان . ولم يؤم الناس على
رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد . ثم دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم من
وسط الليل ليلة الأربعاء .

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : علي بن أبي طالب ،
والفضل بن عباس ، وشم بن عباس ، وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه
وسلم .

(١) نسبة إلى صحار : مدينة باليمن .

وقد قال أوس بن خولى لعل بن أبى طالب : يا هل ، أتشدك الله ،
وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : انزل ، فنزل مع القوم ،
وقد كان مولاه شقران حين وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرته
وبنى عليه ، قد أخذ قطيفة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها
ويغترشها ، فدقها فى القبر ، وقال : والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً . فدفنت مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

وقد كان المغيرة بن شعبه يدعى أنه أحدث الناس عهداً برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ويقول : أخذت خاتمي ، فألقيته فى القبر ، وقلت : إن خاتمي
سقط مني ، وإنما طرحته عهداً ، لأمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكون
أحدث الناس عهداً به صلى الله عليه وسلم .

وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة سوداء ، حين اشتد به
وجعه ، فهو يضعها مرة على وجهه ، ومرة يكشفها عنه ، ويقول : قاتل الله قوماً
اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر من ذلك على أمتهم .

• • •

وكان آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : لا يترك
بجزيرة العرب ديتان .

• • •

٨٦ - زوجاته صلى الله عليه وسلم .

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع من زوجاته ، هن :

عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، وسودة بنت زمعة بن قيس ، وزينب بنت جحش بن رثاب ، وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وصفية بنت حيي بن أخطب .

وكان جميع من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة :

خديجة ، وهي أولى من تزوج ، زوجها إياها أبوها خويلد بن أسد ، ويقال أخوها عمرو بن خويلد ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة .

وكانت خديجة قبله عند أبي هالة بن مالك ، أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم ، حليف بني عبد الدار ، فولدت له هند بنت أبي هالة ، وزينب بنت أبي هالة ، وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فولدت له عبد الله ، وجارية .

R وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة بنت أبي بكر المصديق بمكة ، وهي بنت عشر سنين ، ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بكر غيرها زوجها إياها ، أبوها أبو بكر ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعاً درهم .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي ، زوجها

إياها سليط بن عمرو ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمئة درهم ،^(٢)
وكانت قبله عند السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك
ابن حسل .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جعش بن رثاب
الأسدية ، وزوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جعش ، وأصدقها رسول الله صلى
الله عليه وسلم أربعمئة درهم ، وكانت قبله عند زيد بن حارثة ، مولى رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بنت أمية بن لخميرة
الخرزومية ، واسمها هند ، وزوجه إياها سلمة بن أبي سلمة ابنها ، وأصدقها
رسول الله صلى الله عليه وسلم فرائصاً حشوه ليف ، وقدحاً ، وصحفة ، ومجشة^(١) .
وكانت قبله عند أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، فولدت له : سلمة ، وحر ،
وزينب ، ورقية .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وزوجه
إياها أبوها عمر بن الخطاب ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمئة
درهم ، وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن
حرب ، وزوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص ، وهما بأرض الحبشة ، وأصدقها
النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمئة درهم ، وهو القدي كان

(١) المجعة : الرحي .

خطبها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت قبله عند عبود الله بن جحش .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرة بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ، وكانت في سبايا بني للمصطلق ، من خزاعة ، ودفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل من الأنصار وديعة . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أقبل أبوها الحارث بن ضرار بفداء ابنته ، ثم كان أن أسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له ، ودفعت إليه ابنته جويرة ، فأسلمت ، وخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها ، فزوجه إياها ، وأصدقها أربع مائة درهم . وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ابن عم لها يقال له : عبد الله .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت يحيى بن أخطب ، سباها من خيبر فاصطفاها لنفسه ، وكانت قبله عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، زوجه إياها العباس بن عبد المطلب ، وأصدقها العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مائة درهم ، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى ، ويقال : إنها هي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة بن الحارث ، وكانت تلقب : أم المساكين ، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، زوجه إياها قبيصة ابن عمرو الهلالي ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مائة درهم ،

وكانت قبله عند عبدة بن الحارث بن للطلب بن عبد مناف : وكانت قبل عبدة عند جهم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمها .

فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إحدى عشرة ، فأت قبلة منهن اثنتان ، وهما : خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة .
ونمة ثنتان لم يدخل بهما ، وهما : أسماء بنت النعمان الكندية ، تزوجها فوجد بها بياضاً^(١) ، فنعها وردها إلى أهلها ، وهرة بنت يزيد السكلبية ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم استعادت منه ، فردها إلى أهلها .

والقرشيات من أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ست ، وهن :
خديجة ، وعائشة وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة .
والعربيات ست ، وهن : زينب بنت جحش ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة ، وجويرية بنت الحارث ، وأسماء بنت النعمان ، وهرة بنت يزيد .

ومن غير العربيات : صفية بنت حيي .

• • •

٨٧ - سراريه صلى الله عليه وسلم

وأما سراريه صلى الله عليه وسلم ، فقيل إنهن أربعة :
مارية القبطية ، أهداها إليه القوقس في سنة سبع من الهجرة وكان صلى الله عليه وسلم بطؤها بملك اليمسين ، وكانت من كورة أنصاف من صعيد مصر ، على البر الشرقي في مقابلة الأشمونين .

(١) بياضاً : أى برصاً .

وريحانة - ربيعة - بنت شمنون ، من بني عمرو بن قريظة ، وقيل من بني
النضير ، وكان صلى الله عليه وسلم يطؤها بملك اليمين .
ونفيسة ، جارية زينب بنت جحش ، وهبتها له زينب .
وجارية أصابها صلى الله عليه وسلم في بعض السبي .

• • •

٨٨ - أولاده صلى الله عليه وسلم

وأما أولاده صلى الله عليه وسلم فكلهم من خديجة ، ماعدا إبراهيم فإنه
من مارية القبطية ، فولدت له خديجة : القاسم ، وكان أول من ولد لرسول الله
صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ، ثم ولدت
له : زينب ، ورقية ، وقاطمة ، وأم كلثوم ، ثم ولد له في الإسلام : عبد الله ،
والطيب « الطاهر » . ومات عبد الله بمكة . فأما القاسم ، والطيب « الطاهر » فماتا
في الجاهلية . وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه صلى الله
عليه وسلم .

وأما إبراهيم فإنه من مارية القبطية ولدت له أمه في سنة ثمان من الهجرة ،
وقد مات إبراهيم صغيراً ، مات وهو ابن ثمانية عشر شهراً .

• • •

٨٩ - أعمامه وعماته صلى الله عليه وسلم

وكان له صلى الله عليه وسلم اثنا عشر عمّاً ، هم بنو عبد المطلب ، وهم :
الحارث ، وأبو طالب ، وحزرة ، والعباس ، وأبو لهب عبد المزي ، والفيداق ،
والتقوم ، وضرار ، وقثم ، والزبير : الكعبة ، وجعل .

وزاد بعضهم: العوام ، فيكونون ثلاثة عشر .
والذين أدركهم الإسلام من أعمامه ، هم: عبد مناف ، وأبولهب ، والعباس ،
وحمزة، لم يسلم منهم غير اثنين : حمزة والعباس .
وأما عماته صلى الله عليه وسلم . فت ، بنات عبد المطلب ، وهن: عاتكة ،
وأمية ، والبيضاء ، وأم حكيم، وبرة ، وصفيية، وأروى .
لم تسلم منهن على الأصح غير صفيية ، أم الزبير بن العوام .

• • •

٩٠ - جداته صلى الله عليه وسلم

وأما جداته صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه ، فهن: فاطمة بنت عمرو بن عائذ ،
أم عبد الله أبيه ، وسلى بنت عمرو ، من بنى النجار ، وهم أم عبد المطلب ،
وعاتكة بنت حمزة بن هلال بن فالج بن ذكوان ، وهي أم هاشم ، وعاتكة
بنت فالج بن ذكوان، وهي أم عبد مناف ، وفاطمة بنت سعد ، من أزد السراة،
وهي أم قصي ، ونعم ، وقيل : هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث ، وهي
أم كلاب ، ووخشية بنت شيبان بن محارب ، وهي أم مرة ، وسلى بنت محارب
من فهم ، وهي أم كعب ، ووخشية بنت مدليج بن مرة ، وهي أم لؤي ، وسلى
بنت سعد بن هذيل ، وهي أم غالب ، وجندة بنت الحارث بن مضاخ ،
وهي أم فهر ، وهند - وقيل : عاتكة - بنت عدوان ، وهي أم مالك ، وبرة بنت
مرة ، وهي أم النضير ، وعوانة بنت سعد بن قيس عيلان ، وهي أم كنانة، وأم
خزيمة، امرأة من قضاة ، وخندف بن عمران القضاعية ، وهي أم مدركة ،
وأم إلياس جرهمية، وسودة بنت عك بن عدنان ، وهي أم مضر ، والأمينة،
وهي أم معد .

وأما جداته صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، فأما أمينة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب : برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ابن قصي بن كلاب بن مرة ، وأم أبيها وهب : عاتكة بنت الأوقص ، ويعرف الأوقص بأبي كبشة ، الذي كان ينسب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال : ابن أبي كبشة ، وأم برة : أم حبيبة بنت أحمد بن عبد العزى ، وأم حبيبة : نرة بنت عوف بن عبيد بن عدى بن كعب بن لؤى ، وأم برة بنت عوف : قلابة بنت الحارث بن طابحة بن صعصعة بن عائذ بن الحيان بن هذيل ، وأم قلابة : هند بنت يربوع ، من قحيف .

* * *

٩١ - أخواته صلى الله عليه وسلم

وأما إخوته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة : حمزة ، عمه ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، أرضعتها معاً مع ثويبة ، جارية أبي لهب بلبن ابنها مسروح ، ولقد أرضعته ثويبة صلى الله عليه وسلم أياماً قلائل قبل أن تأخذه حليلة ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، أرضعته ورسول الله صلى الله عليه وسلم حليلة السعدية ، وعبد الله بن الحارث بن عبد العزى السعدي ، وآسية بنت الحارث السعدية ، وجدامة ، وقيل : خدامة ، وقيل : حذافة ، وتعرف بالشيء ، والثلاثة أولاد حليلة من زوجها الحارث .

وكانت حاضنته صلى الله عليه وسلم أم أيمن بركة بنت ثعلبة بن حصن ابن مالك ، وكنيت باسم ابنها أيمن ، وهي أم أسامة بن زيد ، تزوجها زيد بعد موت عبيد بن زيد الذي كان قد تزوجها في الجاهلية بمكة ، ثم نقلها إلى يثرب فولدت له أيمن ، ثم مات عنها فرجعت إلى مكة ، فتزوجها زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة .

وكانت الشيماء بنت حلينة السعدية تحضنه أيضاً ، فهي أخته وحاضنته .

• • •

٩٢ - خدمه صلى الله عليه وسلم

وأما خدمه صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من الرجال :

أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد الأنصاري الخزرجي ، ويكنى :
أبا هريرة ، خدم النبي صلى الله عليه وسلم سبع سنين أو عشر ، وأمه أم
سليم هي التي أتت به النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة فقالت له : هذا
أنس غلام يخدمك .

ومنهم : ربيعة بن كعب بن مالك ، أبو فراس الأسلمي ، صاحب وضوئه .
ومنهم : أيمن ، ابن أم أيمن ، وهو أيمن بن عبيد بن زيد بن عمرو بن
بلال الأنصاري الخزرجي ، صاحب مطهرته .

ومنهم : عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، وكان صاحب الوسادة والنملين .
ومنهم : عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو الجهني ، وكان صاحب بقلته ،
يقودها به في الأسفار .

ومنهم : أسلم بن شريك بن عوف ، صاحب راحلته ، الذي كان ينزل
الرحل عنها ويضمه عليها .

ومنهم : سعد ، مولى أبي بكر الصديق .

ومنهم : أبو ذر جندب بن جنادة ، الزاهد المشهور .

ومنهم : أبو حذيفة مهاجر ، مولى أم سلمة .

ومنهم : حنين ، مولى عباس بن عبد المطلب .

ومنهم : نعيم بن ربيعة بن كعب الأسلمي .
ومنهم : أبو الحمراء هلال بن الحارث .
ومنهم : أبو السمع إباد .

ومنهم : من النساء :

بركة أم أيمن ، وهي والدة أسامة بن زيد .
وخولة ، جدة حفص بن سعد .

وسلي ، أم رافع ، زوج أبي رافع .
وميمونة بنت سعد .

وأم عياش ، مولاة رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم .

• • •

٩٢ - مواليه صلى الله عليه وسلم

وأما مواليه صلى الله عليه وسلم فمنهم :

أسامة بن زيد بن حارثة ، وزيد بن حارثة ، وثوبان بن يحدد ، وأبو كبشة ،
من موالدي مكة ، وشقران صالح بن عدي ، حبشي ، وقيل : فارسي ، ورباح
الأسود النوبي . وهو مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويسار النوبي الراعي ،
وزيد النوبي ، ومدعم ، وكان لرفاعة بن زيد ، فأهداه إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وأسلم أبو رافع القبلي ، كان لعباس فوهبه للنبي صلى الله
عليه وسلم ، وسفينة ، اشتراه صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه ، وأبو واقد ،
القبلي الخمي ، وهو من جملة من أهداه للتوقس للنبي صلى الله عليه وسلم ،
وأنجشة الحبشي ، وسلمان بن عبد الله القارمي ، وشمعون بن زيد أبو ريمانة ،
أبو بكر نعيم بن الحارث بن كلدة .

٩٤ - كتابه صلى الله عليه وسلم

أما كتابه صلى الله عليه وسلم ، فهم :

أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن
أبي طالب ، وطلحة بن عبد الله التميمي ، والزبير بن خويلد الأسدي ، وصعيد بن
العاص بن أمية ، وسعد بن أبي وقاص ، وعامر بن فهيرة التميمي ، مولى أبي بكر ،
وعبد الله بن الأرقم القرشي الزهري ، وأبي بن كعب بن قيس الأنصاري ، وثابت
ابن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي ، وحنظلة بن الربيع بن صيفي ، وأبو سفيان
صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، و معاوية بن أبي سفيان ، وزيد بن ثابت بن
الضحاك الأنصاري الخزرجي ، و شرحبيل بن حسنة ، وخالد بن الوليد بن المغيرة
الخزومي ، وعمر بن العاص بن وائل القرشي السهمي ، والمغيرة بن شعبة الثقفي ،
وعبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري ، ومعتيق بن أبي قاطمة الدوسي ،
وحذيفة بن اليمان ، وحويط بن عبد المزي .

٩٥ - مؤذنه صلى الله عليه وسلم

أما مؤذنه صلى الله عليه وسلم فأربعة ، اثنان بالمدينة ، وهما :

بلال بن رباح ، وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وعبد الله بن أم مكتوم القرشي الأحمي .

وأذن له صلى الله عليه وسلم بقاء : سعد بن هانئ ، للمروءة بسمد القرظ ،
مولى حمار بن ياسر .

وأذن له صلى الله عليه وسلم بمكة : أبو محذورة الجمحي القرشي .

٩٥ - شعراؤه صلى الله عليه وسلم

وأما شعراؤه صلى الله عليه وسلم :

فكعب بن مالك الأنصاري السلمي ، وعبد الله بن رباح الخزرجي
الأنصاري ، وحسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي .

• • •

٩٦ - ملاحه صلى الله عليه وسلم .

وأما أميائه صلى الله عليه وسلم ، فكانت تسعة ، وهي :

مأثور ، والمضب ، وذو الفقار ، والقلمى ، والبتار ، والحنف ، والمخزم ،
والرسوب ، والتضيب .

• • •

وأما أدرعه صلى الله عليه وسلم فكانت سبعة ، وهي :

ذات الفضول ، وذات الوشاح ، والسعدية ، والفين ، ووفضة ، والبراء ،
والخرنق .

• • •

وأما أقوامه صلى الله عليه وسلم وكانت ستة ، وهي :

الزوراء ، والروحاء ، والصغراء ، وشوحط ، والكتوم ، والسداد .

• • •

٩٧ - نوابه صلى الله عليه وسلم

وأما خيله صلى الله عليه وسلم فكانت سبعة ، وهي :

السكب ، وهو أول فرس ملكه ، اشتراه صلى الله عليه وسلم بعشر أواق ،

وكان أقرع مجلاً طلق اليمين كيتاً ، ، والرتمجز ، وكان أبيض ، وهو القدي
شهد له فيه خزيمه بن ثابت فجعل شهادته بشهادة رجلين ، والظرب ، أهداه له
فروة بن عمرو الجذامي ، واللحييف ، أهداها له ربيعة بن أبي البراء ، والززاز ، سمي
به لشدة تلززه أو لاجتماع خلقه ، والورد ، أهداها له تميم الدارمي . فأعطاه عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه ، فعمل عمر عليه في سبيل الله تعالى ، ثم وجدته يباع
برخص ، فأراد شراءه ، فقَالَ صلى الله عليه وسلم : لا تشتره ، وسبعة ،
وكانت فرساً شقراء ، اشتراها صلى الله عليه وسلم من أعرابي .

• • •

وكان له عليه الصلاة والسلام من البغال :
دهل ، وكانت شهباء ، وفضة ، أهداها له فروة بن عمرو الجذامي ،
فوهبها لأبي بكر .

وأخرى أهداها له ابن العلماء ، صاحب أيلة .

وأخرى أهداها له صاحب دومة الجندل .

وأخرى أهداها له كسرى .

• • •

وكان له عليه الصلاة والسلام من الحمير : عفير ، أهداه له المقوقس .

وبستور ، أهداه له فروة بن عمرو الجذامي .

• • •

وكان له عليه الصلاة والسلام من الاتاح :

القصواء ، وهي التي هاجر عليها ، اشتراها من أبي بكر بثمانمائة درهم .

والمضباء ، والجدعاء .

٩٨ - تلخيص وتعقيب :

فالرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، وهو - كما مر بك :
محمد بن عبد الله بن عبد المطلب « شيبه » بن هاشم « عمرو » بن عبد مناف
« المغيرة » بن قصي « زيد » بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب
ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة « عامر » بن مضر
ابن نزار بن معد بن عدنان.

إلى هنا ينتهي النسب الصحيح ، وما فوق ذلك فهو من صنع النسابين .

وأمة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن
كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ، يلتقي نسبها مع نسب أبيه صلى الله عليه وسلم
عند جدّها الأعلى : كلاب بن مرة .

ولقد مات أبوه عبد الله بالمدينة وأمه حامل به لشهرين ، وكان قد خرج
في تجارة ففرض فخرج بالمدينة يسلم بأخواله من بني النجار ، فأقام عندهم شهراً
مات بعده عن خمسة وعشرين عاماً .

وكان مولده ، صلى الله عليه وسلم ، يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول -
٢٠ من أبريل سنة ٥١ - على الصحيح ، بالدار التي عند الصفا ، والتي كانت بعد
أحمد بن يوسف ، أخي العجاج ، وقد بنتها زبيدة مسجداً حين حجبت .

وكانت قابله التي نزل على يديها : الشفاء ، أم عبدالرحمن بن عوف .
وأرضعتها امرأة من بني سعد بن بكر بن هوازن ، يقال لها : حليلة بنت أبي ذؤيب .

واسم أبيه في الرضاة : الحارث بن عبد العزى ، من بنى سعد بن بكر
ابن هوازن .

وكان إخوته في الرضاة : عبد الله بن الحارث ، وأنيصة بنت الحارث ، والشيماء
حذافة بنت الحارث .

وحين بلغ محمد ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء - موضع
بين مكة والمدينة ، وعمرها ثلاثون عاماً .

وبعد وفاة آمنة بسنتين توفي جده عبد المطلب ، وكان بكفله ، وعمر
محمد عندها ثمان سنين .

فكان محمد بعد وفاة جده عبد المطلب مع عمه أبي طالب ، وأبو طالب وعبد الله -
أبو رسول الله - أخوان لأب وأم ، وأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن
هران بن مخزوم .

وحين بلغ محمد أربعة عشر عاماً - أو خمسة عشر - كانت حرب الفجار
بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان . ولقد شهد محمد بعض
أيامها ، أخرجته أمه معهم ينبل عليهم ، أي يرد عليهم نبل عدوم إذا
رموهم به .

ولما بلغ محمد خمسة وعشرين عاماً تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن
عبد المزى بن قصي بن كلاب بن مرة ، يلتقى نسبها مع نسبه في جدتها
الأعلى قصي ، كما يلتقى نسبها مع نسب أمه آمنة في كلاب بن مرة .

وكانت خديجة أول امرأة تزوجها محمد ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت ،
وكانت سنها حين بنى بها محمد أربعين عاماً . ولقد تزوجها قبل محمد رجلان
هما : أبو هالة بن زرارة التميمي ، وعتيق بن عائذ المخزومي .

وقد عرفت خديجة محمداً حين خرج في تجارة لها إلى الشام في رحلته الثانية مع غلامها ميسرة ، وكانت رحلته الأولى إلى الشام حين خرج مع عمه أبي طالب ، وسنه اثنا عشر عاماً ، حدثها ميسرة عن صدقه وأمانته فرغبت فيه وسعت إلى الزواج منه .

وولدت خديجة لمحمد أولاده كلهم إلا إبراهيم ، فإنه من مارية القبطية ، فولدت له القاسم ، وبه كان يكنى ، والطيب « الطاهر » ، ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

ومات القاسم والطيب في الجاهلية . وأدركت بناته كلهن الإسلام وأعلن .
وحين بلغ محمد خمسة وثلاثين أخذت قريش في تجديد بناء الكعبة ، وكانت قد أصابها حريق ، ومن بعد الحريق حيل . وحين بلغت قريش موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يكون له الشرف في وضعه موضعه ، وكاد الخلاف يشد بينهم حرباً ، ثم اتفروا إلى أن يكون القميص بينهم إلى أول داخل عليهم من باب بني شيبه . وكان محمد أول داخل عليهم من هذا الباب ، فارتضوه حكماً فيما شجر بينهم ، فبسط محمد رداءه ووضع الحجر عليه ، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطراف الرداء ، حتى إذا ما استقروا رفع الحجر بيديه ووضع مكانه .

ولقد عرفت قريش محمداً صبيّاً فلم تعهد عليه ما تعهد مثله على الصبيان من إسفاف أو تدن ، وعرفته بانفاً فلم تعد له نزوة أو زلة ، ثم عرفته زوجاً في سن مبكرة فعرفته أظهر الأزواج ذبلاً .

وهو منذ أن درج بين أهله ووعى كان الصادق الأمين ، لا يتول إلا صدقاً ، ولا يعطى أو يأخذ إلا أميناً حين يعطى ، أميناً حين يأخذ ، أميناً

حين ينتشر وبشره . والنفس إن ملكت الصدق والأمانة ملكت ما بعدها
من كل ما هو محمود من الصفات ، وهكذا كان محمد قبل أن يبعثه الله رسولا .
ولقد حُبب إلى محمد التعمت والتعنف شأن الصادقين من متاع الحياة ،
العارفين عن لينها المنفى إلى الاستقامة إليها ، فكان يعتكف في حراء - جبل
من جبال مكة على ثلاثة أميال منها - شهراً من كل سنة ، يجعله خالصاً لعبادة
ربه على ما رسم إبراهيم ، ومن بعده إسماعيل عليهما السلام .

وبقى محمد على هذا الذي أخذ به نفسه يختلف إلى غار حراء شهراً من كل
عام ، إلى أن كانت السنة التي اختاره الله فيها رسولا لرسالته ، وكان عندها
في الأربعين من عمره .

وهكذا كان محمد حين دبت قدماه على أرض مكة من الجزيرة العربية
محط الأبصار ، وشغل الأفكار ، حاطه ربه باليمن وليداً ، إيداناً منه لعباده بما
سيؤهله له ، وصانه عن الهوى العابت صبيحاً ليرتفع به عما يتدنى فيه غيره كي يمهّد
لإجلاله ، وأجرى الصدق على لسانه ، وبسط بالأمانة يديه ، وملاً بالرحمة قلبه ،
وبالحسكة رأسه ، ليرى الناس فيه ما يفتقدون من صفات فيلتفتوا حوله اليوم
نمهداً لالتفافهم حوله في غد .

وحين استوى محمد شاباً ، واستوت باستوائه صفات الكمال كلها فيه ، رأى
الناس أنهم بين يدي عجب استعصى على عامتهم فأويله ، ولم يستمع على
خاصتهم من أولى الكتاب ، فعرفوا أنه النبي المرتقب .

ومضى محمد في طريقه المرسوم بهيته الله لتلقى ما سوف يوحى به إليه .

فقد لا يرى في منامه رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وغدت الخلوة

معبية إلى نفسه ، يقف في غار حراء الليالي ذوات العدد خالياً لعبادته ،
ولا يعود إلى أهله إلا لكي يتزود لمثلها .

وفيما كان معصداً في غار حراء خالياً يتعنت تمثل له جبريل يحمل إليه
الوحي من ربه ، ويؤذنه بدعوة قومه إلى الله الواحد الأحد وترك عبادة
الأوثان .

وكان ابتداء الوحي في شهر رمضان وفي السابع عشر منه ، يشير إلى قوله
تعالى في سورة البقرة: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ . ويشير إلى الثانية
قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ﴾ وكان التقاء الجمعين - أعني المسلمين والمشركين
يوم بدر - في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .

وكان أول ما نزل عليه من الوحي : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ .
ولقد تلقاه الرسول مجهوداً وانصرف به مشدوهاً ، ووقف في مكانه بعد خروجه
من حراء ناظراً في آفاق السماء ، لا يتقدم أمامه ولا يرجع إلى الوراء ، إلى أن
ارتدت إليه نفسه وانتهى إلى خديجة وهو يحس هزة للفرور .

وفتر الوحي فترة بلغت أعواماً ثلاثة ، كانت لتلك النفس البشرية المختارة
بمثابة الفترة التي سبقت الرحي وحُجِّب فيها إلى الرسول أن يتعنت ، فلقد هيا
هذا التعنت نفس محمد لهذا التلغى وقارب بها منه ، وإذا هي على الرغم من
هذا التقريب وذلك الإعداد تهز لجلال مآثرى وتسمع ، وإذا هي بهذا قد
انتهت من مرحلة لتبدأ في مرحلة ، وإذا المرحلة الجديدة في حاجة إلى زاد
كما كانت المرحلة الأولى في حاجة إلى زاد ، وإذا هذا الزاد الجديد فترة يخلو
فيها محمد إلى نفسه بما شاهد يتمثله مرة ومرة لتراح إليه روجه ، وليأنس به

روعه ، حتى إذا ما تلقاه بعدها تلقاه منهيئاً له . وهكذا كانت تلك الفترة خلوة
ثانية، بعد تلك الخلووة الأولى في غار حراء ، هيأت الأولى نفسه لتلقى الوحي
وهيأت الثانية نفسه للأنس بالوحي .

وحركت فترة الوحي السنة أهل مكة بالقول فاسترحلوا يقولون : ودعه ربه
وقلاه . يردد لها لسان الضلال شماتة بلسان الحق ، ويحاول العقل الغافل أن يخدم
بها العقل الواعي ليصرفه عن الدعوة الجديدة .

وانضمت هذه التي خلا بها الخصوم من شماتة إلى تلك التي خلا بها
الرسول من لفة ، فإذا هو بعد هذه وتلك أحزن ما يكون على انتطاع الوحي ،
وأشوق ما يكون إلى اتصاله .

ومع هذا التهيؤ الكامل لهذه النفس البشرية المختارة انصل الوحي ونزل
على محمد قوله تعالى : ﴿ وَالضُّعَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾
يرد على المتقولين . ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ بأمره
أن يكون رسول ربه إلى الناس بدعوهم إليه وإلى الحق ، ويصرفهم عن الأوثان
وعن الباطل .

• • •

وأخذ محمد يدعو إلى ربه، وإلى هذا الدين الجديد الذي اصطفاه ربه له، في
بيئة قد عرفت لها إيغالها في الباطل واستكانتها إليه ، وبين قوم أشربوا
الضلال فعاندوا عليه ، فانتضت الحكمة الحكيمة أن تأخذ الدعوة طريقها سرّاً
لاعلانية، وخفية لاجهرراً ، تضم إليها الأنس بها وتجمع عليها من تفتح قلبه لها .

وكان أقرب الناس إلى الرسول من الرجال أبو بكر ، وكان له صديقاً
والنكا ، ومن الصبيان علي بن أبي طالب ، في ظله نشأ وبين يديه شب ، ومن

النساء زوجته خديجة ، وكانت كالتة في خلواته وملأذه في فزعاته ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، وكان حيدر رسول الله ، وهبته خديجة له قبل النبوة ، وكان صهره إذ ذاك ثمانى سنين ، فأعتقه رسول الله وتبناه ، ومن العبيد بلال بن رباح الحبشى ، وكان قريباً من أبى بكر غير بعيد عما يرى . فكان هؤلاء جميعاً أول من آمنوا بمحمد وأول من صدقوه . وبقى الرسول بمن آمن معه يدعو الناس خفية ، وما سلم الرسول وما سلم من معه - على الرغم من عدم مجاهرتهم بالدعوة - من أذى كبير حمله راضين ، حتى إذا ما أنصحت الدعوة عن نفسها شيئاً ، وغدت حديث البيئة ، لم يكن بد من أن يقف محمد ومن حوله القليلون المستضعفون للناس جهراً يدعوون ، بعد أن قضوا نحواً من أعوام ثلاثة يسرون .

وكان الصدام بين الحق والباطل . وما جبلت النفوس الغافلة أن تخرج من غفلتها في يسر ، ولا سيما إذا كانت تلك الغفلة تظلمها عقيدة وبحميتها تقليد ، وكانت تلك العقيدة وذلك التقليد إرث قرون .

ومشت قريش إلى الرسول تساومه على أن يطلب ما يشاء من ملك أو سيادة أو مال على أن يترك ما يدعو إليه ، فسادوا بغير ما كانوا يأملون ، ولقد كانت لهم فيها عظة لو كانوا يتدبرون .

من أجل هذا عنف هذا الصدام وقسا ، وذاق دعاة الحق من عنفه ومن فسوته الشيء الكثير ، وكان ما ذاقوا ابتلاء لهذا الحق وابتلاء لهم ، إذ لو كان هو زيقاً ما ضمهم إليه على عسر ، ولو كانوا هم على غير اليقين به ما انضموا إليه حاملين ما يمر .

ومضى محمد يشق الطريق بمن تبعه وسط هرجاء عاصفة ، يدبر للدعوة

بتدبير السماء، وكان حين يصبر على الأذى يصيبه بأسى للأذى يصيب أصحابه .

فلقد كان رسولا، وكان في عافية بمكانه من رسالته، لا يخشى أن يزول إيمانه بها ترغيب أو ترهيب، وكان أتباعه على حسن إيمانهم وعظيم صبرهم بشراً يجوز عليهم ما يجوز على البشر من الوعد والإبعاد، ولقد وفق أكثرهم لاعتقده فلم يصرفه إيذاء كما لم يحوله إعطاء، وهلك نفر منهم تحت سوط البلاء، كالأن نفر منهم فأعطوا بالسنتهم وما نظنهم أعطوا بقلوبهم .

فلقد تتبع مشركو مكة من يسلون بألوان الأذى كلها لا يقصدون، فأذوم في أموالهم وأذوم في أهلهم وأذوم في أجسادهم، وعز على رسول الله ما يلتقى أصحابه، وكانوا كلهم قد تخلت قبائلهم من حمايتهم، فمن كان منهم ذا بأس هابوه، ومن كان منهم مستضعفاً حملوا عليه .

وهنا يرى الرسول رأياً، ويراه معه الذين استضعفوا أمراً، لقد رأى الرسول هؤلاء أن يهاجروا إلى الحبشة بعد أن سمع عن النجاشي عدله وإنصافه، فخرج إلى الحبشة نفر من المسلمين، على ما في هذه الرحلة من ألم الفراق ووعناء الطريق وعذاب الغربة .

ولكن قريشاً لم ترض أسلم أن يقر آمناً، وإن كان على أرض غير أرضهم، فعين بلنهم أن المسلمين أصابوا بالحبشة داراً وقراراً بمشوا في إثرهم رجلين من من رجالهم وحملوها هدايا للنجاشي وبطارقته، وكاد الرجلان أن يكدوا للمسلمين عند النجاشي، ولكن النجاشي حين استمع لهما واستمع للمسلمين رد الرجائين خائبين وترك المسلمين آمنين .

ويسلم حمزة بن عبد المطلب، ويسلم عمر بن الخطاب، وكانا رجلى بأس

ففرح لإسلامهم المسلمون وأسى لإسلامهم المشركون ، لما رأوه من انتشار الإسلام على الرغم مما يفعلون . وخال المشركون أنهم لم يبلغوا في الأذى ما يريدون فاثمروا بينهم أن يعمروا في الإيذاء إلى حد لا يقوى المسلمون له ، فكتبوا فيما بينهم كتاباً تعاقدوا فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على أن يقطعوا ما بينهم وبينهم فلا تكون ثمة صلوات من زواج أو بيع أو شراء ، غير أن ذلك لم يجد شيئاً .

وفقد الرسول نصيرين عزيزين إلى نفسه كريمين عليه ، الواحد بعد الآخر ، قبل أن يهاجر إلى المدينة بنحو من ثلاث سنين ، فلقد فقد همه أبا طالب ، وكان نعم العون له ، كفه بعد وفاة جده عبد المطلب ، ووقف إلى جانبه منذ بعث بنصره ويرد عنه كيد المشركين ، وكان للمشركين جهابون أبا طالب فلم يقدموا على كثير مما كانوا يريدون ، وبعد أيام ثلاثة فقد زوجته خديجة بعد زواج دام أربعة وعشرين سنة وستة أشهر ، ولقد علت موقف خديجة من الرسول قبل أن يبعث وبعد أن بعث ، وكانت أول مسلمة وأول مناصرة ، رمت الرسول وقامت في موته أيام لاعون .

وكما حزن المشركون لإسلام حمزة وهر فرحوا لموت أبي طالب وخديجة ، واشتطوا يعمنون في الأذى ، غير أن الرسول ما أبه لأذى المشركين وما قعد عن لقاء الناس في الأسواق يدعو لمقيدته .

وكان الإسراء الذي تم ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم المراج إلى السماء . وفي تلك الليلة فرضت الصلاة على المسلمين ، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة .

ولسنا نحب أن نخوض فيما خاض فيه المجتهدون من قبل حول الإسراء

وللعراج ، أكان بالجسد أم كان بالروح ، واختلافهم دليل على أنه ليس نعمة قول قاطع ، وعندى أن الخير في مثل هذه تقبل الصورة على إجمالها ، فنحن ملزمون بالتصديق بالإسراء والعراج وأنها وقعا حقاً ، ولكنا غير ملزمين أن نؤمن بالصورة التي وقعا بها ، مادامنا لا نجد أثراً يملئ إملاء صريحاً ، ونعمة حقائق دينية منها هذه ، يجب أن نتف عند مدلولها ولا نقاش صورها ، وأى شيء يفتى للؤمن من الرسول في هذه إلا أن يصدق بأنه أسرى به ، وأنه مع هذا الإسراء فرضت الصلاة ، وأين نفوسنا وما تملك من نفوس الرسل وما تملك ، وأين بصائرنا وما تحوز من بصائر الرسل وما تحوز ، ثم أين مكان المنور في حمة المادة من مكان السابح في شفافية المعنويات .

لقد أسرى بالرسول ، وخرج به ، ماني ذلك شك ، ولقد فرضت الصلاة في تلك الليلة ، ماني ذلك شك ، بهذا حدثنا الرسول ونطق القرآن . ولو شاء تفصيلاً زادنا ، ولكنها أعلينا ما نعى وما يهيننا وحبها عنا ما يند ذلك .

ولعل نظرة المشركين للإسراء يناقشون صورته التي وقع بها هي التي حفزت للذين بعد إلى أن يكفوا أنفسهم في هذا الخلاف ، وليست صورة الوحي تبعد كثيراً عن صورة الإسراء ، ومن آمن بالأولى يؤمن بالثانية ، فكما اتصل محمد بربه في تلك اتصل محمد بربه في هذه ، وكما تلقى محمد عن ربه في الأولى تلقى محمد عن ربه في الثانية .

• • •

وحين ازداد المشركون إبداء ازداد الرسول تعرضاً لقبائل يعرض عليها ما نزل عليه من السماء ، وبينما هو عند العقبة قريباً من مكة لقي نقرأ من

الخزرج فعرض عليهم الإسلام فأجابوه وأسلموا ورجعوا إلى قومهم في المدينة
بالإسلام يدعونهم إليه .

حتى إذا كان العام المقبل لقي الرسول من الأنصار رجالاً آخرين فبايعوه
على الإيمان به ، وفي الثانية الثانية كان الاتفاق بين الأنصار والرسول على
خروج الرسول إلى المدينة ، واستوثق الرسول واستوثق له عهد العباس ، وكان
حاضراً في هذا الاجتماع ، وكانت الهجرة إلى المدينة ، خرج إليها المسلمون وأقام
الرسول بمكة يدبر لأمر خروجه .

وعلى الرغم من حيلة قريش خرج الرسول ومعه أبو بكر وركبا إلى
المدينة ، وخرجت قريش في إثرهما تطلبهما ، فقوت الله عليهم ما يطلبون .

وكان خروج الرسول من مكة يوم الخميس في اليوم الأول من ربيع
الأول ، وكان بلوغه المدينة لاثني عشرة ليلة خلت منه ، وكان ذلك ظهر
يوم اثنين ، وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وخمسين سنة .

ولقد علم المسلمون أول ما علموا أن هذا البلاء زاد المسلم إلى الجنة ، وعصته
يوم القيامة ، وما على الرسول إلا البيان ، وأن عليهم التمسك لهذا البيان ، ونصر
الله صنو جهاد العبد وكفاحه وصبره ، على هذا رسالات السماء ، وعلى هذا
رسل السماء إلى العباد ، يهبط الهدى حين تنتشر الظلمة ، ويتلقف الهدى رسول
مختار ، يصطفيه الله صادقاً جليلاً صبوراً ، فإذا الناس معه على الطريق لهم مثل
همه ، نصرأ نصراً للحق ينصرونه بصدقهم وجلدهم وصبرهم ، لا يحرصون على الحياة ،
ولا يفريهم متاعها ، وإذا هم حين يؤيدون رسالة السماء ، قدأيدتهم رسالة السماء ، وإذا
الدنيا معهم على هذا الحق ، وإذا هم سادة الدنيا بهذا الحق .

على هذا عرف المسلمون محمداً ، وبهذا قدم محمد نفسه للمسلمين ، لم يطمعوا

في أن تكشف السماء عنهم ضرراً لم يشعروا هم لكشفه ، ولا في أن تزبح عنهم
السماء بلاء لم يتهيئوا هم لإزاحتها ، كما لم يجعلوا كلمة التوحيد وحدها سلاحهم
على أعدائهم وعدتهم التي بها يقوون ، بل جعلوا هذه الكلمة هي اللبنة الأولى
في سرح إيمانهم ، وانضم بها بعضهم إلى بعض يتناصرون ، والرسول من
بينهم يلى عليهم ويشير .

على هذا عاهد المسلمون الله ، وعلى هذا عاهد المسلمون الرسول ، وعاهدوا
الله على أن ينصروا رسوله ، وعاهدوا الرسول على أن ينصروا رسالته ، ثم
عاهدوا أنفسهم على البذل للتمكين للرسالة ، لا يسألون الله نصراً قبل أن يسألوا
أنفسهم بذلاً .

وعلى هذا عاش منهم في مكة من أنس في نفسه قوة على احتمال الأذى
ولم يخش أن يفتن في دينه ، وهاجر منهم إلى الحبشة من لم يقو على احتمال
الأذى وخاف أن يفتن في دينه ، حتى إذا كانت الهجرة إلى المدينة لم ينظر
المهاجرون إلى وطن عزيز عليهم ، وأهل قريين إلى نفوسهم ، ومال هو قوام
حياتهم ، وإنما نظروا إلى عقيدة هي لهم الحياة كلها ووطناً وأهلاً ومالاً ، ومرعان
ما لحق بهم الرسول إلى المدينة ليبدأ بالمهاجرين معه من مكة وبالأنصار
أهل المدينة مرحلة جديدة من مراحل الدعوة كانت معها حروب ، وكانت
معها تضحيات ، وكان نصر الله صنو نصر المسلمين لرسوله ولرسالته ، وكتب
الله بجهد المجاهدين هذه الدعوة أن تستقر ، وكتب لها أن تدخل بهم مكة
فأتمن ليصعوا كلمة الإثم ويردوا أهلها إلى الهدى .



وفزا رسول الله بالمسلمين سبعاً وعشرين غزوة ، كما بعث ببعوثاً وأرسل
مرايا بلغت جميعها ثمانياً وثلاثين . وكانت هذه البعوت والسرايا والغزوات

كلها دفاعاً عن النفس وزياداً عن الحق ، فلقد لبث الرسول بالمسلمين منذ بدأت الدعوة ثلاث عشرة سنة داعياً إلى الله بالمعروف ، يعرض به كما يعرض بالمسلمين ، فلا يئس ولا يئسهم هذا التعريض ، ويؤذى للمسلمون بين يديه فيدعومهم إلى الصبر ولا يهيجهم إلى الشر ، وكان ذلك يظن عن ضعف حين كان للمسلمون ثلثة فما بالك بهم بعد أن أصبحوا كثرة . وكم من أيام آب فيها الصعابة إلى الرسول وهم ما بين مشجوج ومضروب يستأذنون في أن يردوا عن أنفسهم أو يثاروا من ضاربيهم فما كان جواب الرسول لهم إلا قوله : اصبروا فإني لم أومر بقتالهم .

وكانت حكمة السماء في هذا الصبر أن يخرج الرسول بالأمة العربية من بدءه على ود لم يعكره عداؤ أو عدوان ، وكانت حكمتها في الإرخاء فيه إلى أن بلغ ثلاثة عشر عاماً أن تعذر إلى من لم يسلموا ، ولم يكونوا غير أهل وإخوان ، الإعذار كله فلا تذر في أيديهم سبباً من أسباب اللوم ، ثم كانت حكمة السماء في هذا الصبر الطويل أن تخاق في المسلمين قوة الاحتمال والجلد والأناة والترفق ، إلى غير ذلك من صفات تموز النفوس المقبلة على مهام جسيمة ، وهل كانت رسالة الإسلام إلا رسالة جسيمة ؟

حق إذا ما أعذر المسلمون إلى إخوانهم وأبلغوا في الإعذار ، وصبروا وأمعنوا في الصبر ، لم يكن بد من أن تتولى حكمة السماء هؤلاء الصابرين بتدبير يحفظ عليهم صبرهم من أن ينفد ، ويحفظ عليهم وجودهم من أن يستقل ، وترعى لهم كياناتهم من أن يهان ، وما جاءت الدعوة الجديدة إلا لتعنى هؤلاء وجودهم وكياناتهم ، لهذا أذن للرسول في أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين .

و نحن إذا تتبعنا الغزوات غزوة غزوة ، والسرايا سرية سرية ، والبعوث بعثاً بعثاً ، لا نجد لها خرجت جميعها إلا لتدفع غزواً أو لترهب حتى تمنع غزواً .
فلقد خرج حمزة على أول بعث بعد سبعة أشهر من الهجرة ليلقي عمراً لقريش فيها أبو جهل قادمة من الشام ، وكان هذا البعث الأول نذيراً لقريش على يكفها عن غيرها ، لم يقصد فيه المسلمون إلا إلى هذا ، فحين دخل بين الفريقين رجل صلح كف للمسلمون أيديهم ولم يدخلوا في قتال .

وبعد شهر من هذا البعث خرجت سرية لتلقى أبا سفيان في نفر من أصحابه ، وكانت بين الفريقين مناوشة أصيب فيها سعد بن أبي وقاص بسهم من سهام المشركين ، فكان أول سهم أصيب به مسلم في الإسلام .
ثم كانت سرية سعد بن أبي وقاص التي خرجت تعترض عمراً لقريش ، فرت العهر ولم تقع عليها السرية .

وعلى رأس اثني عشر شهراً من الهجرة خرج رسول الله وجمع من المسلمين يربدون ودان - الأبواء - حيث عبر لقريش ، وحيث بنو ضمرة الذين كانوا يعينون عليه . ورجع رسول الله بمن معه من هذه الغزوة بعد أن صالحته بنو ضمرة على ألا تعين عليه . ولقد قاتله عبر قريش في هذه الغزوة كقاتته في غزوة بعلبعا هي غزوة بواط ، وكانت بعد شهر من غزوة ودان .

وبعد غزوة بواط كانت غزوة بدر الأولى التي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدرك كرز بن جابر النهري ، وكان قد أغار على المدينة واستاق سرحاً لها . غير أن كرزاً قات جيش المسلمين فلم يدركوه .
وعلى رأس ستة عشر شهراً من الهجرة خرج حمزة بن عبد المطلب في نفر

من المسلمين يريدون عيراً لقريش قافلة من الشام ، وحين أدركوا المشيرة ، وجدوا أن العير فاتتهم .

وبعد شهر خرجت سرية في اثني عشر رجلاً تبغى نخلة ، وهو مكان بين مكة والطائف ، لترصد قريشاً وتعرف ما عندها ، غير أن تلك السرية التقى بعير لقريش فسكان بينهما عدوان تورط فيه المسلمون وعادوا بقتل وأسرى ، وكانوا في رجب ، وهو شهر حرام ، فعاتبهم الرسول ما يبغى حين عادوا إليه . ثم كانت غزوة بدر الثانية في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، وكانت بسبب تلك العير التي فاتت المسلمين في المشيرة ، وفيها كانت الحرب بين المسلمين والمشركين ، وفيها انتصف المسلمون من المشركين على الرغم من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين .

وبعد ليال سبع من مرجع المسلمين من بدر خرج الرسول يريد بني سليم ، وحين أحس بنو سليم بالمسلمين يطلبونهم ولوا هاربين . وهكذا بدأت رهبة المسلمين تدب في قلوب المشركين ، وبعد أن كانوا قلة مستضعفين غدوا كثرة مرهوبين .

وهنا أحب أن أقف بك وقفاً قصيرة ، فالحديث من هذه الغزوات والسرايا والبعوث ذو شقين ، ينتهي شقه الأول إلى ما قبل بدر الثانية ، ثم هو منذ بدر الثانية ذو شق آخر .

ولقد مر بك في هذا الشق الأول عرض لكل ما كان فيه من هذه السرايا والبعوث والغزوات ، ولقد رأيت فيها المسلمين قد شمروا لإثبات وجودهم واظهروا في مظهر القوى بعد أن عاشوا في مظهر المستضعف ، وأن ذلك كان منذ أن استقرت أقدامهم في المدينة بقليل ، وأنهم لم يلبثوا غير سبعة أشهر في المدينة كان بعدها خروجهم لهذا الإعلان عن قوتهم .

والمدعوات معجزة بقدر ما هي مستأنية ، تستأني وتعطيل الاستثناء ما وجدت في هذا الاستثناء الخبير ، وتعجل فتسرع إلى المعجزة ما وجدت في هذه المعجزة الخبير . ولقد تلبث الرسول بمن معه من المسلمين ثلاثة عشر عاماً - كما قلت لك - لا يجب أن يخرج بالمسلمين عن الصبر والاحتمال لأسباب يفتها لك ، حتى إذا ما نفذت حكمة الصبر كانت حكمة الخروج عن الصبر .

ولقد خرج المسلمون من المدينة في تلك السرايا والبعوث والغزوات ليثبتوا للملأ من حولهم أنهم خرجوا عن صبرهم ، وليثبتوا للملأ من حوالم أنهم قوة تلك أن ترهب .

ولا غرو أن نرى هذا الشق الأول كله يمتضى في التعرض لعير بعد هير ، فلقد كان هذا أسلوب ذلك العصر في الإرهاب ، وما أراد المسلمون غير أن يهابوا ويرهبوا وأن يبادلوا جيرانهم هذا الأسلوب الإرهابي .

ولم يكن فيه عليهم غضاضة ، فلقد رأيتهم في كل ما فعلوا لم يقصدوا إلا الإعلان عن خروجهم ، ولقد فانتهم العير في الكثير من خرجاتهم ، وحين التقوا بخصومهم مرة كان هذا الصلح الذي تم بين حمزة وأبي جهل في البعث الأول ، ثم لقد رأيت كيف عاتب الرسول أصعابه على ما كان منهم في نخلة . إذن لم يكن صحيحاً ما اتهم به للفرضون محمداً وأصعابه عن هذا الشق الأول من الحروب بأنها كانت للسلب ، فلقد رأيت معي كم سلب المسلمون فيها وكم عيراً لقوا . والصحيح كما ثبت لك أن هذه الحروب - إن صح أنها كانت حروباً - لم يقصد منها المسلمون إلا الذي حدثتك عنه ، وأنها لم تكن غير وثبة بعد صبر طويل ، وكانت وثبة تمسكي وثبات العصر في شيء وتخالفة في شيء ، تمسكيه في مظهرها الإرهابي وتخالفة في مظهرها السلمي .

ومنذ أن دخل المسلمون مع المشركين في غزوة بدر الثانية بدأ الشق الثاني من الحروب ، فلقد أخذت الحرب في هذا الشق الثاني مظهرها الحق ، فنسبت عليها الخصومة القائمة بين عقيدة وعقيدة ، وكان الخروج إليها خروجاً من أجل إثبات عقيدة ومحو أخرى ، واختفت تلك الأسباب الأولى التي أثارته حروب الشق الأول ، اختفى مظهر الإرهاب وما إليه من تتبع غير أو التعرض لها ، وبدأ مظهر التطاحن من أجل العقيدة ، وعلى هذا توالت غزوات الشق الثاني .

فكانت غزوة بني سليم التي حدثت عنها ، ثم غزوة بني قينقاع يهود المدينة ، وكانوا على غير صفاء مع المسلمين ، وبعد هذه الغزوة كانت غزوة السويق التي خرج فيها أبو سفيان ليثأر لبدر .

وحين رجع الرسول من غزوة السويق خرج يفرز غطفان ، وكان قد بلغه أنهم أعدوا العدة لغزوه .

ثم كانت غزوة أحد التي خرج فيها المشركون ليثأروا من المسلمين بيوم بدر ، وفيها خالف رماة المسلمين أمر الرسول وتديبه فكانت الغلبة للمشركين .

وبلغ رسول الله عقب قوله من « أحد » أن المشركين يهمون بالرجوع إلى المدينة بعد أن كسبوا شيئاً من النصر في أحد ، فخرج الرسول بأصحابه الذين كانوا معه في أحد وحدهم إلى حراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة حتى لا يطمع فيه عدوه .

وفي ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة كانت غزوة بني النضير من يهود المدينة ، وكانوا قد كادوا لرسول وهوا بقتله .

وبعد هذه الغزوة بنحو من شهرين خرج رسول الله إلى غزوة ذات الرقاع ليفزو قوماً من غطفان كان قد بلغه عنهم أنهم جمعوا جمعاً لمحاربه.

ثم كانت غزوة بدر الأخرى ، وقد كان أبو سفيان حدد مواعدها بعد بدر الثانية ، غير أنه خشي بأمن المسلمين فلم ينهض إليهم .

ولمثل ما خرج إليه الرسول يوم ذات الرقاع كان خروجه إلى دومة الجندل — مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وتبعد عن المدينة خمس عشرة ليلة — فلقد باغ الرسول أن قوماً يهتفون ، وأنهم على أن يمتدوا بعسفهم إلى المدينة ، فتخرج إليهم فإذا هم يهتفون ، فماد للمسلمون وقد غنموا شيئاً .

ولمثل هذا أيضاً كان خروج الرسول إلى المريسيم .

واتفقت كلمة اليهود مع كلمة المشركين على أن يفزو معهداً في المدينة مجتمعين ، فكانت غزوة الخندق التي حفر فيها الرسول خندقاً حول المدينة يحميها من هذا الهجوم ، ولقد كتب فيها النصر للمسلمين وارتد المشركون عن المدينة مدحورين .

ولم يكن بد من أن يأخذ المسلمون اليهود بمناصرتهم لقريش في غزوة الخندق ، فما كاد المشركون يرتدون عن المدينة حتى خرج المسلمون لغزو بني قريظة وإملاء شروطهم عليهم .

وكانت بعد هذه غزوات وسرايا ، كان الخروج إليها لمثل تلك الأسباب التي مرت بك ، إلى أن كان أمر الحديبية حين خرج رسول الله يريد مكة بعد ست سنوات من الهجرة وحيث كانت الصالحة بينه وبين قريش على أن يرجع عنهم علمهم هذا .

وفي السنة السابعة من الهجرة كانت غزوة خيبر حيث اجتمع اليهود على حرب المسلمين ثم فتحها .

وبين غزوة خيبر سنة سبع وفتح مكة سنة ثمان كانت سرايا وغزوات لرد عدوان أو كبت خصومة . وافتتح مكة عاد الإسلام إلى موطن الرسالة ومكان البيت ، وقضى على كلمة الشرك القضاء الأخير بمد أن اقتحم عليه معقله .

ولقد خاض المسلمون بعد فتح مكة حربين حملوا عليهما ، كانت أولى هاتين الحربين غزوة حنين التي تهيأت فيها موازن لحرب الرسول ، وكانت بينهم وبين المسلمين حرب طلائع كتب فيها النصر أخيراً للمسلمين . وتبعت هذه الحرب حرب ثانية كانت امتداداً للحرب الأولى وهي غزوة الطائف .

وكانت بعد غزوة الطائف سرايا من نوع ما سبق من سرايا ، إلى أن كانت غزوة تبوك سنة تسع وكانت آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وكان قد خرج فيها للقاء الروم ، ولم يكن لقاء .

وإن نظرة إلى جيش المجاهدين المسلمين عند أول بعث خرجوا له ، وعند آخر جيش تعبوا له ، ندرك كيف بدأ المسلمون وكيف انتموا ، فلقد كان بعث حزة ثلاثين راكباً وكان جيش تبوك ثلاثين ألفاً ، وكانت الخيل فيه عشرة آلاف .

وهكذا خلقت العقيدة من القلة كثرة ، ومن الضعف قوة ، وبعد أن كان للؤمنون قلة مستضعفين غدوا كثرة مرهوبين . وكان نصر الله في ظل راياتهم أنى تحقق ، ومع خطوات جيوشهم أنى تسير .

وفي ذى الحجة من السنة العاشرة للهجرة حج الرسول بالمسلمين حجة الوداع وفيها خطب الناس خطبته البلقاء التي رسم الناس فيها الحدود وذكروهم بمالم الدين ، وفيها ودع الناس وكأنه يحس أنه ملاق ربه .

وفي أواخر صفر من السنة الحادية عشر للهجرة أخذ المرض رسول الله ولبت مريضاً أياماً ، يقدرها بعضهم بسبعة أيام ويقدرها بعضهم بثلاثة عشر يوماً .

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من تلك السنة - أعني السنة الحادية عشرة للهجرة - قبض رسول الله عن ثلاث وستين سنة قربة .

وكانت أعوام بعثته ، منذ بعثه الله إلى أن قبضه إليه ، نحواً من ثلاثة وعشرين عاماً ، قضى أكثرها وما يزيد على نصفها في مكة تسانده زوجته خديجة إلى أن ماتت قبل الهجرة إلى المدينة بنحو من أعوام ثلاثة .

وفي المدينة عاش الرسول نحواً من أحد عشر عاماً وتمت فيها الغزوات كلها ، والسرايا والبعوث كلها ، وعلى الصحيح في تسع منها ، لأن أول بعث كان في السنة الثانية من الهجرة . ولقد علمت من قبل أن مجموع تلك الحروب كانت نحواً من خمس وستين ، لتعلم هنا أن نصيب كل عام من تلك الأعوام من هذه الحروب بلغ السبع ، أي أنه صلى الله عليه وسلم كان له في كل شهر تدير جيش ولقاء عدو ، هذا إلى تلك التشريعات الكثيرة التي وضعها عن أمر ربه والحدود التي بينها بوحى من ربه ، ثم ما بين هذا وذاك من لقاء وفود ولقاء أفراد ، وكتب إلى الملوك والأمراء ، وقيام بأمر المسلمين جميعاً ، وما كان أكثرها .

تري في ظل هذا كله كيف كان الرسول يفرغ لشأنه ، وكم من ساعات

يومه كانت له خالصة ، ونحن نعلم ، إلى هذا الذي ذكرناه له من واجبات ،
واجبات أخرى ، وكانت لربه يختصها بالعبادة .

هذه هي حياة أعرام تسعة رأيت كيف ملأت الواجبات الثقال صفعاتها ،
ورأيت كيف شغل فيها الرسول بتدبير شئون العقيدة شغلا متصلا .

ومن الغريب أن هذه الأعرام التسعة التي لانكاد نجد فيها بين ساعاتها
ساعة كانت للرسول خاصة ، هي الأعرام التي يتناول للفقولون فيقولون :
إن الرسول عاش فيها لمتاعه بثلاث عشرة امرأة .

وهذا التناول يرد ما قدمت ، ويرده أن الرسول في شبابه لم تعهد عليه
ربية ، فقد بنى على خديجة وهو في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين ، وبقي
معها إلى أن توفاه الله قبل الهجرة بأعوام ثلاثة كما مر بك ، وكان عمره
إذ ذاك خمسين سنة .

وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة هي سودة بنت زمعة ،
وكانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو ، وكان السكران هو وزوجته من
مهاجرة الحبشة ، وحين رجع بزوجه من الحبشة إلى مكة مات بها ولم يكن له
عقب يرعى سودة فتزوجها الرسول .

ولم يتزوج الرسول بكراً غير عائشة بنت أبي بكر وبني بها بالمدينة ،
كما تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت تحت خنيس بن حذافة
السهمي ، ثم مات خنيس فعرضها عمر على أبي بكر فلم يجب ، ثم عرضها على
عثمان فسكت ، ورأى للرسول الأسي في وجه عمر فضم حفصة إليه .

وضم إليه الرسول زينب بنت خزيمة بعد أن قتل عنها زوجها عبد الله
ابن جعش يوم أحد .

وضم إليه بنت عمته زينب بنت جحش ، وكانت من قبله زوجة لمولاه
زيد بن حارثة .

وبعد زينب ضم إليه الرسول أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وكانت
هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة بعد أن أسلم ، ثم تنصر
زوجها هناك في الحبشة ومات بها ، وأبت هي أن تنصر وبقيت على إسلامها
فتزوجها الرسول وهي بالحبشة .

وضم إليه الرسول أم سلمة هند بنت أبي أمية ، وكانت هي الأخرى
من مهاجرات الحبشة توفي عنها زوجها وخلف لها ولدين وبنتين .

وضم إليه الرسول خالة خالد بن الوليد ميمونة بنت الحارث ، وكانت
قبله عند أبي رهم العامري .

وضم إليه رسول الله صفية بنت حيي بن أخطب ، وكانت زوجة لسلام
ابن مشكم اليهودي ، ثم لسكناة بن أبي الحقيق ، فقتل عنها كفاة يوم خيبر .
وضم إليه رسول الله جويرة بنت الحارث بن أبي ضرار ، وكانت في سبي
غزوة المصطلق ، وما إن علم المسلمون بزواج الرسول منها حتى أطلقوا ماني أيديهم
من بني المصطلق ، وقد بلغ عدد من أعتقوا مائة .

وأنت ترى أن اثنتين منهن ، وهما عائشة وحفصة ، كانتا ابنتي صحابيين
جليلين هما أبو بكر وعمر ، وأن ثلاثاً منهن كن من المهاجرات إلى الحبشة
اللاتي فقدن أزواجهن ، وهن : سودة ، ورملة ، وهند ، وأن واحدة منهن ،
وهي زينب بنت خزيمة ، قتل عنها زوجها يوم أحد ، وأن واحدة منهن ،
وهي ميمونة بنت الحارث كانت خالة لخالد بن الوليد الفارس المعروف ،
وكان بناء الرسول بها مع دخول خالد في الإسلام ، وأن واحدة منهن ،

وهي جويرة بنت الحارث ، قرب الرسول بيتانه بها ما بين للصطلق والمسلمين .
وأن واحدة منهم ، وهي بنت عمه زينب بنت جحش ، كان بناؤه بها
تشرية في الإسلام في إبطال جمل الموال لهم حكم الأبناء .

وأن واحدة منهم ، وهي خولة بنت حكيم ، كانت قد وهبت نفسها للذي .
وأما عن صفية بنت حيي اليهودية فلقد كادت تثير لجأجا بين المسلمين
حين وقعت في نصيب دحية بن خليفة الكلبي ، فحسم الرسول هذا الخلاف
بيتانه بها ، وكانت من بيت رياصة في اليهود .

أرأيت إلى الرسول ومن بني بهن وكيف بني بهن ، ثم أرأيت إلى أن
هذا كله كان في تلك الأعرام التي أحيطت بالشدائد وكان عبء تدبير
هذا كله على عاتقه . ثم استمع لتعلم كيف كان الرسول في حياته ، لقد كان
زاهداً في دنياه غليظاً على نفسه في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ، وكثيراً
ما كان يجتري بالخبز والماء .

وكم كانت الشهور تمضي دون أن توقد في داره نار لظى ، وكثيراً
ما رثى وهو يرفو ثوبه بيده ، وكان صلى الله عليه وسلم يرقد ليس بينه وبين
الأرض إلا حصير قد أثر بجانبه ، وتحت رأسه وسادة من آدم محشوة
ليفاً ، وكانت بيوته من لبن ، والحجر من جريد النخل على أبوابها المسوح
من شعر أسود .

ولقد دخلت امرأة من الأنصار على عائشة فرأت فراش رسول الله صلى الله
عليه وسلم عبادة مثنية فانطلقت فبعثت إليها بفراش حشوه صوف ، فدخل
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا؟ فأخبرته ، فأمرها بردها ثلاثاً فلم
تفعل ، فقال لها صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لو شئت لأجري الله معي جبال الذهب

والفضة ، ثم هو بعد هذا كان القوام الصوام المتبتل . فأية دنيا تلك التي أرادها الرسول بهذا الزواج ؟ وإن حياة الرسول الأولى لتمتلي عليه حياته الثانية ، ولقد كان الرسول عفاً في شبابه ، عفاً في زواجه من خديجة ، أثقل أعباء مع عفته في حياته الأخيرة .

صنعات من جهاد طويل متصل أخرج بها محمد الجزيرة العربية من عمارة الضلال إلى نور الحقيقة ، ومن رجس الشرك إلى طهر الإيمان ، ومن آثام الباطل إلى صالحات الأعمال .

فإذا الجزيرة العربية على دين الإسلام تؤمن برب واحد حق بعد أن كانت موزعة بين أرباب كثيرة زائفة ، برأت من الأوثان والأصنام وكانت آفة للعقل ، واطرحت وأد البنات وكانت سبة الأبد ، وعفت عن الآثام وكانت فارقة فيها للأذقان ، واستقامت على الطريق لتحمل راية الدعوة تبشر بها الآفاق فإذا هي بعد قایل قد أظلت برايتها بقاعاً لا تحصى وخالفاً لا يعد .

تلك حياة الرسول أجهلت لك مآثرها وماتم منها ، وما تم هذا كله بعيداً عن تدبير السماء ، وما تم هذا كله إلا عن وحي متصل يلى على الرسول بكرة وعشياً فيمليه هو على قومه .



وهذا الوحي الذي تلقاه الرسول من ربه وتلقاه المسلمون عن رسولهم إلى أن قبضه الله إليه ، هو هذا الكتاب الكريم الذي جمع للمسلمين دينهم ، وجمعهم على دينهم ، وحفظ لهم حياتهم أمة مسلمة ، وحفظهم على حياتهم أخوة مسلمين .

وما من شك في أن هذا الكتاب الكريم يحمل معجزة ثانوية خالدة
بخلوده ، فلقد كانت معجزته الأولى في بيانه الذي خرست معه الألسنة فما
تنطق ، وفي فصاحته التي شذت معها الأفئدة فأتى ، وسوف يظل هذا البيان
وتلك الفصاحة حجة على العالمين .

تلك كانت معجزة القرآن الأولى يوم طالع الرسول العرب ، وهم ما هم
بيانا وفصاحة ، فنحروا لها ساجدين وأذعنوا لها مسلمين .

أما عن معجزته الثانية فهي في حمايته أمة من أن تشيع في أمم ، ولغة من
أن تذوب في لغات .

فما نعرف شيئا حتى اللغة العربية من الضياع - مع تلك الأزمات العاصفة
التي مرت بها والتي كم أودت مثيلات لها من لغات وبلبات من السنة - غير هذا
الكتاب الكريم ، أبعدت ما أبعدت الشعوب العربية عن الكلام بلغتها
العربية وكان هو سردها إليها ، كلما أوشكت أن تنفصم صلتها بها وربطها
هو بها .

وهكذا عاشت الأمة العربية بعيدة بكل ما في يديها عن لغتها قريبة
بهذا الكتاب وحده إلى لغتها .

وحيث حتى هذا الكتاب اللغة لأهلها حتى هؤلاء من أن يتفرقوا أيدي
صبا ، فلو أن الزمن بلبيل ألسنتهم أمما مختلفة ذات ألسنة مختلفة ما وجدت بينهم
هذه الصلة الضامة من اجتماع على تراث خالد ، كان هو بمثابة الأب الروحي
الذي يصل بين الأرواح والنفوس والقلوب .

ويكذبك من ينكر عليك أثر اللفظ في التقريب بين شعوب مختلفة
الجنس ، فإياك بشعوب يكاد يجمعها جنس واحد .

وكما حفظ هذا الكتاب الكريم هذا المقوم للأمة العربية ، وهو اللفظ ، حفظ
مقوماً آخر هو الدين ، فلقد عاش هذا الكتاب على الألسنة وفي القلوب فوق
ما هو مكتوب يسمع ويقل في أوقات متلاحقة متصلة ، لا يكاد الناس ينسون حتى
يتذكروا ، ولا يكادون يبعدون حتى يقربوا ، فإذا هم على دينهم كما هم على
لغتهم ، وإذا هذه اللفظ وذاك الدين يسكان الأمة العربية فلا تفضل عنها لغتها
ولا تفضل هي عن دينها .

ولا غرو أن كانت للمسلمين به عنايات متصلة طالت وتنوعت ، وهذا
أوان ضم هذا كله في سرد مختصر جامع يعرف به المسلم ما يحصل بقرآنه
في سر يسر ، دون أن يفوته شيء أو يبهم عليه أمر .

الباب الثاني
تاريخ القرآن الكريم

١ - أمية الرسول

أقد كان محمد صلوات الله عليه أمياً لا يعرف أن يقرأ ولا يعرف أن يكتب ، ما في ذلك شك ، بذلك على ذلك اتخذهم بعد أن أوحى إليه كتاباً يكتبون عنه الوحي ، منهم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وأبي بن كعب بن قيس ، وزيد بن ثابت ، وسماوية بن أبي سنيان ، وعبد بن مسleme ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وأبان بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد بن سعيد ، وثابت بن قيس ، وحنظلة بن الربيع ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الأرقم ، والعملاء بن عتبة ، وللخيرة بن شعبة ، وشرحبيل بن حسة . وكان أكثرهم كتابة عنه : زيد بن ثابت ، ومعاوية^(١) .

كما بدت على ذلك أيضاً ما ذكره المؤرخون عند الكلام على غزوة « أحد » أن العباس وهو بمكة كتب إلى النبي كتاباً يخبره فيه بتجمع فريش وخروجهم ، وأن العباس أرسل هذا الكتاب مع رجل من بني غفار ، وأن النبي حين جاءه الفخاري يكتب العباس أستدعي أبي بن كعب - وكان كاتبه - ودفع إليه الكتاب يقرأه عليه ، وحين أنهى « أبي » من قراءة الكتاب أستكتمه النبي .

ولو كان النبي غير أمي لسكنى نفسه دعوة « أبي » لقراءة كتاب العباس في أمر ذي بال . وثمة ثلاثة يذكرها المؤرخون أيضاً عند قدوم وفد ثقيف على النبي ، فلقد سألوا النبي حين أسلموا أن يكتب لهم كتاباً فيه شروط ، فقال لهم : أكتبوا ما بدا لكم ثم أتعوني به . فسألوه في كتابهم أن يحل لهم الربا والزنا . فأبى علي بن أبي طالب أن يكتب لهم . فسألوا خالد بن سعيد بن العاص أن يكتب لهم . فقال له علي : تدرى ما تكتب ؟ قال : أكتب ما قالوا ورسول الله أولى بأمره . فذهبوا بالكتاب إلى رسول الله فقال للفخاري : اقرأ : فلما أنهى إلى الربا ، قال له الرسول : ضع يدي عليها . فوضع يده . فقال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله واذروا ما بقى من الربا^(٢) » ثم تحاها . فلما بلغ الزنا وضع يده ثم قال : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا^(٣) » ثم تحاها ، وأمر بكتابتها أن ينسخ لنا^(٤) .

(١) تاريخ دمشق

(٢) الإسراء : ٣٤

(٣) البقرة : ٢٧٨

(٤) أسد الغابة ترجمة (نجم بن جراحه)

واقعد عثر الباحثون على الكتابين المرسلين من النبي إلى القوقس وإلى المنذر بن ساري ، والكتيب الأول محفوظ في دار الآثار النبوية في الآستانة ، وكان قد عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم ، والكتاب الثاني محفوظ بمكتبة فيينا .

ومن قبل هذه الأدلة بقول تعالى في الرسول : (الَّذِينَ يَدْعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)^(١) . ويقول تعالى في الرسول أيضاً : (وَمَا كُنْتُمْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ)^(٢) .

ولم تسكن البيئة العربية على هذا بيئة كاتبة قارئة ، بل كان ذلك فيها شيئاً بعد وبعيد ، وكان حظ المدينة من ذلك دون حظ مكة ، ولم يكن في المدينة حين هاجر إليها الرسول غير بضعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة ، منهم : سميد بن زبارة ، والمنذر بن عمر ، وأبي بن وهب ، وزيد بن ثابت ، ورافع ابن مالك ، وأوس بن خولي . وقد أحس الرسول ذلك بعد هجرته إلى المدينة ، فكان أول ما فعله بعد انتصاره في بدره وأسرته من أسر من رجال قريش القارئين الكتابيين ، أن جعل فدية هؤلاء أن يؤتم كل رجل منهم عشرة من صبيان المسلمين ، وبهذا بدأت الكتابة تروح سوقها في المدينة .

حتى إذا كان عهد عمر بن الخطاب أمر بجمع الصبيان في المكتب ، وأمر عبد عامر بن عبد الغزالي أن يمهدهم بالتعليم ، وجعل له رزقاً على ذلك بتقاضاه من بيت المال .

وكان المعلم يجلس للصبيان بعد صلاة الصبح إلى أن يرتفع الضحى ، ومن بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر .

وحيث خرج عمر إلى الشام وغاب عن المدينة شهراً أستوحش إليه الناس ، وخرج صبيان المكتب للقاءه على مسيرة يوم من المدينة ، وكان ذلك يوم الخميس ، ورجعوا معه إلى المدينة يوم الجمعة ، وقد انقطعوا عن المكتب يومين أجازهما لم عمر ، وكانت بعد ذلك عادة متبعة^(٣) .

وحيث اختار الله لرسالة « محمد » اختار فيه صفات حسية وصفات معنوية . أمدتها به وطبعه عليهما ، فوهبه من الأولى نفساً قوية ، وروحاً عالية ، وقنباً كبيراً ، وذهناً وقادراً ، وبصيرة غاذة ، ولساناً مبيناً ،

(٢) المنكبات : ٤٨

(١) الأعراف : ١٥٦

(٣) عنوان البيان - التواضع الذواني على رسالة أبي زيدون البهرواني .

وفكراً واعياً ، وروحه من الثانية صدق لسان ، وطهارة ذيل ، وعفة بصر ، وأمانة يد ، ورحمة قلب ، ورفقة وجدان ، ونيل عاطفة ، ومضاء عزيمة ، ورحمة للذاس جميعاً .

وكان اختيار الله له أمياً لا يقرأ ولا يكتب يُضيف إلى إذعان الناس له وإيمانهم برسالاته سبباً يُفسره تعالى في قوله : (وَمَا كُنْتُمْ تَقْرَأُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ)^(١) . ويُبيِّنُهُ صُدُورُ هَذَا الْوَحْيِ عَلَى لِسَانِهِ بِتَفْوِهِ عَلَى قَوْمِهِ بِكِرَّةٍ وَعَشْيًا ، وَلَا يُبَدِّلُ فِيهِ وَلَا تَغْيِيرًا ، وَمَا يَقْوَى عَلَى مِثْلِهَا إِلَّا مَنْ يَمْلِكُ أَسْفَارًا يَمُودُ إِلَيْهَا لِيَسْتَفْهَرُ مَا فِيهَا .

وليس في منطق الرسائل أن تكون الحجة للناس عليها ، بل لا تُطالع الذاس إلا والحجة لها عليهم ، كما لا تُطالهم إلا وفي صفحاتها الجواب على كل ما يصوره لهم تصوُّرهم ، تُحَوِّطُ السَّمَاءُ رِسَالَتَهَا بِهَذَا كَلِمَةً لِكَيْلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ، وَلِيَكُونَ مَنْطِقُ الرِّسَالَاتِ مِنْ مَنْطِقِ النَّاسِ ، لَا تَلْتَوِي عَلَيْهِمُ الرِّسَالَةُ فَيَلْتَوُوا بِهَا عَلَيْهِمْ .

ولم يكن اختيار محمد صلى الله عليه وسلم قارئاً وكتابياً شيئاً يَمُرُّ عَلَى السَّمَاءِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ شَيْئًا إِنْ تَمَّ بِهُوَ مِنْ حُجَّةِ السَّمَاءِ فِي نَفُوسِ النَّاسِ ، وَكَانُوا عِنْدَهَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَقُولُوا بِاطْلَاقٍ مَا حَرَّصَ الْقُرْآنُ عَلَى الْأَلَا يَقُولُوهُ : مِنْ أَنْ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ قَدْ أَخَذَهُ مِنْ أَسْفَارِ سَابِقَةٍ .

وهذه التي أَلَمَّتْهَا حُجَّةُ السَّمَاءِ السَّلْفَ مِنْ قَبْلِ ، فَأَذَعْنُوا لَهَا عَنْ وَعْيِ وَبَهْرِ - وَأَعْنَى بِهَا أُمِّيَّةُ الرَّسُولِ - أَرَادَ أَنْ يُبَيِّرَهَا نَفَرًا مِنْ انْتِظَافٍ مِنْ بَعْدِ لِيُخْرِجُوا عَلَى حُجَّةِ السَّمَاءِ عَنْ غَيْرِ وَعْيٍ وَلَا بَهْرِ .

غير أننا نفيد من هذا الذي يريد الخلف أن يُشيروا تأكيده المني الذي قدَّمناه من أن حجة السماء نَجِيَّةٌ أَشْمَلُ مَا تَسْكُونُ بِشُكُوكِ الْعُقُولِ ، مُحِيطَةٌ بِكُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ أَوْلَاهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ .

وقد ننسى ، مع هؤلاء المخالفين الطاعنين ، تقرير القرآن الصادق عن أمية محمد والادِّة القائمة في ظلِّ القرآن على ذلك ، قد ننسى هذا وذلك لنسائلهم : أي جديد يُقدم هذا - إن صح - وقد مضى على رسالة محمد ما يقرب من أربعة عشر قرناً خطاً فيها العلم والبحث سُطُورَاتٌ تَمْرِيَةٌ ، وَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا يَنْبَغُ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ قُرْبٍ أَوْ مِنْ بَعْدٍ ، جَهْرًا أَوْ أَسْرًا مِنْ يَرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا مُحَمَّدًا قَارِئًا كَاتِبًا ، وَأَنْ يَجْعَلُوا مِنْ هَذَا سَبَبًا إِلَى أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ أَسْفَارِ سَابِقَةٍ .

٢ - نزول الوحي :

وقد تقدم أن ابتداء نزول الوحي كان في السابع عشر من رمضان ، من السنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، وأن قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكُمْ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْبَعَثَانِ^(١)) يُشير إلى ذلك ، فاللقاء الجمين - أعني للمسلمين والمشركين ببدر - كان في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وفي مثلها من السنة الحادية والأربعين من مولده كان ابتداء نزول الفرقان ؛ ينضم إلى هذه الآية قوله تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ^(٢)) .

والصحيح أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(٣)) ، ثم كانت فترة الوحي التي أمرنا إليها من قبل والتي مكنت سنين ثلاثاً . وبعدها أخذ القرآن ينزل على الرسول مُنْجِماً ، فنزلت : ن والقلم ، ثم للزمل ، ثم : اللذر ، إلى غير ذلك مما نزل مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة ، مُنْذُ بُعث إلى أن هاجر ، وكان ذلك أنفتى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، أي منذ اليوم السابع عشر من رمضان من سنة إحدى وأربعين من مولده إلى اليوم الأول من شهر ربيع الأول من سنة أربع وخمسين من مولده .

وقد ذكر ابن النديم بإسناده عن محمد بن نعمان بن بشير السور على ترتيب نزولها المكي والمدني ، وقد عرض لهذا أيضا البقاعي إبراهيم بن عمر (٨٨٥ هـ) في كتابه « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » .

غير أن بين ما ساق ابن النديم وبين ما ساق البقاعي خلافاً .

ونمة جداول تنظم ترتيب ابن النديم المكي ثم المدني ، كما تنظم ترتيب البقاعي المكي والمدني ، ومن السابقين نستطيع أن نقبين هذا الخلاف :

٣

(٢) البقرة : ١٨٥

(١) الأفعال : ٤١ .

(٣) الملقن : ١٠ .

١ - ترتيب نزول السور كما رواها ابن القيم

(١) المكية

الرقم	السورة	الرقم	السورة	الرقم
١	اقرأ باسم ربك الذي خلق، إلى قوله : علم الإنسان ما لم يعلم	٢٥	والشمس وضحاها	١
٢	ن والقلم	٢٦	والنجم ذات البروج	٢
٣	يأبها الزمل - وآخرها بطريق مكة	٢٧	والنجم والزيثون	٣
٤	المدثر	٢٨	لإيلاف قرين	٤
٥	نبت يد أبي لهب	٢٩	القارعة	٥
٦	إذا الشمس كورت	٣٠	لا أقسم بيوم القيامة	٦
٧	سبح اسم ربك الأعلى	٣١	وبل لكل همزة	٧
٨	ألم نشرح لك صدرك	٣٢	المرسلات	٨
٩	والنصر	٣٣	ق. والقمرآن	٩
١٠	والنجم	٣٤	لا أقسم بهذا البلد	١٠
١١	والضحى	٣٥	الرحمن	١١
١٢	والليل	٣٦	قل أوحى	١٢
١٣	والعاديات ضيحا	٣٧	يس	١٣
١٤	إنا أعطيناك الكوثر	٣٨	المص	١٤
١٥	ألمنكم	٣٩	تبارك الذي نزل الفرقان	١٥
١٦	أرأيت الذي	٤٠	الملك	١٦
١٧	قل يا أيها الكافرون	٤١	الحمد لله فاطر	١٧
١٨	ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل	٤٢	كريم	١٨
١٩	قل هو الله أحد	٤٣	طه	١٩
٢٠	قل أعوذ برب الفلق	٤٤	إذا وقت	٢٠
٢١	قل أعوذ برب الناس (وقين : إنها مدنية)	٤٥	ظم (الشعراء)	٢١
٢٢	والنجم	٤٦	طس	٢٢
٢٣	عبس وتولى	٤٧	ظم (الآخرة)	٢٣
٢٤	إنا أنزلناه	٤٨	بنو إسرائيل	٢٤
		٤٩	هود	

الرقم	السورة	الرقم	السورة
٥٠	يوسف	٦٩	الأعراس (فيها آى مدينة)
٥١	يونس	٧٠	التخل (آخرها مدن)
٥٢	الحجر	٧١	نوح
٥٣	الصافات	٧٢	إبراهيم
٥٤	صمان (آخرها مدن)	٧٣	السجدة
٥٥	قد أفتح المؤمنون	٧٤	الطور
٥٦	سأ	٧٥	تبارك الذى بده الملك
٥٧	الأنبياء	٧٦	الحاقة
٥٨	الزمر	٧٧	سأل سائل
٥٩	حم (للمؤمن)	٧٨	عم يتساءلون
٦٠	حم (السجدة)	٧٩	النازعات
٦١	حم . عنق	٨٠	إذا السماء انقطرت
٦٢	حم (الزخرف)	٨١	إذا السماء انشقت
٦٣	حم (المدخان)	٨٢	الروم
٦٤	حم (الشمس)	٨٣	الشمس
٦٥	حم (الأحقاف) (فيها آية مدينة)	٨٤	ويل للمطففين (ويغال : إنها مدينة)
٦٦	والذاريات	٨٥	اقربت الساعة وانشق القمر
٦٧	هل أتاك حديث الفاشية	٨٦	والسحاب والطارق
٦٨	المكهف (آخرها مدن)	٨٧	النحل (إلا : وإن عاقبتهم فاعقبوا بثل ما عوقبتهم به)

(ب) المدينة

١	البقرة	٧	إذا زلزلت
٢	الأحقاف	٨	الحديد
٣	الأعراف	٩	الذين كفروا
٤	آل عمران	١٠	الرعد
٥	المتحنة	١١	هل أتى على الإنسان
٦	النساء	١٢	يا أيها النبي إذا طلقتم النساء

الرقم	السورة	الرقم	السورة
١٣	لم يكن الذين كفروا	٢١	يأمرها النبي لم تحرم
١٤	الحشر	٢٢	الجمعة
١٥	إذا جاء نصر الله والفتح	٢٣	التضاريف
١٦	النور	٢٤	المحاربات
١٧	الحج	٢٥	الفتح
١٨	الناقصون	٢٦	اللائحة
١٩	المجادلة	٢٧	التوبة
٢٠	الحجرات	٢٨	التعدنان (على قول)

٢ - ترتيب نزول السور كما رواها الباقى

(أ) المكية

١	الحمد (نزلت بعد الدثر)	١١	الكهف (بعد العنكبوت ، إلا آية ٢٨ ، ومن آية ٨٣ - ١٠١ مكية)
٢	الأأنعام (نزلت بعد الحجر ، إلا الآيات ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ مكية)	١٢	مريم (بعد فاطر ، إلا آية ٥٨ ، ٧١ مدينتان)
٣	الأعراف (بعد تن ، إلا من : ١٦٣ - ١٧٠ مكية)	١٣	طه (بعد مريم ، إلا آية ١٣٠ ، ١٣١ مدينتان)
٤	يونس (بعد الإسراء ، إلا الآيات : ٩٤ ، ٩٥ ، ٨٦ مكية)	١٤	الأنبياء (بعد إبراهيم)
٥	هود (بعد يونس ، إلا الآيات ١٢ ، ١٧ ، ١١٤ مكية)	١٥	الزمر (بعد الأنبياء)
٦	يوسف (بعد هود ، إلا الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ مكية)	١٦	الفرقان (بعد يس ، إلا الآيات ٩٨ ، ٩٩ ، ٧٠ مكية)
٧	إبراهيم (بعد نوح ، إلا الآيتين : ٨ ، ٢٨ مدينتان)	١٧	التعراء (بعد الواقعة ، إلا آية ١٩٧ ، ومن ٢٢٤ إلى آخر السورة مكية)
٨	الحجر (بعد يوسف ، إلا آية ٧٨ مكية)	١٨	الزلزال (بعد التعراء)
٩	النحل (بعد الكهف ، إلا الآيات الثلاث الأخيرة)	١٩	القصص (بعد النحل ، إلا من آية ٥٢ - ٥٥ مكية)
١٠	الإسراء (بعد القصص ، إلا الآيات ٢٩ ، ٣٢ ، ٥٧ ، ومن آية ٧٣ - ٨٠ مكية)	٢٠	العنكبوت (بعد الروم ، إلا ١١ مكية)
		٢١	الروم (بعد الانشقاق ، إلا ١٧ مكية)
		٢٢	آمان بعد الصافات ، إلا الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ مدينتان)
		٢٣	السجدة (بعد المؤمنون ، إلا من ١٦ - ٢٠ مدينتان)
		٢٤	سبا (بعد آمان ، إلا ٦ مكية)

الرقم	السورة	الرقم	السورة
٢٥	फलتر (بعد المرقان)	٥٢	المرسلات (بعد الميمزة ، إلا ٤٨ قدينية)
٢٦	يس (بعد الجين ، إلا ٤٥ قدينية)	٥٣	النبا (بعد المارج)
٢٧	الصفات (بعد الأنعام)	٥٤	النازعات (بعد النبا)
٢٨	ص (بعد القمر)	٥٥	عبس (بعد النجم)
٢٩	الزمر (بعد سبأ ، إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ قدينية)	٥٦	التكوير (بعد المد)
٣٠	غافر (بعد الزمر ، إلا آيتي ٥٦ ، ٥٧ قدينيان)	٥٧	الانفطار (بعد النازعات)
٣١	نصت (بعد غافر)	٥٨	الظنن (بعد العنكبوت ، وهي آخر سورة نزلت بمكة)
٣٢	الشورى (بعد نصت ، إلا الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ قدينية)	٥٩	الانشقاق (بعد الانفطار)
٣٣	الزخرف (بعد الشورى ، إلا ٥٤ قدينية)	٦٠	البروج (بعد الشمس)
٣٤	الدخان (بعد الزخرف)	٦١	الطارق (بعد البلد)
٣٥	الجاثية (بعد الدخان ، إلا ١٤ قدينية)	٦٢	الأعلى (بعد التكوير)
٣٦	الأحقاف (بعد الجاثية ، إلا الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ٣٥ قدينية)	٦٣	التماضية (بعد الداريات)
٣٧	ق (بعد المرسلات ، إلا ٣٨ قدينية)	٦٤	الفجر (بعد الليل)
٣٨	الداريات (بعد الأحقاف)	٦٥	البلد (بعد ق)
٣٩	الطور (بعد السجدة)	٦٦	الشمس (بعد القدر)
٤٠	النجم (بعد الإخلاص ، إلا ٣٢ قدينية)	٦٧	الليل (بعد الأعلى)
٤١	القمر (بعد الطارق ، إلا الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ قدينية)	٦٨	الضحى (بعد الفجر)
٤٢	الواقعة (بعد طه ، إلا آيتي ٨١ ، ٨٢ قدينية)	٦٩	ألم نشرح (بعد الضحى)
٤٣	الملك (بعد الطور)	٧٠	التين (بعد البروج)
٤٤	القلم (بعد العلق ، إلا من ١٧ - ٣٣ ، ومن ٤٨ - ٥٠ قدينية)	٧١	العلق (وهي أول ما نزل من القرآن)
٤٥	الحاقة (بعد الملك)	٧٢	القدر (بعد عبس)
٤٦	المارج (بعد الحاقة)	٧٣	العاديات (بعد العصر)
٤٧	نوح (بعد النحل)	٧٤	القارعة (بعد قمرش)
٤٨	الجن (بعد الأعراف)	٧٥	التكاثر (بعد التكاثر)
٤٩	الزمل (بعد القلم ، إلا ١٠ ، ١١ ، ٢٠ قدينية)	٧٦	العصر (بعد ألم نشرح)
٥٠	الدثر (بعد الزمل)	٧٧	الممزة (بعد القيامة)
٥١	القيامة (بعد القارعة)	٧٨	الفيل (بعد الكافرون)
		٧٩	قريش (بعد التين)

الرقم	السورة	الرقم	السورة
٨٠	الماعون (بعد الكافر ، الثلاث الآيات الأولى والبقية مدنية)	٨٣	المسد (بعد الفاتحة)
٨١	الكوثر (بعد العاديات)	٨٤	الإخلاص (بعد الناس)
٨٢	الكافرون (بعد الماعون)	٨٥	العلق (بعد القيل)
		٨٦	الحاقة (بعد العلق)
(ب) المدينة			
١	البقرة (أول سورة نزلت بالمدينة ، إلا ٢٨١ فنزلت بمكة في حجة الوداع)	١٣	الحجرات (بعد المجادلة)
٢	آل عمران (بعد الأنفال)	١٤	الرحمن (بعد الرعد)
٣	النساء (بعد المتحة)	١٥	الحديد (بعد الزلزلة)
٤	المائدة (بعد الفتح ، إلا ٣ فنزلت بعرفات في حجة الوداع)	١٦	المجادلة (بعد الناقصون)
٥	الأنفال (بعد البقرة ، إلا من ٣٠ - ٣٦ فمكية)	١٧	الحشر (بعد البينة)
٦	التوبة (بعد المائدة ، إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان)	١٨	المتحة (بعد الأحزاب)
٧	الرعد (بعد محمد)	١٩	الصف (بعد التغابن)
٨	الحج (بعد النور ، إلا ٥٢ و ٣٥ و ٥٥ و ٥٤ فبين مكة والمدينة)	٢٠	الجمعة (بعد الصف)
٩	النور (بعد الحشر)	٢١	الناقصون (بعد الحج)
١٠	الأحزاب (بعد آل عمران)	٢٢	التغابن (بعد التحريم)
١١	محمد (بعد الحديد ، إلا ١٣ فنزلت في الطريق أثناء الهجرة)	٢٣	الطلاق (بعد الإنسان)
١٢	الفتح (بعد الجمعة ، وقد نزلت في الطريق بعد الانصراف من المدينة)	٢٤	التحريم (بعد الحجرات)
		٢٥	الإنسان (بعد الرحمن)
		٢٦	البينة (بعد الطلاق)
		٢٧	الزلزلة (بعد النساء)
		٢٨	النصر (آخر ما نزل من السور ، وقد نزلت بمكة في حجة الوداع ، فمكة مدنية)

٣ - عدد المكي والمدني :

وللتفق عليه ، وعليه المصحف الذي بين أيدينا ، أن المدني من سور القرآن ثمان وعشرون سورة هي .
(١) البقرة (٢) آل عمران (٣) النساء (٤) المائدة (٥) الأنفال (٦) التوبة (٧) الرعد (٨) الحج
(٩) النور (١٠) الأحزاب (١١) محمد (١٢) الفتح (١٣) الحجرات (١٤) الرحمن (١٥) الحديد
(١٦) الجاثية (١٧) الحشر (١٨) الممتحنة (١٩) الميف (٢٠) الجمعة (٢١) المنافقون (٢٢) التائبين
(٢٣) الطلاق (٢٤) التحريم (٥) الإنسان (٢٦) البينة (٢٧) الزلزلة (٢٨) النصر .

وما بعد هذه السور الثماني والعشرين فهو مكّي ، أعني نزل بمكة وما حوالها . أما على رأي من يقول :
إن المراد بالمكي هو ما جاء خطاباً لأهل مكة ، وأن المدني هو ما جاء خطاباً لأهل المدينة ، فالأمر يختلف .
وإذا عرفنا أن سور القرآن عددها أربع عشرة ومائة سورة^(١) ، كان ما نزل بمكة هو ست وثمانون سورة .
وإذا شئت مزيداً من الحصر فعدد آيات السور المدنية الثماني والعشرين هو ثلاث وعشرون وستائة
وألف آية (١٦٢٣) ، وعدد آيات السور للمكية الست والثمانين هو ثلاث عشرة وستائة وأربعة آلاف آية
(٤٦١٣) فيكون مجموع آي القرآن مدنية ومكية : ستاً وثلاثين ومائتين وستة آلاف (٦٢٢٦) . وهذا
هو المتدب .

وأنت بهذا تجد أن أكثر القرآن نزل بمكة قبل الهجرة ، وأن السور المدنية تكاد تعطّل الثلث من
مجموع السور المكية ، تزيد على الثلث قليلاً ، وأن مجموع آيات السور المدنية يكاد يعطل الثلث من مجموع
آيات السور المكية ، ينقص عن الثلث قليلاً^(٢) .

٤ - عدد الآيات :

والآية ، طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ، وهي مسألة توقيفية أخذت عن الرسول .
وهذا الاختلاف الذي وقع بين السلف في عدد الآيات مرجعه إلى اختلاف السامعين عن الرسول في ضبط
الوقف والوصل ، فالمعروف أنه كان صلى الله عليه وسلم يقف على رموس الآية للتوقيف ، فإذا علم محلها
وصل للتمام ، قوم بعضهم السامعين عند الوصل أن ليس ثمة فصل ، ومن هنا كان اختلاف .

وسور القرآن بالنظر إلى اختلاف عدد آياتها ثلاثة أقسام :

(١) هنا ما عابه الإجماع . ومن السلف من يجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة ، وعلى هذا يكون عدد السور ١١٣ ،
ول مصنف أبي ١١٦ لأنه زاد في الآخر سورتين هما : الجبد . والملم .
(٢) انظر انهرست الجامع للآيات مكبها ومدنيها : وهو من أبواب هذه الموسوعة .

أ - قسم لم يختلف فيه إجمالاً ولا تفصيلاً .

ب - قسم اختلف فيه تفصيلاً لا إجمالاً .

ج - قسم اختلف فيه تفصيلاً وإجمالاً .

أ - فاقسم الأول الذي لم يختلف فيه إجمالاً وتفصيلاً أربعون سورة ، وهي :

- (١) يوسف : ١١١ - (٢) الحجر : ٥٩ - (٣) النحل : ١٢٨ - (٤) الفرقان : ٧٧ -
 (٥) الأحزاب : ٧٣ - (٦) الفتح : ٢٩ - (٧) الحجرات : ١٨ - (٨) التوبة : ١٨ - (٩) ق : ٤٥ -
 (١٠) الذاريات : ٦٠ - (١١) القمر : ٥٥ - (١٢) الحشر : ٢٤ - (١٣) المؤمنون : ١٣ - (١٤) الصف : ١٤ -
 (١٥) النجم : ١١ - (١٦) المنافقون : ١١ - (١٧) الضحى : ١١ - (١٨) العاديات : ١١ - (١٩) الترحيم : ١٢ -
 (٢٠) ن : ٥٢ - (٢١) الإنسان : ٣١ - (٢٢) التوراة : ٥٠ - (٢٣) التكرير : ٢٩ - (٢٤) الانفطار : ١٩ -
 (٢٥) سبح : ١٩ - (٢٦) التطهيف : ٣٦ - (٢٧) البروج : ٢٢ - (٢٨) الفاشية : ٢٦ - (٢٩) البلد : ٢٠ -
 (٣٠) الليل : ٢١ - (٣١) ألم نشرح : ٨ - (٣٢) التيف : ٨ - (٣٣) الحاكم : ٨ - (٣٤) الحمزة : ٩ -
 (٣٥) القبل : ٥ - (٣٦) الفاق : ٥ - (٣٧) تبت : ٥ - (٣٨) الكافرون : ٦ - (٣٩) الكوثر : ٣ -
 (٤٠) الزمر : ٣ .

ب - وقسم الثاني : وهو الذي اختلف فيه تفصيلاً لا إجمالاً ، أربع سور ، وهي :

- (١) القصص : ٨٨ - بدأ أهل الكوفة (طسم) آية ، وبعد غيرهم بدأها ﴿ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْمَعُونَ ﴾
 (الآية : ٢٢) .
 (٢) المنكيات : ٦٩ - بدأ أهل الكوفة ه ألم ه آية . وبعد البصريون بدأها ﴿ مُخَاصِبِينَ لَهُ الْفُؤَادِينَ ﴾
 (الآية : ٦٥) . والشاميون ﴿ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ ﴾ (الآية : ٢٩) .
 (٣) الجن : ٢٨ - بدأ المكي ﴿ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ (الآية : ٢٢) . وبعد غيره بدأها
 ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّاً ﴾ (الآية : ٢٢) .
 (٤) والمصر : ٣ - الكثرة تعدد والمصره آية ، غير اللذي فإنه بدأها ﴿ وَتَوَّاصُوا بِبَاطِنِ ﴾ (الآية : ٣) .

ج - وأما القسم الثالث ، وهو الذي اختلف فيه تفصيلاً وإجمالاً ، سبعون سورة ، وهي :

- (١) الفاتحة - من حيث التفصيل ، فالجمهور على أنها سبع آيات ، بدأ الكوفي والمكي بالبسملة دون
 ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ . وبمكس الباقون . ومن حيث الإجمال : فالحن بدأ آياتها ثمانى آيات حين بدأ بالبسملة

و «أنعمت عليهم» آيتين . وبمدها بعضهم ستاً ، فلا يمدون هاتين الآيتين ، كما يمدها آخرون تسعاً ،
فيمدون هاتين وضمون إليهما «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» .

- (٢) البقرة : ٢٥٨ ، وقيل : ٢٥٧ ، وقيل : ٢٥٦ .
- (٣) آل عمران : ٢٠٠ ، وقيل : ١٩٩ .
- (٤) النساء : ١٧٥ ، وقيل : ١٧٦ ، وقيل : ١٧٧ .
- (٥) المائدة : ١٢٠ ، وقيل : ١٢٢ ، وقيل : ١٢٣ .
- (٦) الأنعام : ١٦٥ ، وقيل : ١٦٦ ، وقيل : ١٦٧ .
- (٧) الأعراف : ٢٠٥ ، وقيل : ٢٠٦ .
- (٨) الأنفال : ٧٥ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٧ .
- (٩) براءة : ١٣٠ ، وقيل : ١٢٩ .
- (١٠) بونس : ١١٠ ، وقيل : ١٠٩ .
- (١١) هود : ١٢١ ، وقيل : ١٢٢ ، وقيل : ١٢٣ .
- (١٢) الرعد : ٤٣ ، وقيل : ٤٤ ، وقيل : ٤٧ .
- (١٣) إبراهيم : ٥١ ، وقيل : ٥٢ ، وقيل : ٥٤ ، وقيل : ٥٥ .
- (١٤) الإسراء : ١١٠ ، وقيل : ١١١ .
- (١٥) الكهف : ١٠٥ ، وقيل : ١٠٦ ، وقيل : ١١٠ ، وقيل : ١١١ .
- (١٦) مريم : ٩٩ ، وقيل : ٩٨ .
- (١٧) طه : ١٣٠ ، وقيل : ١٣٢ ، وقيل : ١٣٤ ، وقيل : ١٣٥ ، وقيل : ١٤٠ .
- (١٨) الأنبياء : ١١١ ، وقيل : ١١٢ .
- (١٩) الحج : ٧٤ ، وقيل : ٧٥ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٨ .
- (٢٠) المؤمنون : ١١٨ ، وقيل : ١١٩ .
- (٢١) النور : ٦٢ ، وقيل : ٦٤ .
- (٢٢) الشعراء : ٢٢٦ ، وقيل : ٢٢٧ .
- (٢٣) النمل : ٩٢ ، وقيل : ٩٤ ، وقيل : ٩٥ .
- (٢٤) الروم : ٦٠ ، وقيل : ٥٩ .

- (٢٥) لقمان : ٣٣ ، وقيل : ٣٤
- (٢٦) السجدة : ٣٠ ، وقيل : ٢٩
- (٢٧) سبأ : ٥٤ ، وقيل : ٥٥ .
- (٢٨) طاهر : ٦٤ ، وقيل : ٦٥ .
- (٢٩) يس : ٨٣ ، وقيل : ٨٢ .
- (٣٠) الصافات : ١٨١ ، وقيل : ١٨٢ .
- (٣١) ص : ٨٥ ، وقيل : ٨٦ ، وقيل : ٨٨ .
- (٣٢) الزمر : ٧٢ ، وقيل : ٧٣ ، وقيل : ٧٥ .
- (٣٣) غافر : ٨٢ ، وقيل : ٨٤ ، وقيل : ٨٥ ، وقيل : ٨٦
- (٣٤) فصلت : ٥٢ ، وقيل : ٥٣ ، وقيل : ٥٤ .
- (٣٥) الشورى : ٥٣ ، وقيل : ٥٠ .
- (٣٦) الزخرف : ٨٩ ، وقيل : ٨٨ .
- (٣٧) الدخان : ٥٦ ، وقيل : ٥٧ ، وقيل : ٥٩ .
- (٣٨) الجاثية : ٣٦ ، وقيل : ٣٧ .
- (٣٩) الأحقاف : ٣٤ ، وقيل : ٣٥ .
- (٤٠) القتل : ٤٠ ، وقيل : ٣٩ ، وقيل : ٣٩ ، وقيل : ٣٨ .
- (٤١) الطور : ٤٧ ، وقيل : ٤٨ ، وقيل : ٤٩
- (٤٢) النجم : ٦١ ، وقيل : ٦٢ .
- (٤٣) الرحمن : ٧٧ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٨ .
- (٤٤) الواقعة : ٩٩ ، وقيل : ٩٧ ، وقيل : ٩٦ .
- (٤٥) الحديد : ٣٨ ، وقيل : ٣٩ .
- (٤٦) المجادلة : ٢٢ ، وقيل : ٢١ .
- (٤٧) الطلاق : ١١ ، وقيل : ١٢ .
- (٤٨) الملك : ٣٠ ، وقيل : ٣١ ، والمصحح الأول .
- (٤٩) الحاقة : ٥١ ، وقيل : ٥٢ .

- (٥٠) المعارج : ٤٤ ، وقيل : ٤٣ .
 (٥١) نوح : ٣٠ ، وقيل : ٢٩ ، وقيل : ٢٨ .
 (٥٢) الزمل : ٢٠ ، وقيل : ١٩ ، وقيل : ١٨ .
 (٥٣) المدثر : ٥٥ ، وقيل : ٥٦ .
 (٥٤) القيامة : ٤٠ ، وقيل : ٣٩ .
 (٥٥) النبأ : ٤٠ ، وقيل : ٤١ .
 (٥٦) النازعات : ٤٥ ، وقيل : ٤٦ .
 (٥٧) هب : ٤٠ ، وقيل : ٤١ ، وقيل : ٤٢ .
 (٥٨) الانشقاق : ٢٥ ، وقيل : ٢٤ ، وقيل : ٢٣ .
 (٥٩) الطارق : ١٧ ، وقيل : ١٦ .
 (٦٠) انفجر : ٣٠ ، وقيل : ٢٩ ، وقيل : ٣٢ .
 (٦١) الشمس : ١٥ ، وقيل : ١٦ .
 (٦٢) الملق : ٢٠ ، وقيل : ١٩ .
 (٦٣) القمر : ٥٠ ، وقيل : ٥٦ .
 (٦٤) البيعة : ٨ ، وقيل : ٩ .
 (٦٥) الزلزلة : ٩ ، وقيل : ٨ .
 (٦٦) القارعة : ٨ ، وقيل : ١٠ ، وقيل : ١١ .
 (٦٧) قريش : ٤ ، وقيل : ٥ .
 (٦٨) الماعون : ٧ ، وقيل : ٦ .
 (٦٩) الإخلاص : ٤ ، وقيل : ٥ .
 (٧٠) الناس : ٧ ، وقيل : ٦ .

٥ - ترتيب الآيات

وكما كان ضبط الآيات بفواصلها توقيفياً كذلك كان وضمها في مواضعها توقيفياً ، دليل ذلك الآية (وانفثوا يومئذ ما ترجمون فيه إلى الله) - البقرة : ٢٨١ - كانت آخر ما نزل ، فوضمها النبي عن وحى من ربه بين آيتي الرضا والذين من سورة البقرة ، وهكذا كان الأصرف في سائر الآيات .

(١) ففي سورة الأنعام - وهي مكية - الآيات : ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٣ ، فهي مدنية .

(٢) وفي سورة الأعراف - وهي مكية - الآيات من ١٦٣ - ١٧٠ ، فهي مدنية .

(٣) وفي سورة يونس - وهي مكية - الآيات : ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ ، فهي مدنية .

(٤) وفي سورة هود - وهي مكية - الآيات : ١٢ و ١٧ و ١١٤ ، فهي مدنية .

(٥) وفي سورة يوسف - وهي مكية - الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٧ ، فهي مدنية .

(٦) وفي سورة إبراهيم - وهي مكية - الآيتان : ٢٨ و ٢٩ ، فهما مدنيتان .

(٧) وفي سورة الحجر - وهي مكية - الآية : ٨٧ ، فهي مدنية .

- (٨) وفي سورة النحل - وهي مكية - الآيات الثلاث الأخيرة ، فهي مدنية .
- (٩) وفي سورة الإسراء - وهي مكية - الآيات : ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ و ٧٣ و ٨٠ ، فهي مدنية .
- (١٠) وفي سورة السكف - وهي مكية - الآيات : ٢٨ و ٨٣ - ١٠١ ، فهي مدنية .
- (١١) وفي سورة مريم - وهي مكية - الآيات : ٥٨ و ٧١ ، فهما مدنيتان .
- (١٢) وفي سورة طه - وهي مكية - الآيات : ١٣٠ و ١٣١ ، فهما مدنيتان .
- (١٣) وفي سورة الفرقان - وهي مكية - الآيات : ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ ، فهي مدنية .
- (١٤) وفي سورة الشعراء - وهي مكية - الآيات : ١٩٧ و ٢٢٤ - إلى آخر السورة ، فهي مدنية .
- (١٥) وفي سورة القصص - وهي مكية - الآيات : ٥٢ - ٥٥ ، فهي مدنية .
- (١٦) وفي سورة المنكبوت - وهي مكية - الآيات من ١ - ١١ ، فهي مدنية .
- (١٧) وفي سورة الروم - وهي مكية - الآية : ١٧ ، فهي مدنية .
- (١٨) وفي سورة لقمان - وهي مكية - الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ ، فهي مدنية .
- (١٩) وفي سورة السجدة - وهي مكية - الآيات من ١٦ - ٢٠ ، فهي مدنية .
- (٢٠) وفي سورة سبأ - وهي مكية - الآية : ٦ ، فهي مدنية .
- (٢١) وفي سورة يس - وهي مكية - الآية : ٤٥ ، فهي مدنية .
- (٢٢) وفي سورة الزمر - وهي مكية - الآيات : ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ ، فهي مدنية .
- (٢٣) وفي سورة غافر - وهي مكية - الآيات : ٥٦ و ٥٧ ، فهما مدنيتان .
- (٢٤) وفي سورة الشورى - وهي مكية - الآيات : ٢٣ ، ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ ، فهي مدنية .
- (٢٥) وفي سورة الزخرف - وهي مكية - الآية : ٥٤ ، فهي مدنية .
- (٢٦) وفي سورة الأحقاف - وهي مكية - الآيات : ١٠ و ١٥ و ٣٥ ، فهي مدنية .
- (٢٧) وفي سورة ف - وهي مكية - الآية : ٣٨ ، فهي مدنية .
- (٢٨) وفي سورة النجم - وهي مكية - الآية : ٣٢ ، فهي مدنية .
- (٢٩) وفي سورة القمر - وهي مكية - الآيات : ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ ، فهي مدنية .
- (٣٠) وفي سورة الواقعة - وهي مكية - الآيات : ٨١ و ٨٢ ، فهما مدنيتان .
- (٣١) وفي سورة القلم - وهي مكية - الآيات : ١٧ و ٣٣ و ٣٨ و ٤٨ - ٥٠ ، فهي مدنية .
- (٣٢) وفي سورة المزمل - وهي مكية - الآيات : ١٠ و ١١ و ٢٠ ، فهي مدنية .
- (٣٣) وفي سورة المرسلات - وهي مكية - الآية : ٤٨ ، فهي مدنية .

- (٣٤) وفي سورة لاهون - وهي مكية - الآيات من الرابعة إلى آخر السورة ، فهي مدنية :
- هذا من السور المكية وما فيها من الآيات المدنية ، أما من السور المدنية وما فيها من آيات مكية
- (٣٥) ففي سورة البقرة - وهي مدنية - الآية : ٢٨١ ، فقد نزلت بمق في حجة الوداع .
- (٣٦) وفي سورة اللائدة - وهي مدنية - الآية : ٣ ، فقد نزلت بمرفات في حجة الوداع .
- (٣٧) وفي سورة الأنفال - وهي مدنية - الآيات من ٣٠ - ٣٦ ، فهي مكية .
- (٣٨) وفي سورة التوبة - وهي مدنية - الآيات الأخرتان ، هما مكيتان .
- (٣٩) وفي سورة الحج - وهي مدنية - الآيات : ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ ، فقد نزلت بين مكة والمدنية .
- (٤٠) وفي سورة محمد - وهي مدنية - الآية : ١٣ ، فقد نزلت في الطريق أثناء الهجرة .^(١)
- ويرتب الفقهاء على عدد الآيات أحكاماً فقهية ، من ذلك مثلاً : من لم يحفظ الفاتحة فيجب عليه في الصلاة بدلها سبع آيات . هذا فيمن عدَّ الفاتحة سهماً ، كما لا تصح الصلاة بنصف آية .
- وعدَّ السورة في القرآن أنها تشمل على آيات ذات فائحة وخاتمة . وأقل الآيات التي تشمل عليها السورة ثلاث .

٦ - أسماء السور

وكما كانت الآيات بفواصلها وبترتيبها توقيفاً كذلك كانت الحال في السور في جمعها وفي أسمائها ، فكلاهما - أعني اسم السورة وما تنقله من آيات - توقيف .

وقد يكون للسورة اسم واحد ، وعليه الكثرة من سور القرآن ، وقد يكون لها اسمان فأكثر من ذلك مثلاً :

- (١) الفاتحة (١) ، فهي تسمى أيضاً : أم الكتاب ، والسبع للثاني ، والحمد ، والواقية ، والشافية .
- (٢) الإسراء (١٧) ، وتسمى أيضاً : بني إسرائيل .
- (٣) النمل (٢٧) ، فهي تسمى أيضاً : سورة سليمان .
- (٤) السجدة (٣١) ، فهي تسمى أيضاً : سورة المضاجع .
- (٥) فاطر (٣٥) ، فهي تسمى أيضاً : سورة الملائكة .
- (٦) الزمر (٣٩) ، فهي تسمى أيضاً : سورة النرف .
- (٧) غافر (٤٠) ، فهي تسمى أيضاً : سورة المؤمن .
- (٨) حم السجدة (٤١) ، وتسمى أيضاً : فصلت .

(١) وانظر فهرست الآيات مرتبة على حسب أوائلها مع بيان مكيتها ومدنيها .

- (١) الجاثية (٤٥)، فهي تسمى أيضاً : سورة الدهر .
- (١٠) محمد (٤٧)، فهي تسمى أيضاً : سورة القتال .
- (١١) المتحة (٦٠) وتسمى أيضاً : الامتحان .
- (١٢) الصف (٦١)، فهي تسمى أيضاً : سورة الحواريين .
- (١٣) تبارك (٦٧)، فهي تسمى أيضاً : سورة اللك .
- (١٤) عم (٧٨)، فهي تسمى أيضاً : سورة النبا ، والتساؤل ، والمصرات .
- (١٥) لم يكن (٩٨)، فهي تسمى أيضاً : سورة أهل الكتاب ، والبيعة ، والقيامة .

٧ - ترتيب السور

أما عن ترتيب السور، فن المؤلف من يقول : إنه توقيفي ، ويستدل على ذلك بـرُود الحواميم مرتبة ولاء ، وكذا الطواسين ، على حين لم ترتب للسبحات ولاء ، بل جاءت مفصلاً بين سورها ، وقُصِّل بين « طسم » الشعراء ، و « طسم » القصص بـ « طس » ، مع أنها أقصر منها ، ولو كان الترتيب اجتهاداً لذكرت للسبحات ولاء وأخرت « طس » عن « القصص » .

كما يجعلون فيا نقله « الشهرستاني » محمد بن عبد الكريم في تفسيره « مفاتيح الأسماء ومصايح الأبرار » عند الكلام على قوله تعالى « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي » : هي السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، وللائحة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس ، دليلاً على أن هذا الترتيب كان بعوقف من النبي .

والذين يقولون إن ترتيب السور اجتهادي يستدلون على ذلك بـرُود السور مختلفة للترتيب في المصاحف الخصة التي آثرت عن خمسة من كبار الصحابة ، هم : علي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وأبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق .

أما عن مصحف « علي » فيُزعم إليه أنه رأى من الناس طيِّرةً عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنسم ألا يضع على ظهره رداؤه حتى يجمع القرآن ، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن ، فكان أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه .

ويروي ابن النديم في كتابه « الفهرست » أن هذا المصحف كان عند أهل جعفر ، ويقول : ورأيت أنا في زماننا عند « أبي بمل حمزة الطوسي » وحجة الله ، مصحفاً قد سقطت منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه « بنو حسن » على مرّ الزمان ، وهذا ترتيب السور من ذلك للمصحف .

غير أن كتاب « الفهرست » في طبيعته الأوروبية والمصرية يسقط منه ما بعد هذا ، فلا يورد ترتيب السور الذي أشار إليه .

ونجد اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب ، وهو من رجال القرن الثالث الهجري ، يطالعنا بما سقط من الفهرست في الجزء الثاني من تاريخه (١٥٢ - ١٥٤) طابمة « بريل » سنة ١٨٨٣ م . فيقول قبل أن يسوق الترتيب : وروى بعضهم أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه - يعني القرآن - لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتى به يحمله على جمل فقال : هذا القرآن جمعه ، وكان قد جزأه سبعة أجزاء : جزء البقرة ، جزء آل عمران ، جزء النساء ، جزء البائدة ، جزء الأنعام ، جزء الأعراف ، جزء الأنفال ، وذلك باعتبار أول كل جزء^(١) .

ويروى غير واحد أن مصحف « علي » كان على ترتيب النزول ، وتقدم المنسوخ على الناسخ^(٢) . وأما عن مصحف « أبي » فيقول ابن النديم : قال الفضل بن شاذان : أخبرنا الثقة من أصحابنا قال : كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها : قرية الأنصار ، على رأس قرنين ، عند محمد بن عبد الملك الأنصاري ، أخرج إنينا مصحفاً وقال : هو مصحف « أبي » رويناه عن آبائنا . فنظرت فيه فأستخرجت أوائل السور وخواتم الرسل وعدد الآي . ثم مضى يذكر السور مرتبة كما جاء في هذا المصحف .

وأما عن مصحف عبد الله بن مسعود فيقول ابن النديم عن الفضل بن شاذان أيضاً فيقول : قال : وجدت في مصحف عبد الله بن مسعود تأليف سور القرآن على هذا الترتيب . ثم يسوق ابن النديم هذا الترتيب . ثم يقول ابن النديم : قال ابن شاذان : قال ابن سيرين : وكان عبد الله بن مسعود لا يكتب الموهوبين في مصحفه ، ولا فائمة الكتاب .

ثم يقول ابن النديم : رأيت عدة مصاحف ذكر أنها مصحف ابن مسعود ، ليس فيها مصحفان متفقان ، وأكثرها في رِق كثير للنسخ . وقد رأيت مصحفاً قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فائمة الكتاب . وأما عن مصحف عبد الله بن عباس (٦٨ هـ) وكان رأس المفسرين ، فقد ذكر الشهرستاني محمد ابن عبد الكريم (٥٤٨ هـ) هذا الترتيب في مقدمة تفسيره « مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار » . وأما عن مصحف الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين (١٤٨ هـ) فقد ذكره الشهرستاني أيضاً في مقدمة تفسيره « مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار » .

(١) انظر الجدول بعد .

(٢) تاريخ القرآن لآل نجاشي (ص ٢٦) .

وهناك جدولاً يجمع الترتيب في هذه المصاحف الخمسة :

مصنف حبيشي الصادق	مصنف ابن عباس	مصنف ابن مسعود	مصنف ابن	مصنف علي
اقرأ	اقرأ	البقرة	فاتحة الكتاب	(١) البقرة
ن	ن	النساء	البقرة	(٢) يوسف
الزمل	والضحى	آل عمران	النساء	(٣) العنكبوت
الذُر	الزمل	المص	آل عمران	(٤) الروم
تبت	الذُر	الأنعام	الأنعام	(٥) لقمان
كورت	الفاتحة	المائدة	الأعراف	(٦) حم المجددة
للأعلى	تبت بدا	يونس	المائدة	(٧) الذاريات
والليل	كورت	براءة	الأفعال	(٨) هل أتى على الإنسان
والنجر	الأعلى	التحل	التوبة	(٩) ألم تنزل
والضحى	والليل	هود	هود	(١٠) تسجدة
ألم تشرح	والنجر	يوسف	مريم	(١١) التنازعات
والعصر	ألم تشرح لك	بنو إسرائيل	الشعراء	(١٢) إذا الشمس كورت
والعادات	الرحمن	الأنبياء	الحج	(١٣) إذا السماء انشطت
الكوثر	والعصر	المؤمنون	يوسف	(١٤) إذا السماء انشقت
التكاثُر	الكوثر	التشعراء	الكهف	(١٥) ميع اسم ربك الأعلى
الدين	التكاثُر	المعاني	التحل	(١٦) لم يسكن
				فهذا جزء البقرة
الكافرون	الدين	الأحزاب	الأحزاب	(١٧) آل عمران
القيل	القيل	العنكبوت	بنو إسرائيل	(١٨) هود
الطلاق	الكافرون	النور	الزمر	(١٩) الحج
الناس	الإخلاص	الأفعال	حم تنزيل	(٢٠) الحجر
الإخلاص	النجم	مريم	طه	(٢١) الأحزاب
والنجم	الأعشى	العنكبوت	الأنبياء	(٢٢) المدخان
الأعشى	القدر	الروم	النور	(٢٣) الرحمن
القدر	والشمس	يس	المؤمنون	(٢٤) الحاقة
والشمس	البروج	الفرقان	حم المؤمن	(٢٥) سأل سائل
البروج	التين	الحج	الزمر	(٢٦) عبس وتولى

مصنف علي	مصنف أبي	مصنف ابن مسعود	مصنف ابن عباس	مصنف حبشي المصادق
<p>(٢٧) والشمس وضحاها</p> <p>(٢٨) إنا أنزلناه</p> <p>(٢٩) إذا زلزلت</p> <p>(٣٠) ويل لكل همزة</p> <p>(٣١) ألم تر كيف</p> <p>(٣٢) لإيلاف قريش</p> <p>وهذا جزء آل عمران</p> <p>(٣٣) النساء</p> <p>(٣٤) النحل</p> <p>(٣٥) المؤمنون</p> <p>(٣٦) يس</p> <p>(٣٧) حم-عسق</p> <p>(٣٨) الواقعة</p> <p>(٣٩) تبارك الملك</p> <p>(٤٠) يا أيها المدثر</p> <p>(٤١) أرايت</p> <p>(٤٢) تبت</p> <p>(٤٣) قل هو الله أحد</p> <p>(٤٤) والمصر</p> <p>(٤٥) القارعة</p> <p>(٤٦) والسماء ذات البروج</p> <p>(٤٧) والتين والزيتون</p> <p>(٤٨) طس</p> <p>(٤٩) النمل</p> <p>وهذا جزء المائدة</p> <p>(٥٠) المائدة</p> <p>(٥١) يونس</p> <p>(٥٢) مريم</p>	<p>طس</p> <p>القصص</p> <p>طس</p> <p>سليمان</p> <p>الصافات</p> <p>داود</p> <p>ص</p> <p>يس</p> <p>أمصواب الحجر</p> <p>حم-عسق</p> <p>الروم</p> <p>الأخرف</p> <p>حم السجدة</p> <p>إبراهيم</p> <p>الملائكة</p> <p>الفتح</p> <p>محمد</p> <p>الحديد</p> <p>الأنعام</p> <p>تبارك</p> <p>الفرقان</p> <p>الم تنزيل</p> <p>نوح</p> <p>الأحقاف</p> <p>ق</p> <p>الرحمن</p>	<p>الرعد</p> <p>سبا</p> <p>الملائكة</p> <p>إبراهيم</p> <p>ص</p> <p>الذين كفروا</p> <p>القمر</p> <p>الزمر</p> <p>الحواميم السبحات</p> <p>حم المؤمن</p> <p>حم الأخراف</p> <p>السجدة</p> <p>الأحقاف</p> <p>الجاثية</p> <p>الدخان</p> <p>إنا فتحنا</p> <p>الحديد</p> <p>سبح</p> <p>الحشر</p> <p>تنزيل</p> <p>السجدة</p> <p>ق</p> <p>الطلاق</p> <p>الحجرات</p> <p>تبارك الذي بيده الملك</p> <p>التخاين</p>	<p>قريش</p> <p>القارعة</p> <p>القيامة</p> <p>الهمزة</p> <p>والمرسلات</p> <p>ق</p> <p>البلد</p> <p>الطارق</p> <p>القمر</p> <p>ص</p> <p>الأعراف</p> <p>الجن</p> <p>يس</p> <p>الفرقان</p> <p>الملائكة</p> <p>مريم</p> <p>طه</p> <p>الشعراء</p> <p>النمل</p> <p>القصاص</p> <p>بنو إسرائيل</p> <p>يونس</p> <p>هود</p> <p>يوسف</p> <p>الحجر</p> <p>الأنعام</p>	<p>والتين</p> <p>قريش</p> <p>القارعة</p> <p>القيامة</p> <p>الهمزة</p> <p>المرسلات</p> <p>ق</p> <p>البلد</p> <p>الطارق</p> <p>القمر</p> <p>ص</p> <p>الأعراف</p> <p>الجن</p> <p>يس</p> <p>الفرقان</p> <p>الملائكة</p> <p>مريم</p> <p>طه</p> <p>الواقعة</p> <p>الشعراء</p> <p>النمل</p> <p>القصاص</p> <p>بنو إسرائيل</p> <p>يونس</p> <p>هود</p> <p>يوسف</p>

مصنف على	مصنف أبي	مصنف	مصنف	مصنف
(٥٣) ظم	انواعه	للقائون	ابن عباس	حشيش الصادق
(٥٤) الثمراء	الجن	الجمعة		الحجر
(٥٥) الزخرف	النجم	الحواريون		الأنعام
(٥٦) الحجرات	ن	قل أوحى		الصفات
(٥٧) ق والقرآن المجيد	الحاقة	إننا أرسلنا نوحا		آدم
(٥٨) اقرب الساعة	الحشر	المجادلة		الزمر
(٥٩) المنحة	المنحة	للمنحة		المؤمن
(٦٠) والسماء والطارق	المرسلات	يا أيها النجوم تعبرم		حتم السجدة
(٦١) لا أقسم بهذا البلد	عم يتساءلون	الرحمن		حتم عسق
(٦٢) ألم نشرح لك	الإنسان	النجم		الزخرف
(٦٣) والمعاديات	لا أقسم	الذاريات		الذخا
(٦٤) إننا أعطينا الكوكب	كورت	الطور (١)		الجاثية
(٦٥) قل يا أيها الكافرون	النازعات	اقربت الساعة		الأحزاب
وهذا جزء الثالثة				
(٦٦) الأنعام	عبس	الحاقة		الذاريات
(٦٧) سبحان	الطغيب	إذا وقت		الغاشية
(٦٨) اقرب	إذا للسماء انشقت	ن وانهم		الكهف
(٦٩) الفرقان	بين	النازعات		النحل
(٧٠) موسى	اقرأ باسم ربك	سأل سائل		نوح
(٧١) زمر	الحجرات	الذر		إبراهيم
(٧٢) حم	النافقون	الزلزل		الأنبياء
(٧٣) المؤمن	الجمعة	الطغيب		المؤمنون
(٧٤) المجادلة	نبي	عبس		الملك
(٧٥) الحشر	نجر	المهر		الحاقة
(٧٦) الجمعة	انك	تقيامه		المعارج
(٧٧) النافقون	وانبئ إذا بغى	المرسلات		النساء
(٧٨) ن والقلم	إذا للسماء انقطرت	عم يتساءلون		والنازعات

مصنف على	مصنف أبي	مصنف ابن مسعود	مصنف ابن عباس	مصنف حديثي الصادق					
<p>(٧٩) إنا أرسلنا نوحا (٨٠) قل أوحى إلي (٨١) الرسلات (٨٢) والضحى (٨٣) أياكم</p> <p>وهذا جزء الأثام</p> <p>(٨٤) الأعراف (٨٥) إبراهيم (٨٦) الكهف (٧٧) النور (٨٨) ص (٨٩) الزمر (٩٠) الشريعة (٩١) الذين كفروا (٩٢) الحديد (٩٣) الزمل (٩٤) لا أقسم بيوم القيامة (٩٥) عم ينساء لون (٩٦) الفاتية (٩٧) والتجر (٩٨) والليل إذا يغشى (٩٩) إذا جاء نصر الله</p>	<p>الشمس وضحاها والسماء ذات البروج الطارق سبح اسم ربك الأعلى والليل إذا يغشى</p> <p>عبس الصف الضحى لم نشرح لقارعة التكاثر الخلع الجيد اللهم إني أعوذ بك إذا زلزلت العاديات أصحاب الفيل التين التكاثر القدر الكافرون</p>	<p>التكوير الانقطار هل أتتكم حديث الفاتية سبح اسم ربك الأعلى والليل إذا يغشى</p> <p>القنجر البروج الانقطار اقرأ باسم ربك لا أقسم بهذا البلد والضحى لم نشرح والسماء والطارق والعاديات أرأيت انذاره لم يكن للذين كفروا الشمس وضحاها التين ويل لكل همزة انقيل</p>	<p>انقطرت انثقت الروم المنكبوت المطفون البقرة الأنفال آل عمران الحشر الأحزاب النور المتحنة الفتح النساء (١) إذا زلزلت الحديد الحج الحديد محمد الرحمن الإنسان الطلاق لم يكن</p>	<p>النبا والنازعات انقطرت انثقت الروم</p> <p>المنكبوت المطفون البقرة الأنفال آل عمران الأحزاب المتحنة النساء إذا زلزلت الحديد محمد الرحمن الإنسان الطلاق لم يكن</p>					
					<p>(١٠٠) الأنفال (١٠١) براءة (١٠٢) حه (١٠٣) اللانكة</p>	<p>التصر أبي لخب فريش الصدف</p>	<p>لا يلاف فريش التكاثر إنا أنزلناه والعصر</p>	<p>الجمعة أم السجدة النافقون المجادلة</p>	<p>الحشر النصر النور الحج</p>

(١) جاءت قبل بدء المأارج - واللاحظ أنه لم يذكر فاتحة الكتاب التي يشتم بها عدد السور ١١٤ .

مصنف على	مصنف أبي	مصنف	مصنف	مصنف
(١٠٤) الصافات	الغلق الناس	إذ جاء نصر الله	الحجرات	الناقون
(١٠٥) الأحقاف		الكفور	التحريم	المجادلة
(١٠٦) الفتح		الكافرون	التغابن	الحجرات
(١٠٧) طور		السد	التصف	التحريم
(١٠٨) النجم		قل هو الله أحد	المائدة	الصف
(١٠٩) الصف			التوبة	الجمعة
(١١٠) التغابن			النصر	التغابن
(١١١) الطلاق			الواقعة	الفتح
(١١٢) المطففين			والعاديات	التوبة
(١١٣) المودنين			الغلق	المائدة
			الناس	

وهذا جزء الأنفال

٨ - الحكمة في نزول القرآن منجياً

وفيما بين السابع عشر من رمضان - من السنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، وكان بدء نزول الوحي ، وإلى ما قبل موته صلى الله عليه وسلم بأيام لا يتجاوز الواحد والثمانين ولا تنقص عن العشرة ، وكان آخر ما نزل من الوحي ، أي في نحو من إحدى وعشرين سنة ، أو على الأصح في نحو من ثمان عشرة سنة ، بإسقاط المدة التي نزل فيها الوحي والتي بلغت ثلاث سنين - نزل هذا القرآن منجياً بشرح للناس ، وبتأجيل الأحداث ، ويجيب ويبين . قال تعالى : (وَلَا تَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ^(١)) . وقال تعالى : (وَفَرُّوْا آتَانَا فَرَقْنَاهُ آيَاتٍ يُرْتَأَى عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ^(٢)) .

وما كانت حكمة السماء تقضى إلا بهذا مع أمة أراد لها التحول من عقائد إلى عقيدة ، والخروج من وثنية إلى دين ، ومن أوهام وظنون إلى منطق وحرارة ، ومن جحود إلى إيمان .

تلك خطوة أولى كان من الحكمة أن تبدأ بها الدعوة وتفرغ لها ، حتى إذا ما ضمت الناس على الطريق

(١) الروان : ٢٣

(٢) الإسراء : ١٠٦

أخذتهم بما تحمى إيمانهم به ، فحاطتهم بعبادات وألزمهم بواجبات ، والناس لا يمتضون فيما يجدون عليهم
خُرُماً لا ينطقون ، وُحياً لا ينظرون ، وغفلاً لا يتدبرون ، بل هم عن كل ما يمرض لهم سائلون ، والوحى
يقابهم في كل ما يستفسرون عنه ، إذ به تمام الرسالة .

ثم إن هذه الدعوة السأوية بدأت جهاداً وعاشت جهاداً ، أمثلة الأيام وتمخضت عنه الأعوام ، وهو
وإن كان في علم السماء قبل أن يقع لكنه كان على علم الناس جديداً لم يقع ، وكان لا بد أن يلتقوا مع
زمانه وأوانه .

ثم ما أكثر ما أخذ الناس وأعطوا في ظل الدعوة لتثبت أركانها في نفوسهم ، وهذا - وإن كان في علم
السماء قبل أن يقع - لكنه كان على حياة الناس جديداً لم يقع ، وكان لا بد أن يلتقوا بيانه مع زمانه
وأوانه .

وهكذا لم تكن الرسالة كلمة ساعتها ، وإنما كانت كلمات أعوام ثمانية عشر ، وكانت هذه الكلمات
كلها في علم السماء وفي اللوح المحفوظ ، ولكنها نزلت إلى علم الناس مع زمانها وأوانها .
لهذا نزل القرآن مُتَجَمِّعاً .

وقد خال المشركون أن دعوة الرسول إليهم كلمة ، وأن صفة معهم صفة ، وفاتهم أن الدعوة
معها خطوات ، وأن هذه الخطوات معها جديد على علمهم لا على علم السماء ، وما أحوجهم مع كل جديد
إلى بيان ، ومن أجل هذا الذي قاتموا استنكروا أن ينزل القرآن متجماً وقالوا : (لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ
بُحْلَةً وَاحِدَةً)^(١) ، وكان جواب السماء عليهم : (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)^(٢) أى :
جعلنا بعضه في إثر بعض ، منه ما نزل ابتداءً ، ومنه ما نزل في عقب واقعة أو سؤال ، ليكون في تناسخه
مع الأحداث ، وما تشيره من شكوك ، ما يرد النفوس إلى طمأنينة ، والأقنعة إلى ثبات .

وإنك لو تدبعت أسباب النزول في القرآن ومواقع الآيات لتبينت أن رسالة الرسول لم تكن جملة
واحدة ليكون القرآن جملة واحدة ، بل كانت أحداثاً متلاحقة تقتضى كلمات متلاحقة .

فلقد نزلت آية الظهار في سلة بن صخر ، ونزلت آية اللسان في شأن هلال بن أمية ، ونزلت آية
حد الغد في رمة عائشة ، ونزلت آية القبلة بعد الهجرة وبعد أن استقبل المسلمون بيت المقدس بضعة

(٢) القرآن : ٣٢ .

(١) القرآن : ٣٢ .

عشر شهراً ، ونزلت آية اتخاذ مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين سأل عمر الرسول في ذلك ، كذلك كانت الحال في الحجاب ، وأمرى بدر ، وغير ذلك كثير ، فكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات ، وأكثر وأقل ، وقد صح نزول عشر آيات في قصة الإفك جملة ، كما صح نزول عشر آيات من أول « المؤمنون » جملة ، وصح نزول « غير أولي الضرر »^(١) . وحدها وهي بعض آية « وإن خفتن عيلة^(٢) » إلى آخر الآية ، وهي بعض آية ، نزلت بعد نزول أول الآية .

٩ - نزول القرآن هل سبعة أحرف

وهذا الوحي ألهم الرسول معناه كما ألهم لفظه ، فهو بمعناه ولفظه من صنع السماء ، والرسول ناطق بلسان السماء ، يلقى على قومه ما أملت له السماء عليه ، ويصور ما تصور في وعيه ، ويتعلق بما أنطقته السماء ، تُفيض عليه السماء . فإذا هو قد خالص لهذا الفيض بكلياته ، وإذا هو إشباع لهذا الفيض بصدره وبشكل جرسه ، فإذا ما انفصل عنه هذا الفيض عاد يُصدر عن نفسه يطوع له نطقه .

ولسان الرسول عربي ، ولهذا جرى القرآن على لسانه عربياً ، يُمثل أعلى ما ينتظمه اللسان العربي من لغات ، وأحوى ما يجمع من لهجات ، وكانت لغة مضر أعلى ما يجري على لسان قريش وأحواء ، فنزل بها القرآن ، وفي هذا يقول عمر : نزل القرآن بلغة مضر : وكانت لغة مضر هذه تنتظم لغات سبعا لقبائل سبع ، هم : هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضمية ، ونيم الرباب ، وأسد بن خزيمه ، وقريش .

واتد تمثل القرآن هذه اللغات السبع كلها مُترفة فيه . لكل لغة منه نصيب . وهو أولى الأقوال بفسير الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » :

٩٠ - اسم كتاب الله

ولقد سمي الله ما أنزله على رسوله : قرآناً ، وكتاباً ، وكلاماً ، وفرقاناً ، وذكراً ، وقولاً . وكان أكثر هذه الأسماء دوراناً هو لفظ القرآن ، فقد جاء في نحو سبعين آية ، وكان فيها صريحاً في أهميته ومدلوله الخاص . من أجل ذلك كتبت لهذا اللفظ القلبية على غيرها ، وصارت الاسم الغالب

(٢) الزوبة : ٢٩ .

(١) النساء : ٩٥ .

لكتاب الله الذي جاء به محمد وحفظه عنه المسلمون . وبؤثر عن الشافعي أنه قال : القرآن أسم على غير مشتق خاص بكلام الله .

فهو غير هموز ، لم يؤخذ من قراءة ، ولكنه أسم لكتاب الله مثل : التوراة والإنجيل .

ويقول الزجاج : إن ترك الهمز فيه من باب التخفيف . ونقل حركة الهمز إلى الساكن الصحيح قبلها . والقائلون بالهمز مختلفون ، وأوجه ماى خلافهم رأيان :

أولها : أنه مصدر نترات ، مثل الرُّجْعَانِ والمُفْرَانِ ، سُمِّيَ به الكتاب القروء ، من باب تسمية المفعول بالمصدر .

والرأى الثاني : أنه وصف على فعلان ، مشتق من القرء ، بمعنى الجمع .

وأما تسميته بالمصحف فكانت تسمية متأخرة جاءت بعد جمع القرآن وكتابه ، وكانت من وضع الناس ، فإنهم يحكون أن عثمان حين كتب المصحف التمس له أسما فانتهى الناس إلى هذا الاسم . غير أن هذا يكاد يكون مردوداً ، فقد سبق أن علمت أن ثمة مصاحف كانت موجودة قبل جمع عثمان ، هي مصحف علي ، ومصحف أبي ، ومصحف ابن مسعود ، ومصحف ابن عباس ، ومصحف جعفر الصادق .

والمصحف : هو الجامع للمصحف المكتوبة بين الدفتين .

ويقال فيه : مُصْحَفٌ ، ومِصْحَفٌ ، بضم الميم وكسرها مع فتح الحاء ، والضمة هي الأصل ، والكسرة لاستئصال الضمة ، فن ضم جاء به على أصله ، ومن كسر فلاستئصال الضمة .

٩١ - جمع القرآن

ولقد مات رسول الله والقرآن كله مكتوب على العُصْبِ جريد النَّخْلِ - وَاللُّخْافِ - صفائح الحجارة - وَالرَّقَاعِ - وَالْأَدِيمِ وَالْأَكْتافِ - عظام الأكتاف - وَالْأَقْتَابِ - ما يوضع على ظهر الإبل - كما كان عنوظاً في صدور الرجال يحفظه حفظة من المسلمين .

وتبل أنت يقبض الله رسوله إليه عارض الرسول ما أنزله عليه ربّه بسوره وآياته على ما حفظه عنه حفظة المسلمين ، فكان ماى صدور الحفظة صورة مما كان في صدر الرسول .

وكان لابد لهذا المكتوب على الرقاع وغيرها من أن يُعرض على الحفوظ في الصدور ليخرج من

بينهما كتابُ الله في صورة مقرونة ، كي يُقيد منه الناس جميعاً على تعاقب الأزمان ، فما تُفنى الرُفَاع ولا غيرها ، ثم هي مُعرضة للجلى والانتشت ، وما يُفنى الحفظه ، وهم إلى فناء ، ولا الناقلون عنهم ، وليس لهم مبرة العاصرة .

ويحرك الله المسلمين لهذه الحسنة حين أستعحر القتلُ يوم النجامة بقراء القرآن ، فيخف عمر بن الخطاب إلى أبي بكر ، وكان عندها خليفة ، وكان الذي أستخف عمر إلى أبي بكر فرزعه من أن يتخطت الموتُ القراء في مواطن أخرى ، كما تخطفهم في ذلك الوطن - أعنى النجامة - فيضيع على المسلمين جماع دينهم وبمز عليهم كتابهم .

وحين جلس عمر إلى أبي بكر أخذ يناقشه فيما أتى إياه ، من جمع القرآن ، بعد أن بسط السبب الحافر ، وتابث أبو بكر يُراجع نفسه ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت ، وكان من كتّاب الوحي ، كما مرّ بك ، وحضر زيدٌ نجسٌ أبي بكر وعمر وسمع منهما ما هما فيه ، فإذا هو معهما في الرأي ، وإذا أبو بكر حين يجد من زيد حُسن الاستجابة يتجه إليه يقول : إِنَّكَ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا تَنْتَهِيكَ ، وقد كتبتُ نكتب الوحيَ لرسولِ الله ، فتتبع القرآنُ فأجمعه .

ومضى زيدٌ يتتبع القرآن يجمعه ويكتبه ، وكان زيدٌ حافظاً ، فديسر عليه حفظه ما كتّف به ، ولكنه كان إلى هذا لا يفتح في إثبات الآية يختلف فيها إلا بشهادة .

واجتمعت هذه الصحف في بيت أبي بكر حياته ، ثم في بيت عمر حياته .

١٢ - مصحف عثمان

وكما حرّكت لجنةُ الإمامة عمرَ إلى حمنة ، حرّكت لجنةُ أخرى - بعد مقتل عمر - عثمانَ إلى حمنة ، فقد قدّم حذيفةُ بنُ اليمان من حرب أرمينية وأذربيجان على عثمان فرعاً من اختلاف المسلمين في قراءة القرآن ، يقول عثمان : أدرك الأمة قبل أن يتخلفوا .

وكما استجاب أبو بكر إلى عمر أستجاب عثمان إلى حذيفة ، فأرسل عثمانُ يطلب الصحف من عند حمنة بنت عمر ، زوج النبي . وأرسلت حنيفة بالصحف إلى عثمان ، وجمع عثمانُ إليه زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكلهم من كتّاب

الوحى ، وأمرهم بتسخير هذه الصحف . فكتبوا منها سبع مصاحف . ثم ردّ عثمانُ الصحفَ (١) إلى حفصة ، فلم تزل عندها حتى أرسل مروان بن الحكم بن أبي العاص فأخذها فخرقها ، كما ذكر أبو بكر السجستاني (٢)

ويقول أبو بكر السجستاني في مكان آخر بسند متصل عن سالم بن عبد الله : إن مروان كان يرسل إلى حفصة بأهلها الصحف التي كتب فيها القرآن ، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها . قال سالم : فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر : ليرسلن إليه بتلك الصحف . فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر ، فأسر بها مروان فشقت . فقال مروان : إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كُتِبَ وحُفِظ بالمصحف فخشيتُ إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب ، أو يقول : إنه قد كان شيء منها لم يكتب (٣) .

ولا ندرى إلى أي حد كان توفيق مروان فيما فعل ، ولكنه ، وهو الرجل الذي كان معاصراً لما وقع ، كان عليه أن يطمئن إلى أن الأمر قد تمّ على أحسن ما يكون دقةً وضبطاً ، وما نُقلته غاب عنه كيف احتاط عثمان لذلك ، وما نُقلته إلا كان شاهداً عثمان وهو يُخطبُ الناسُ يُناشدهم أن يأتوه بما مهم من كتاب الله ، وكان عهدهم بالنبي قريباً ، إذ لم يكن قد مضى على وفاته أكثر من ثلاث عشرة سنة . وما نفلن الناس إلا وفوا لعثمان ، وجاءه كلُّ رجلٍ بما كان عنده ، فامدّ كان الرجل يأتيه بالورقة والأديم فيه القرآن .

ولقد جمع من ذلك عثمان الشيء الكثير . وما وقف عثمان عند هذه بل اتقد دعاهم رجلاً رجلاً فبأشده : لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول الرجل : نعم . حتى إذا فرغ من ذلك قال : من أكتب الناس ؟ فقال الناس : كاتب رسول الله زيد بن ثابت . قال عثمان : بأيّ الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص — وكان سعيد أشبههم لهجةً برسول الله — قال عثمان : قلّيل سعيد وليكتب زيد .

هذا كله فعله عثمان ، وفعل إلى جانبه الاستئناس بالصحف التي تمّ جمعها في عهد أبي بكر وشارك فيها عمر ، والتي كانت عند حفصة ، تلك الصحف التي تمثلت المصحف الأول للمتمد .

(١) وبنان : إنه نسخ من المصحف أربعة مصاحف أرسلها إلى البصرة والكوفة والحام ، واحتفظ بالرابع في المدينة .
(٢) المصاحف السجستاني (ص : ١٠) .
(٣) المصاحف (٢٤ - ٢٥) .

من أجل هذا لم يختلف زيد وسعيد في شيء ، ووجدنا ما أجمع لهما من قبل علي يد أبي بكر وعمر .
هو الذي جمعه عثمان ثمانية وأستخلف الناس عليه .

ومحكي المؤرخون أن زيدا وسعيدا لم يختلفا إلا في حرف واحد في سورة البقرة ، فقال
أحدهما « الثابت » . وقال الآخر « الثابوه » . واختيرت قراءة زيد بن ثابت ، لأنه كاتب الوحي .
وأرسل عثمان ستا من هذه المصاحف إلى مكة ، والشام ، واليمن ، والبحرين ، والبصرة ، والكوفة ،
وحبس مصحفا بالمدينة ، وأمر عثمان فخرق ما كان مخالفا لمصحفه .

وقدمت بك أن علي بن أبي طالب كان له مصحف باسمه ، أعني كان إليه جمعه ، وأنه بعد موت
النبي كان قد أفسم ألا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ، ففعل .

وينقل أبو بكر السجستاني^(١) بسند متصل عن أشعث ، عن ابن سيرين ، أنه حين تخلف علي
عن بيعة أبي بكر أرسل إليه أبو بكر يقول له : أكرهت إمارتي يا أبا الحسن ؟ فقال علي : لا والله ، إني
أفست ألا ارتدي برداء إلا لجمعة . فبايعه ثم رجع .

ثم يقول أبو بكر : لم يذكر « المصحف » أحد إلا أشعث ، وهو ابن الحديث . وإنما قال : حتى
أجمع القرآن ، يعني أتم حفظه .

غير أن ابن النديم — فيما نقلت إليك عنه قبل — يذكر أنه رأى عند أبي يعلى حمزة المصنف
مصحفا سقطت منه أوراق بخط علي بن أبي طالب بتواريه بنو الحسن ، ثم أورد ترتيب السور فيه ، وقد
تقلناها لك فيما سبق .

ولقد كان إلى مصحف علي مصاحف أخرى مرت بك ، هي مصحف أبي ، ومصحف ابن
مسعود ، ومصحف ابن عباس ، ومصحف جعفر الصادق . وكان ثمة مصاحف أخرى هي : مصحف
لأبي موسى الأشعري ، ومصحف للمقداد بن الأسود ، ومصحف لسالم ، مولى أبي حذيفة .

ولقد كانت هذه المصاحف موزعة في الأمصار ، فكان أهل الكوفة على مصحف ابن مسعود ،
وأهل البصرة على مصحف أبي موسى الأشعري ، وأهل دمشق على مصحف المقداد بن الأسود . وأهل
الشام على مصحف أبي بن كعب .

(١) المصاحف (ص : ١٠) .

وكان ثم خلافاً بين هذه المصاحف ، وهذا الخلاف هو الذي شهد به حذيفة حين كان مع الجيش في فتح أذربيجان . وهذا الخلاف هو الذي فزع من أجله عثمان فهض يجمع أصول القرآن ويجمع إلى هذه الأصول الحفظلة الموثوق بهم .

فتمت مراحل ثلاث مرّ بها تدرين المصحف :

أولى هذه المراحل : تلك التي كانت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان من حوله كتابه يكتبون ما يُلقى عليهم ، وكان الرسول حربصاً على الألبكتب عنه غير القرآن ، حتى لا يلتبس به شيء آخر . ويروون عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمتعه .

ولم يترك رسول الله دنياه إلى آخرته إلا بعد أن عارض ما في صدره على ما في صدر الحفظلة الذين كانوا كثرة ، وحديثك ما يُقال عن كثرتهم أنه في غزوة بدر مؤونة ، قُتل منهم — أي من القرآء — سبعون . ثم حديثك عن كثرتهم أنه كانت منهم سيّدة ، هي أم ورقة بنت عبد الله بن الخطاب ، وكان رسول الله يزورها ويسمّيها الشهيذة ، وكانت قد جهت القرآن ، وقد أمرها رسول الله أن تؤم أهل دارها^(١) .

ثم حديثك دليلاً على أن القرآن كتب في حياة الرسول ، وأنه كتب في صحفة وضبط ، ما رواه البراء مع نزول قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٢)) قال الرسول : أذع لي زبناً وأيسجج بالروح والدواة والكتف ، ثم قال : أكتب « لا يستوي » أي إن الرسول كان يُعلى على كتابه لساعته .

ثم لذلك تذكّر في إسلام عمر أن رجلاً من قريش قال له : أختك قد صحبتت — أي خرجت عن دينك — فرجع إلى أخته ودخل عندها بيتها وأطعمها لظمة شجّ بها وجهها . فلما سكت عنه الغضبُ نظر فإذا صحيفة في ناحية البيت فيها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سُبْحَانَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(٣) ﴾ وأطاع على صحيفة أخرى فوجد فيها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : طه ه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْتَقِيَ^(٤) ﴾ فأسلم بعد ما وجد نفسه بين يدي كلام مُعجز ليس من قول بشر .

(١) الطبرقات الكبرى ، لابن سعد .
(٢) النساء : ٦٥ .
(٣) الحديد : ١ .
(٤) طه : ١ .

فهذه وتلك تدلانك على أن الكتاب كانوا يكتبون بإملاء الرسول ، وأن هذا المكتوب كان يتناوله الناس .

والثانية من تلك الراحل : ما كان من عمر مع أبي بكر حين استخّر القتل بالقراء في « التيمامة » ، وما انتهى إليه الرأي بين أبي بكر وعمر في أن يكلا إلى زيد بن ثابت جمع الصحف ، لتكون معارضة بين ما هو مكتوب في الألواح وبين ما هو محفوظ في الصدور ، قبل أن تأتي الحروب على حفظة القرآن ، فما من شك في أن الاثنين يكمل أحدهما الآخر ، لمن أراد أن يبلغ الكمال والدقة والضبط .

وما يمنع من هذا الذي فكر فيه عمر أن يكون هناك جمع سابق على يد نفر من الصحابة ، مثل ما فعل « علي » ومثل ما فعل « ابن مسعود » ، ومثل ما فعل غيرهم .

وما كان هذا يغيب عن « عمر » ولكن كان تمة تفرق بين ما فكر فيه « عمر » وما سبق بعض الصحابة به ، فلقد كان الرأي عند « عمر » أن يبادر في ظل وجود القراء إلى إيجاد مصحف رئيسي بتكليف من الخليفة ، والخليفة أقوى على حشد اليهود العظيمة لهذا العمل العظيم .

واقدم أحسن زيد بقل المهمة التي أرادها عمر ، وأرادها معه أبو بكر ، فأبو بكر وعمر لم يربدا عملاً فردياً يحمل عبئاً فرداً واحداً ، وإنما أراد عملاً جماعياً تحمل عبئته الخلافة وباسم الخلافة يصدر .

من أجل ذلك قال زيد : فوالله لو كنا فردي نقل جبل من الجبال ما كان بأنقل على مما كان أمروني به من جمع القرآن .

ومن أجل ذلك مضى زيد بهجرى ، لم يكفّف بما في صدره وما بين يديه ، بل افقد تلس آية يفقدتها فوجدتها عند رجل من الأنصار يدونها ، وهي « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ^(١) » .

ومن أجل ذلك قال أبو بكر لمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت : أهدنا على باب المسجد فن جاءنا بشاهدين على شيء من كتاب الله فأكتباه .

ومن أجل ذلك لم يقدم زيد عن السمي ليجد آخر المطاف آخر سورة التوبة مع خزيمه بن ثابت .

(١) الأحزاب : ٤٣ .

إذن فقد كان مصحف أبي بكر وعمر أول مصحف رسمي جمعه زيد بن ثابت لما في ظل هذا التعرّي الدقيق ، الذي كان أبو بكر وعمر من ورائه . غير أن هذا المصحف الرسمي لم يأخذ طريقه الرسمي إلى الأمصار ، وأصل مقتل عمر هو الذي أخرج ذلك .

والرحلة الثالثة والأخيرة هي الرحلة التي تمت على يد عثمان ، وكانت نعمة للرحلة الرسمية التي بدأت في عهد أبي بكر وشاركه فيها عمر ، فلقد وقع الذي كان يخشاه عمر ، والذي فكر من أجله في هذا الجمع الرسمي ، وتحوّل به القتل عن أن يفضي فيه إلى آخره .

فلقد مرّ بك كيف استقل كلُّ مصر بمصحف ، وكانت مصاحف فردية لم يجتمع لها ما أجمع لمصحف أبي بكر الذي انتهى إلى حفصة ، ثم انتهى إلى عثمان ، من جهد جماعي مُستوعب ، ولقد سعى « علي » جهده ، وسعى « أبي » جهده ، وسعى « ابن عباس » جهده ، وسعى « جعفر الصادق » جهده ، ولكن هذه الجهود لو تلاقت كما تلاقت حياة أبي بكر وعمر انخفضت لتمديد كثير ، ودليلاً على ذلك أنه لما خرج إلى الأمصار مصحف عثمان دان الناس لتحريره قبل أن يدبروا السلطان الخليفة ، وما يستطع أحد أن يفتن بالمسلمين الذين والصفت عن أن يفتنوا لأقوى الخلفاء بلزومه رأيهم ، إن كانوا يعرفون أنهم على الحق وأن الخليفة على غير الحق في مثل هذا الأمر الديني الجليل ، ولكن انصياع المسلمين في الأمصار كلها لمصحف عثمان ، وما كان عثمان بالعتيف ، بدائك على أن المصحف العثماني خرج من إجماع الطمأنة القلوب إليه .

ويروى أبو بكر السجستاني بسند متصل عن « علي » في المصاحف وحرق « عثمان » لما : « لو لم يصنعه عثمان لصنعت^(١) » .

ولقد كان « علي » صاحب مصحف اختفى بظهور مصحف عثمان . ولكن هذا لم يمنعه من نصرة الحق الذي جاهد من أجله حياته كلها .

والذي قبله « علي » قبله « ابن مسعود » ، ولكن بعد لآي^(٢) ، وقبله بعد هذين كثيرون من الصحابة .

يروى أبو بكر السجستاني بسند متصل عن مصعب بن سعد ، قال : أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف ، فأعجبهم ذلك ولم ينكر ذلك منهم أحد .

(٢) المصاحف : (ص : ١٨) .

(١) المصاحف : (ص : ١٤) .

وَمَا أَجَلَ هَذِهِ الَّتِي فَعَلَهَا عُثْمَانُ ، وَحَسَبَهُ عَنْهَا مَا يَرَوِيهِ أَبُو بَكْرٍ السُّجِسْتَانِيُّ بِسَنَدٍ مُتَّصِلٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ يَقُولُ : خَصَلَتَانِ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ لَيْسَتَا لِأَبِي بَكْرٍ وَلَا لِعُمَرَ : صَبْرُهُ نَفْسَهُ حَتَّى قِيلَ مَظْلُومًا ، وَجَعَهُ النَّاسُ عَلَى الْمُصْحَفِ .

وَحَسَبُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْحَالَ فِي اخْتِلَافِ النَّاسِ لَمْ تَسْكُنْ أَيَّامَ عُثْمَانَ فِي الْأَمْصَارِ دُونَ الْمَدِينَةِ ، بَلْ لَقَدْ تَمَيَّزَتِ الْمَدِينَةُ أَيْضًا ، فَتَقَدَّرَ كَانِ الْمَعْلُومُونَ فِيهَا لِكُلِّ مَعْلَمٍ قِرَاءَتَهُ ، فَجَمِلَ الْفِلْدَانُ يَلْتَمِعُونَ فَيَخْتَلِفُونَ . فَكَانَ هَذَا لِعُثْمَانَ ، إِلَى مَا بَلَّغَهُ مِنْ حُدُوبَةِ ، مِمَّا أَفْرَعَهُ وَجَمَعَهُ يَقُومُ بَيْنَ النَّاسِ خُطْبِيًّا ، وَيَقُولُ : أَنْتُمْ عِنْدِي مُخْتَلِفُونَ فِيهِ فَتَلْحَنُونَ ، فَمَنْ نَأَى عَنِّي مِنَ الْأَمْصَارِ أَشَدُّ فِيهِ اخْتِلَافًا وَأَشَدُّ لَحْنًا ، اجْتَمَعُوا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ رَاكِبُوا لِلنَّاسِ إِمَامًا .

من أجل هذا سُمِّيَ مصحف عثمان : الإمام .

وَقَدْ أَرْسَلَ عُثْمَانُ مِنْ هَذَا الْمُصْحَفِ نُسْخًا لِلْأَمْصَارِ — كَمَا سَرَّ بِكَ — وَأَمَرَ بِأَنْ يُحْرَقَ مَا عَدَّهَا . وَيَحْكِي أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ الدُّمَرِيَّ فِي كِتَابِهِ «مَسَائِكُ الْأَبْصَارِ»^(١) . وَهُوَ يَصِفُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ : «وَأَلَى جَانِبِهِ الْأَيْمَنِ الْمُصْحَفُ الْعُمَيْيُّ بِحِطِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» .

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْمُصْحَفَ كَانَ بِدِمَشْقَ حَيَاةَ الدُّمَرِيِّ ، أَيْ إِلَى النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ ، فَاتَّقَدَّرَتْ وَفَاةَ الْعُمَرِيِّ سَنَةَ ٧٤٩ هـ .

وَيُرْجِحُ الْمُتَمَصِّلُونَ بِالْقِرَاءَاتِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ هَذَا لِلْمُصْحَفِ هُوَ الَّذِي كَانَ فِي دَارِ الْكُتُبِ بِمَدِينَةِ لَيْبِنِبْرَادِ ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْمَجْلَتِ ، وَلَا يَزَالُ بِهَا إِلَى الْيَوْمِ .

وَيُرَوِّي السُّفَاغِيُّ فِي كِتَابِهِ «غَيْثُ النِّفْعِ» : «وَرَأَيْتُ فِيهِ — بِعِنَى مُصْحَفِ عُثْمَانَ — أَثَرَ الدَّمِ ، وَهُوَ بِالْمَدْرَسَةِ الْفَاضِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ» .

وَلَقَدْ كَانَ فِي دَارِ الْكُتُبِ الْعُلُوبِيَّةِ فِي النَّجَفِ مُصْحَفٌ بِأَنْطَلَاةِ الْكُرُوفِيِّ مَكْتُوبٌ فِي آخِرِهِ : «كُتِبَ عَلَيَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ» ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي تُوُفِيَ فِيهَا عَلِيٌّ .

١٣ - كُتِبَ الْمُصْحَفُ

وَلَقَدْ كُتِبَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ كُتُبًا عَرَضُوا فِيهَا لِلْمُصْحَفِ التَّدْبِيغَةَ الَّتِي سَبَقَتْ مُصْحَفَ عُثْمَانَ ، وَالَّتِي جَاءَ مُصْحَفَ عُثْمَانَ مُأْمِنًا لَهَا ، نَذَرَ مِنْهَا :

(١) السالك (١ : ١٩٥ طبعة دار المكتب المصرية) .

(٢) غيث النفع في التراجم السج (ص : ٢٣٠) .

- ١ - اختلاف مصاحف الشام والحجاز والمراق ، لابن عامر ، للتوفى سنة ١١٨ هـ .
- ٢ - اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة ، عن الكسائي ، للتوفى سنة ١٨٩ هـ .
- ٣ - اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف ، للفراء ، للتوفى سنة ٢٠٧ هـ .
- ٤ - اختلاف المصاحف خلف بن هشام ، للتوفى سنة ٢٢٩ هـ .
- ٥ - اختلاف المصاحف وجامع القراءات ، للمدائني ، للتوفى سنة ٢٣١ هـ .
- ٦ - اختلاف المصاحف ، لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ، للتوفى سنة ٢٤٨ هـ .
- ٧ - المصاحف والمجاهد ، لمحمد بن عيسى الأصبهاني ، للتوفى سنة ٢٥٢ هـ .
- ٨ - المصاحف ، لأبي عبد الله بن أبي داود السجستاني ، للتوفى سنة ٢٦٦ هـ .
- ٩ - المصاحف ، لابن الأنباري ، للتوفى سنة ٢٢٧ هـ .
- ١٠ - المصاحف ، لابن أشتة الأصبهاني ، للتوفى سنة ٣٦٠ هـ .
- ١١ - غريب المصاحف للوراق .

وترى من هذا المرض لهذه الكتب وهوانها أن المصنف الإمام لم يُبَيِّح المصاحف، التي جاء ليُلقبها، إلغاء تاماً، وأن هذه المصاحف بخلافها على المصنف الإمام ظلمت حياً، إن لم تكن كتابة فحفظاً، وإن كنا نرجح الأولى. وأول كتاب في هذا كان لابن عامر - كما ترى - وابن عامر كانت وفاته سنة ١١٨ هـ، أي بعد مقتل عثمان بما يقرب من ثلاثة وعشرين سنة، فلقد كانت وفاة عثمان في الخامسة والثلاثين من الهجرة. ولقد أنهى إلينا من هذه الكتب كلها كتاب المصاحف لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، وقد نقلت لك نصوحاً سرته بك، وأشرت إلى موضعها من النسخة المطبوعة من هذا الكتاب.

ويكاد يكون كتاب أبي بكر السجستاني جامعاً لكلام من سبقوه، لتأخره في الزمن عنهم، وما أظن من بعده أضاف كثيراً. أعني بهذا أن كتاب أبي بكر السجستاني يكاد يُمثل لنا هذا الخلاف كله.

وإني لأعد إقدام هؤلاء النمر من السلف على مثل هذا التأليف إجماعاً لخلاف حاول الخلفاء الثلاثة أبو بكر، وعمر، وعثمان - أو قُل، الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ - أن يضعوا له نهاية، بالمحاولة الأولى التي تمت على يد أبي بكر وعمر، ثم بالمحاولة الثانية التي تمت على يد عثمان وأقره عليها عليّ، وشارك فيها كثير من الصحابة، ومنهم من كان صاحب مصحف. مثل «أبي».

وعثمان لم يقدم على ما فعله إلا حين قرَّبه الخلاف، ولم يرض ما أقدم عليه إلا بعد أن أطمأنت نفسه

إلى ما انتهى إليه ، ولم يطمئن إليه أطمئنانه إلا بعد أن آزرته عليه الكثرة . وبعد هذا كله وقف عثمان موقفه الحازم القاطع فالزم الأمصار بالمصحف الإمام ، ثم أحرق ما عداه . ومعنى هذا أنه لا رجعة إلى هذا الخلاف ، ولا سبيل إلى الرجعة إليه ، إذ لو صح أن نمة شكاً وقع في رُوع عثمان لما كان منه هذا الفرار الحازم القاطع .

وأملك تذكر ما كان من مروان من إحراقه مصحف حفصة ، الذي كان مرجعاً من مراجع الإمام . وقد أراد من هذا ألا يسكون نمة رجعة إلى الوراء تُثير هذا الخلاف في كتاب قال فيه تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ^(١)) .

وبعد ما يقرب من قرن إلا قليلاً يطالنا ابن عاصم بمؤلفه في اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق ، أو قل بعد أن أختفى جيل القراء الأول والثاني والثالث من الميدان ، وبعد أن نهض أصحاب المصحف الإمام أيديهم من أدلتهم واطرحوها وأحرقوها ، بعد هذا كله تُثار قضية لا تكافؤ فيها ، أدلتها الخلافية قُطِع فيها بالرأي ، وأستبعد شيء ، لا يستقيم ، وأقيم مقامه شيء مستقيم .

وإنما من أجل هذا من القائلين - لاخوفاً على ما بين أيدينا - بأن إثارة مثل هذا ليست نوعاً من الدراسة ، فتلك حراسة بترأه لا تملك أسلوبها العلمي الصحيح . وقد كنا نرغب بها لو كانت شيئاً جديداً لم نعرفه البيئته الأولى حين حسكت في أسره ، بل لقد كان شيئاً مهوداً للبيئة الأولى نعرفه ونعرف أكثر منه ، ولقد حسكت فيه وفرغت منه ، وإثارته بعد هذا ليسكون شيئاً يدرس نوعاً من الكيد ، ولو كنا نملك لعقينا آثاره كما عفى عثمان آثاراً مثله ، ولن نكون معها متعجبين أو متسفين أو خائفين ، بل نكون مع الحزم الذي اتصف به «عثمان» وناصره عليه «علي» ، واجتمع معه في الرأي عليه اثنا عشر صحابياً ، جميعهم عثمان لهذا العمل الجليل .

وما صدقها كلمة جرت على لسان أبي بكر السجستاني في ختام عرضه لمصحف «أبي بن كعب» حين يقول : لا زسى أن يُقرأ القرآن إلا بمصحف عثمان الذي اجتمع عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن قرأ إنسان بخلافه في الصلاة أمرته بالإعادة .

ولقد جاء في المصحف الإمام من الرسم القديم ، ما كان مظنة اللبس ، ولقد رأى عثمان أن السنة العرب تقيمه على وجهه ، وإن بدا على غير وجهه ، فلم يمرض له ؛ ولعل هذا هو تفسير ما عزي إلى عثمان حين قال :

(١) الحجر : ٩

إن فيه لحنًا ومُتقيمه للعرب بالسنتها . ويزيد هذا بيانًا لقوله ، أعني : عثمان : « لو كان السُّبُلِي من هُذَيْل والسكاتب من ثَقِيف لم يوجد فيه هذا » .

ويقول ابن أشتة في كتابه « المصاحف » : جميع ما كتب خطأ يجب أن يقرأ على صحة لفته لا على رسمه ، وذلك في نحو « لا أوضعوا » و « لا أذبحنه » بزيادة ألف في وسط الكلمتين ، إذا لو قرئ بظاهر الخط لكان لحنًا شديدًا ، يقلب معنى الكلام ويخل بنظامه .

ويقول أبو بكر السجستاني في كتابه « المصاحف »^(١) تمثيلاً على الحديث المنزول إلى عثمان : « هذا عندي يعني : بلغتها - يريد : معنى قوله بالسنتها - وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرؤونه » .

ويؤيد هذا ما روى عن عمر بن الخطاب : « إنا لترغب عن كثير من لحن أبي . يعني : لغة أبي »^(٢) .

١٤ - تطهير عن كتب المصاحف

ويمزو أبو بكر السجستاني إلى عائشة ، يرويه هشام بن عروة عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن لحن القرآن « إن هذان لساجران »^(٣) ، وعن قوله تعالى « وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ زَكَاةً^(٤) » ، وعن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ^(٥) » ، فقالت : يا بن أخي ، هذا عمل السكاتب أخطأوا في الكتاب^(٦) .

ومثل هذا الذي عزمي لعائشة يُعزى لأبان بن عثمان يرويه الزبير يقول : قلت لأبان بن عثمان : كيف صارت « أَسْكِنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَيُؤْتُونَ زَكَاةً وَيُؤْتُونَ زَكَاةً وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب ؟ قال : من قبل السكاتب ، كتب ما قبلها ثم قال : ما أكتب ؟ قال : أكتب « للمؤمنين الصلاة » فكاتب ما قبل له^(٧) .

ويتضم إلى هذا ما يُعزى إلى سميد بن جبير أنه قال : في القرآن أربعة أحرف لحن : « وَالصَّالِحِينَ » ، و « وَالْمُقِيمِينَ » ، و « قَامِدَقْ وَأَسْكِنَ مِنَ الصَّالِحِينَ^(٨) » ، و « إِنْ هَذَانِ سَاجِرَانِ » . وإليك ما يقوله عالم جليل من علماء التفسير والألفاظ :

(٢) المصاحف لأبي بكر السجستاني : ٢٢

(١) الفناء : ١٦٢

(٢) المصاحف : ٣٤

(٣) المصاحف : ١٠

(١) المصاحف : ٣٢

(٢) طه : ٦٣

(٣) الثالثة : ٦٩

(٤) المصاحف : ٣٣ - ٣٤

يقول الزمخشري محمود بن عمر في كتابه «الكشاف»^(١) : «والصائبون» (المائدة : ٦٩) رفع على الابتداء ، والنية به التأخير عما في حيزه «إن» من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصائبون كذلك ، وأنشد سيبويه^(٢) شاهدا له :

وَالْأَفَاعِلُوا أَنَا وَأَنْتُمْ بُنَاءٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقِ

أى : فاعلوا أنا بُنَاءٌ وَأَنْتُمْ كذلك . فإن قلت : هل زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها ؟ قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول : إن زيدا وعمرو منطلقان ، فإن قلت : لم لا يصح والنية به التأخير ، فكأنك قلت : إن زيدا منطلق وعمرو ؟ قلت : لآتى إذارفته عطفاً على محل «إن» واسمها ، والهامل في محلها هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر ، لأن الابتداء ينتظم الجزأين في عمدهما كما تنتظمهما «إن» في عملها ، فهو رفعت «الصائبون» والنوى به التأخير بالابتداء ، وقد رفعت الخبر بأن ، لأعملت فيها رافعين مختلفين .

فإن قلت : فقوله «والصائبون» معطوف لا يبدله من معطوف عليه فما هو ؟ قلت : مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله «إن الذين آمنوا» ولا محل لها ، كما لا محل لتي عطفت عليها .

فإن قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبية على أن «الصائبين» أئبين هؤلاء الممدودين ضللا وأشدم غيا ، وما سُموا صائبين إلا لأنهم صبثوا عن الأدب كلفا ، أى خرجوا . كما أن الشاعر قدم قواه «وأنتم» تنبيها على أن المخاطبين أرغل في الوصف بالبناة من قومه ، حيث عاجل به قبل الخبر الذى هو «بناة» ، لئلا يدخل قومه في البنى قبلهم ، مع كونهم أرغل فيه منهم وأثبت قديما .

فإن قلت : لو قيل : والصائبين وإياكم ، لكان التقديم حاصلًا ؟ قلت : لو قيل هكذا لم يكن من التقديم فى شيء ، لأنه لا إزالة فيه عن موضعه ، وإنما يقال : مقدم ومؤخر ، للمزال لا لأقار في مكانه ، ويجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض فى الكلام .

وقال الزمخشري^(٣) : «والقيمين» (النساء : ١٦٣) نصب على المدح إيذان فضل الصلاة ، وهو باب واسع . وقد كثره سيبويه على أمثلة وشواهد ، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ فى خط المصحف .

(١) الكشاف : (١ : ٦٦٠ - ٦٦١ طبة الاستقامة)

(٢) الكشاف : (١ : ٢٢٠)

(٣) الكشاف : (١ : ١٥٠)

وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ، ولم يعرف مذاهب العرب وماهم في النصب على الاعتصام من الاثنان ، وحق عليه أن السابقين الأولين الذين مناهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ، كانوا أبدية في الغيرة على الإسلام وذب المظالم عنه من أن يتركوا في كتاب الله نعمة يسدها من بعدهم ، وحرفاً يرفوه من لحق بهم .

وقيل : هو عطف على «بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» أي يؤمنون بالكتاب وبالقيميين الصلاة ، وهم الأنبياء . وفي مصنف عبد الله «وَالْقَائِمُونَ» بالواو ، هي قراءة مالك بن دينار ، والجحدري ، وعيسى النقي . وقال الزمخشري^(١) «بِرَأْسِ كُنْ» (الناقضون : ١٠) عطفاً على محل «فَأَصْدُقْ» . كأنه قيل : إن آخرتي أصدق وأكن . ومن قرأ «وَأَكُونَ» على النصب ، فلي اللفظ . وقرأ عبيد بن عمير «وَأَكُونَ» على الرفع ، وتقديره : وأنا أكون ، عِدَّةٌ منه بالصالح .

وقال الزمخشري^(٢) : «إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» (طه : ٦٣) : قرأ أبو عمرو : «إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» ، على الجهة الظاهرة المكشوفة . وابن كثير وحفص : «إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» ، على قولك : إن زيد لمنطلق . واللام هي الفارقة بين «إِنْ» النافية والخففة من التثنية . وقرأ «أَبِي» لِرَأْسِ ذَانِ لَسَاحِرَانِ . وقرأ ابن مسعود : أن هذان ساحران ، بفتح أن وبغير لام ، بدل من «التجوى» . وقيل في القراءة المشمورة — وهو يعني المصحف الإمام — «إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» ، هي لغة بلحارث بن كعب ، جعلوا الاسم المنفى نحو الأسماء التي آخرها ألف ، كصا وسعدى ، فلم يقلبوها في الجر والنصب . وقال بعضهم : «إِنْ» بمعنى : «نعم» وساحران ، خبر مبتدأ محذوف ، واللام داخلة على الجملة ، تقديره : لهما ساحران ، وقد أوجب به أبو إسحاق .

وهالفت ذاترى في كلام الزمخشري دليلاً جديداً يؤيد ما قلنا من قبل عن القراءات السبع في القرآن وأنها لغات العرب جاءت ميثوثة في القرآن ، وبها كلها يتجه الكلام .

وأما ما جاء ممزوراً إلى عائشة ، فما نطن عائشة تسكت على خطأ الكتاب في كتاب الله وترضى به يشيع ويخرج عن المدينة إلى الأمصار ، ولم تكن بييدة عن عثمان ولا عن الصحابة السكانيين ، وما نظنها كانت أقل منهم حرصاً على سلامة كتاب الله ، وحسبك ما قدمه الزمخشري في هذه .

(٢) الكتاب (٣ : ٧٢) .

(١) الكتاب (٤ : ٥٤٤) .

وأما عن تلك التي تُعزى لأبان بن عثمان ، فلا ندرى كيف جاءت على لسانه ، مع العلم بأنه
عن لم يشهدوا عصر التدوين ، ولا كان حاضر ذلك ، فلقد كانت وفاته سنة ١٠٥ هـ ، وعثمان
مات سنة ٣٥ هـ .

فهذا الذي نُسب إلى « أبان » استنباط لا رواية مأثورة . وهذا الاستنباط الذي استنبطه « أبان »
لا يصح إلا عن مشاهدة أو سماع عن مشاهدة ، وكلاهما لم يتوفر لهذا الحكم .

وثمة شيء آخر : ما يميزه أصحاب التوالمف في المصاحف إلى الحجاج بن يوسف ، وأنه غير في
مصحف عثمان أحد عشر حرفاً ، وقد رواها أبو بكر السجستاني في كتابه المصاحف مرتين :

الأولى بقول فيها : حدثنا عبد الله : حدثنا أبو حاتم السجستاني : حدثنا عبيد بن صهيب ، عن عوف
بن أبي جميلة : أن الحجاج بن يوسف غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً^(١) .

والثانية يقول فيها : قال أبو بكر — يعني نفسه — كان في كتاب أبي : حدثنا رجل ، فألت
أبي : من هو ؟ فقال : حدثنا عبيد بن صهيب ، عن عوف بن أبي جميلة : أن الحجاج بن يوسف
غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً^(٢) .

وهذه هي الأحرف كما ذكرها أبو بكر السجستاني :

١ — كانت في البقرة « لَمْ يَنْسَنَ » فغيرها « لَمْ يَنْسَنَهُ » بالماء (الآية : ٢٥٩) .

وأحب أن أعقب أن ابن مود قرأ « لم ينسن » والأصل فيها « ينسنن » ، فحابت لأن الثانية حرف
علة ، كافي : تنفض ، وتنضي . وقرأ حمزة والسكائي بحذف الماء في الوصل ، على أنها هاء
الكت . وقرأ باقي السبعة بإنبات الماء في الوصل والوقف ، على أنها أصلية . وقرأ « أبي » « لم ينسنه »
بإدغام التاء في السين .

٢ — وكانت في سورة المائدة : « كَرِيبَةً وَمِنْهَا جَا » ، فغيره « شَرِيعَةً وَمِنْهَا جَا » (الآية : ٤٨)
وأحب أن أعقب أن هذه لم يقرأ بها أحد من القراء .

٣ — وكانت في سورة يونس « هُوَ الَّذِي يُنذِرُكُمْ » ، فغيره « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ »
(الآية : ٢٢) .

(١) المصاحف (س : ١٩)

(٢) المصاحف (س : ١١٧)

وأحب أن أعقب أن « يَفْشِرْكُمْ » قراءة ابن عامر ويزيد بن القعقاع . وبفشركم ، أى يحبيكم .
٤ - وكانت في سورة يوسف « أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » ، فغيرها « أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ »
(الآية : ٤٥) .

وأحب أن أعقب : أن هذه لم يقرأ بها أحد من القراء .

٥ - وكانت في سورة المؤمنين « سَيَقُولُونَ رَبِّهِ » ، فغيرها « سَيَقُولُونَ اللَّهُ » (الآيات : ٨٥ و ٨٦ و ٨٩) .

وأحب أن أعقب : أن الأولى هي القراءة المشهورة ، وبالثانية قرأ أبو عمرو ، ويعقوب .

٦ و ٧ - وكانت في سورة الشعراء « مِنَ الْمُخْرَجِينَ » (الآية : ١١٦) فغيرها « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » ،

و « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » (الآية : ١٦٧) فغيرها « مِنَ الْمُخْرَجِينَ » .

وأحب أن أعقب : أن هذه وتلك هي القراءتان المشهورتان .

٨ - وكانت في سورة الزخرف « مَعَانِسُهُمْ » ، فغيرها « مَعِيَّتُهُمْ » (الآية : ٣٢) .

وأحب أن أعقب : أن هذه هي القراءة المشهورة ، ولم يقرأ بالأولى أحد من القراء .

٩ - وكانت في سورة « الَّذِينَ كَفَرُوا » ، « يَأْسَنُ » فغيرها « آسِنُ » (الآية : ١٥) .

وأحب أن أعقب أن حمزة قرأ « يَأْسَنُ » وفقاً وصلوا ، وأن « آسِنُ » هي القراءة المشهورة .

١٠ - وكانت في سورة الحديد « قَائِلِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَتَقُوا » ، فغيرها « وَأَتَقُوا »

(الآية : ٧) .

وأحب أن أعقب أن القراءة المشهورة « وَأَتَقُوا » ولم يقرأ أحد من القراء (وَأَتَقُوا) .

١١ - وكانت في سورة التكويد « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ » فغيرها « بِظَنِينٍ »

(الآية : ٢٤) .

وأحب أن أعقب أن مكياً ، وأبا عمرو ، وعليه ، ويعقوب ، قرءوا « بِظَنِينٍ » أى : منهم ؛ وأن

الباقين قرءوا « بِظَنِينٍ » أى : بئخيل .

هذه هي الأحرف التي يُروى أن الحجاج غيرها في مصحف عمان .

وأحب أن أزيد الأمر وضوحاً ولا أتركه على إيهامه هذا الذي يُثير شكاً ويكاد القول فيه على ظاهره

يعطى لتخرج أن يفتى في كتاب الله :

١ - لقد رأيت كيف روى أبو بكر السجستاني هذا الخبر في كتابه « للمصاحف » في مكانين

بمدين ، وهما وإن اتفقا ، إلا أن ثانيهما رواه أبو بكر في أسلوب يهون فيه من شأن المُسند إليه الخبر .

٢ - ولقد رأيت ، من التعقيب الذي عقبتنا به على هذه الأحرف ، أن ثمانية منها نَحْتَمِلُ قراءات ، وأن ما أثبتته الحجاج كان المشهور .

٣ - ولقد رأيت كذلك أن ثلاثة منها لم يقرأ بها أحد من القراء ، وهي « شريعة » التي غيرت إلى « شرعة » ، و « آتاكم » التي غيرت إلى « أتيتكم » و « معاشهم » ، التي غيرت إلى « معيشتهم » . ونحن نعرف :

٤ - أن الحجاج كان من حُفَظ القرآن المعدودين .

٥ - وأن الحجاج كانت على يديه الجولة الثانية في نقط اصحاب وشكناها ، بعد أن كانت الجولة الأولى على يد الصحابة ، وكانت جولة الصحابة بداية لم تشمل القرآن كله بل كانت نوعاً من التبسيط .

يقول الداني^(١) بسند متصل عن قتادة : بدءوا فنقطوا ثم تحسوا ثم عثروا - وهو يعني الصحابة . ثم يقول في إثر هذا : هذا يدل على أن الصحابة وأكابر التابعين هم المبتدئون بالنقط ورسم الخمس والشور .

وفي الجولة الثانية خلاف ، فن الرواة من يمزوها إلى أبي الأسود الدؤولي بعد أن طلبها منه زياد ، ومنهم من يمزوها إلى يحيى بن يعمر العدواني ، وكان ذلك عن طلب الحجاج . ويقول الداني : إن هذا هو الأعراف .

وما نظن الحجاج ، وهو الحافظ للقرآن - كان بعيداً عن يحيى بن يعمر ، كما لم يكن عثمان بعيداً عن زيد بن ثابت ، وسعيد .

وبهذا نستطيع أن نقول :

١ - إن هذه الأحرف الثلاثة التي لم يقرأ بها أحد لم تكن منقوطة ولا مشكولة ، فبها النقط وبينها ، وكانت على ألسنة الناس كما كانت على لسان الحجاج ، بدليل أنها لم ترد في قراءة ، ولا ندرى كيف ظمت هذه دعوى .

٢ - إن الأحرف الثمانية الباقية ، فيها قراءات ، كما مر بك ، والمشهور منها ما يمزى إلى الحجاج أنه أثبتته ، ولكن من أتى لنا أن هذا الذي يقال إن الحجاج أثبتته لم يكن ، وأن رسم مصحف عثمان كان يشتمل عليه ، وأن الحجاج لم يفعل غير أن بيّنه وميزه .

(١) اللخمي في نقط اصحاب أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (س : ٢-٣)

يؤكد هذا ما روى أن عثمان حين كان يعرض عليه المصحف غيره لم يتسن إلى « لم يتسنه » .
إذن فالذي يعزى إلى الحجاج فإنه عزى إلى عثمان أنه فعله من قبله ، ولا يجمع أن يكون هذا كله - أعني
الأحرف الثمانية - كانت مقروءة ومصحف عثمان ، وأن الحجاج حين نقط وشكل ميز الرسم وبيته ،
استوحى في ذلك من مقروئه ومقروء الناس الذين يقرءون مصحف عثمان .

وإذن فلا تنغير للحجاج في كتاب الله ، ولم يكن ما فعل غير تبين رسم وتمييزه ، وما نظن الحجاج
خرج فيما فعل على مصحف عثمان بقراءة أخرى ، بل نؤكد أنه التزم فيها مقروء مصحف عثمان ،
وأنه لم يفعل غير التمييز والتبيين ، بدليل تلك التي سقناها عن « لم يتسن » و « لم يتسنه » ، وأن الحجاج
فيما فعل كان حريصاً على أن يُمكن للمصحف الإمام ، وأن يتنى عنه ما عساه أن يكون دخل عليه من
قراءات .

١٥ - القراءات

وقد سرك الرأي في القراءات السبع ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف » ،
وأن المراد : على سبعة أوجه من اللغات : متفرقة في القرآن^(١) .
ولقد روى عن عمر أنه قال : نزل القرآن بلغة مضر .

وإذا رجعنا نحصى قبائل مضر وجدناها سبع قبائل ، وهي : هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتميم
الرباب ، وأسد بن خزيمية ، وقريش .

كما يروى عن ابن عباس أنه قال : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة المعجز من هوازن ،
وأثنان لسائر العرب .

والمعجز هم : سمد بن بكر ، وجشم بن بكر ، وأنصر بن معاوية ، وتقيف ، وكان يقال لهم : علياً هوازن .
كما يروى عن أبي حاتم السجستاني أنه قال : نزل القرآن بلغة قريش ، وهذيل ، وتميم ، والأزد ،
وربيعة ، وهوازن ، وسمد بن بكر .

كما يرى السوطي في « الإلتقان »^(٢) آراء غير مُسندة ، منها :

(١) أنها سبع لغات متفرقة لجميع العرب ، كل حرف منها لقبيلة مشهورة .

(٢) أنها سبع لغات : أربع للمعجز هوازن ، وثلاث لقريش .

(١) تأويل مشكل القرآن (س : ٢٦) .

(٢) الإلتقان (س : ١٧) .

(٣) أنها سبع لغات ، لغة قريش ، ولغة لثيمين ، ولغة لجرهم ، ولغة لهوازن ، ولغة لقضاة ، ولغة لنميم ، ولغة لطبي .

(٤) أنها لغة السكّانيين : كعب بن عمر ، وكعب بن لؤي ، ولها سبع لغات .

وهذا الخبر مسند لابن عباس من طريق آخر غير الطريق الأول الذي روى به خبره السابق .

وهذا الاختلاف في التبيين لا يضير في شيء ، فتم لغات سبع مفرقة في القرآن ، أخبر الرسول عن بطنها ولم يُخبر عن تفصيلها ، وكان هذا التفصيل مكان الاجتهاد بين المجتهدين .

وليس معنى الحديث أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة ، تقرأ قريش بلفظها ، وتقرأ هذيل بلفظها ، وتقرأ هوازن بلفظها ، وتقرأ اليمن بلفظها .

وفي ذلك يقول أبو شامة نقلاً عن بعض شيوخه : أنزل القرآن بلسان قريش ، ثم أبيع للعرب أن يقرأوه بلفظهم التي جرت عادتهم باستعمالهم على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ^(١) .

وبعقب ابن الجوزي على هذه الأحرف السبعة يقول : وأما وجه كونها سبعة أحرف ، دون أن لم تكن أقل أو أكثر ، فقال الأكثرون : إن أصول قبائل العرب تنتمي إلى سبعة ، وإن اللغات الفصحى سبع ، وكلاهما دعوى .

وقيل : ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السمة والتيسير ، وأنه لا حرج عليهم في قراءته بما هو في لغات العرب ، من حيث إن الله تعالى أذن لهم في ذلك .

والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعائة ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر ^(٢) .

وكانت هذه اللغات عليها إلى الرسول ، قد أحاطه الله بها علماً ، وحين يقرأ المنزل بين يديه «عنى حين» وهو يريد «حتى حين» ^(٣) ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها .

وحين يقرأ الأسدى بين يديه «نِسْوَدَ وجوه» ^(٤) بكسر التاء في «نورد» ، و «ألم اعتمد إليكم» ^(٥) بكسر المهملة في «أعهد» يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يهز التميمي على حين لا يهز القرشي ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

(١) الإيقان (س : ٤٧) (٢) النشر في القراءات العشر (٢٥-٢٦) .

(٣) اللؤلؤيون : ٥٤ - المصنعات : ١٧٤ و١٧٨ - القاريات : ٤٧

(٥) يس : ٦٠

(٤) آل عمران : ١٠٦

وحيث يقرأ قارئهم « وإذا قول لم^(١) » و « غيض للاء^(٢) » بإشمام الضم مع الكسر ، يُجيزه لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحيث يقرأ قارئهم « هذه بضاعتنا ردت إلينا^(٣) » بإشمام الكسر مع الضم في « ردت » يُجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحيث يقرأ قارئهم « مالك لأنامنا^(٤) » بإشمام الضم مع الإدغام في ميم « تأمنا » يُجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل ، وتكليفه غير هذا عسير .

وحيث يقرأ قارئهم « عليهم » و « فيهم » بالضم ، ويقرأ قارئ آخر « عليهم » و « فيهم » بالصلة ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحيث يقرأ قارئهم « قد أفلح » و « قل أوحى » و « خلو إلى » بالفتل ، يُجيزه لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحيث يقرأ قارئهم « موسى » و « عيسى » و « سبأ » بالإمالة يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحيث يقرأ قارئهم « خبيراً » و « بصيراً » بالترقيق ، يُجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحيث يقرأ قارئهم « الصلوات » و « الطلقات » بالانغميم ، يُجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل^(٥) .

ويفسر لك هذا ما روى عن « عمر » قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفرقان » على غير ما أقرؤها ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أقرأ فيها ، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال له : اقرأ ، فقرأ تلك القراءة . فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال لي : اقرأ ، فقرأت . فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال : هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فأقرءوا منه ما تيسر^(٦) .

وكذلك بنسرك هذا ما روى عن « أبي » قال : دخلت المسجد أصلي فدخل رجل فافتتح « النعل » فقرأ ، فخالفني في القراءة . فلما انتقل قلت : من أقرأك ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم جاء رجل فقام يصلي ، فقرأ وافتتح « النعل » ، فخالفني وخالف صاحبي ، فلما انتقل قلت : من أقرأك ؟ قال : رسول

(٣) يوسف : ٦٥

(٢) هود : ٤٤

(١) البقرة : ١١

(٤) يوسف : ١١

(٥) نأويل مشكل القرآن (ص : ٣٠) - النعمان القرطبي (١ : ٢٩) .

(٦) المرجع السابق .

الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأخذتُ بأيديهما فانطلقت بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقلت : استقرئْ هذين ، فاستقرأ أحدهما . فقال : أحسنت . ثم استقرأ الآخر ، فقال : أحسنت .
ويقول ابن قتيبة : لا ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لفته وما جرى عليه اعتياده طفلاً ونائناً وكملاً لا شدة ذلك عليه ، وعتت الحنة فيه ، ولم يُمكنه إلا بمد رياضة للنفس طويلاً ، وتذليل لسان ، وقطع للمادة^(١) .

١٦ - القراء

ولقد كانت كتابة المصحف بلغة قريش ، أو بحرف قريش ، بذلك أمر عثمانُ زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وهم ينسخون للمصاحف ، وقال لهم : إذا اختلفتم أتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم .
وأرسل عثمان للمصاحف إلى الأمصار ، وأخذ كلُّ أهل مصر يقرءون بما في مصحفهم ، يتلقون ما فيه عن الصحابة الذين تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان بالدينة نفر ، منهم : ابن السائب ، ومعاذ بن الحارث ، وشهاب الزهري ؛ وكان بمكة نفر ، منهم : عطاء ، وطاؤوس ، وعكرمة ؛ وبالكوفة نفر ، منهم : علقمة ، والشامي ، وسعيد بن جبيرة ؛ وبالبحرة نفر ، منهم : الحسن ، وابن سيرين ، وقعادة ؛ وبالشام نفر ، منهم : للغيرة بن أبي شهاب المغزومي ، صاحب عثمان بن عفان .

ثم تجرد قومٌ للقراءة وأعتنوا بضبطها أتم عناية حتى صاروا في ذلك أئمةً يقتدى بهم ، ويرحل إليهم . ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدٍ على تآقي قراءتهم بالتبول ، ولم يختلف عليهم فيها أنسان ، ولتصديهم لقراءة نُسبت إليهم .

فكان بالدينة نفر ، منهم : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم نافع بن أبي نعيم .
وكان بمكة نفر ، منهم : عبد الله بن كثير ، ومحمد بن يحيى .
وكان بالكوفة نفر ، منهم : سليمان الأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائي .
وكان بالبحرة نفر ، منهم : عيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن الملاء .

(١) تأويل مفصل القرآن (س : ٢٢) - النشر (١ : ٢١)

وكان بالشام نقر ، منهم : عبد الله بن عامر وشريح بن يزيد الحضرمي^(١) .
غير أن القراء بعد هذا كثروا وتفرقوا في البلاد ، وأنتسروا في الأقطار ، وكاد يدخل على هذا العلم
ما ليس فيه ، فشمّر لضبطه وتنقيته أئمة مشهود لهم ، منهم :

(١) الإمام الحافظ الكبير أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني ، من أهل دانية
بالأندلس ، وكانت وفاته سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وكتابه في هذا الباب هو : « التيسير » .
(٢) الإمام للقرئ المفسر أبو العباس أحمد بن عمارة بن أبي العباس المهدومي ، التوفي بعد الثلاثين
وأربعمائة ، وله كتب « الهداية » .

(٣) الإمام أبو الحسن طاهر بن أبي الطيب بن أبي غلبون الحلبي ، نزل مصر ، وتوفي بها سنة تسع
وتسعين وثلاثمائة ، وله كتاب : « التذكرة » .

(٤) الإمام أبو محمد مسكن بن أبي طالب القيرواني ، وكانت وفاته سبع وثلاثين وأربعمائة بقرطبة ،
وله كتاب : « التبصرة » .

(٥) الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل ، المعروف بأبي شامة ، وله كتاب « المرشد الوجيز » .
وكان رائد هؤلاء جميعاً ، فيما أخذوا فيه ، أن كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت المصحف
الإمام ، وصحّ سندها ، فهي قراءة صحيحة لا يجوز ردّها ولا يحل إنكارها ؛ وإذا اختلف ركن من هذه
الأركان كانت تلك القراءة ضعيفة ، أو شاذة ، أو باطلة .

وفي ظل هذه القيود التي أجمع عليها القراء :

(١) الموافقة للعربية ولو بوجه .

(٢) الموافقة للمصحف الإمام ، ولو احتمالاً .

(٣) أن يصحّ سندها .

قام الأئمة بتأليف كتب في القراءات ، وكان أول إمام جمع القراءات في كتاب هو أبو عبيد القاسم
ابن سلام ، التوفي سنة أربع وعشرين ومائتين . وقد جعل القراءات نحواً من خمس وعشرين قراءة .
وتوالي بعده أئمة مؤلفون جمعوا القراءات في كتب ، منهم من جعلها عشرين ، ومنهم من زاد ، ومنهم من
نقص ، إلى أن كان الأمر إلى أبي بكر أحمد بن موسى بن الهباس بن مجاهد ، فأقتصر على قراءات سبع

القراء سبع ، هم : عبد الله بن كثير ، في مكة ؛ ونافع بن أبي رؤيم ، في المدينة ؛ وأبو عمرو بن العلاء ، في البصرة ؛ وعاصم بن أبي النجود ، وحزمة بن حبيب الزيات ، وعلى الكسائي ، في الكوفة ؛ وعبد الله ابن عامر ، في الشام .

ثم جاء بعدهم من رفعها إلى عشر ، نذكر منهم إماماً متأخراً وهو : ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد ، المتوفى سنة ٨٣٢ هـ ، وكتابه هو : الذشر في القراءات العشر .

والقراء الثلاثة الذين زادوا على السبعة ، هم : يزيد بن القعقاع ، في المدينة ؛ وديلم بن الحضرمي ، في البصرة ؛ وخلف البزاز ، في الكوفة .

هذا غير قراء جاءوا بقراءات شاذة ، كان على رأسهم ابن شيبوذ ؛ المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، ثم أبو بكر المطار النحوي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ .

١٧ - رأى ابن تينية في القراءات

وقد ناص ابن تينية وجوه الخلاف في القراءات ، فقال^(١) :

وقد ندرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه :

أولها : الاختلاف في إعراب الكلمة ، أو في حركة بنائها بما لا يُزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ - هود : ٧٨ - و ﴿ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ بالنصب - ، ﴿ وَهَلْ نَجَّازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ - سبأ : ١٧ - و ﴿ هَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ ، ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ النساء : ٤٧ ، الحديد : ٢٤ و ﴿ الْبَخْلُ ﴾ بفتح الباء ، والخاء ، ﴿ فَتَنْظِرُهُ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ - البقرة : ٢٨٠ - و ﴿ مَيْسَرَةٍ ﴾ بضم الميم .

ثانيها : أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب ، نحو قوله تعالى ﴿ رَبُّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ سبأ : ١٩ ، و ﴿ رَبُّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ ، الأولى على صيغة الأمر ، والثانية على صيغة للماضي ، و ﴿ إِذَا تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ النور : ١٥ - و ﴿ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ بفتح فكسر فضم : و ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ يوسف : ٤٥ - و ﴿ أُمَّةٍ ﴾ أي : نسيان .

ثالثها : أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ - البقرة : ٢٥٩ - و ﴿ نُشِزُهَا ﴾ بالراء ، و ﴿ حَقِّ إِذَا فَرَّغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ سبأ : ٢٣ - و ﴿ فَرَّغَ ﴾ بالراء والنين للمعجمة .

(١) تأويل مشكل القرآن (٧٨ - ٢٢) .

رابعها : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب ، ولا يغير معناها في الكلام ، نحو قوله تعالى : « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَمِيحَةً وَاحِدَةً » يس : ٢٩ ، و « زَقِيمَةً وَاحِدَةً » ؛ و « كَالْمِينِ التَّنْفُوشِ » القارعة : ٥ ، و « كَالصُّوفِ » .

خامسها : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها ، نحو قوله تعالى : « وَطَلَعَ مَنصُورًا » الواقعة : ٢٩ ، و « طَلَعَ » .

سادسها : أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » ق : ١٩ ، وفي موضع آخر : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

سابعها : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ، نحو قوله تعالى : « وَمَا عَلَّمْتُمْ أُبْدِيهِمْ » و « وَمَا عَلَّمْتَهُ أُبْدِيهِمْ » يس : ٣٥ ، ونحو قوله : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » لقمان : ٢٦ ، و « إِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

ثم قال ابن قتيبة :

فإن قال قائل : هذا جائز في الألفاظ المختلفة إذا كانت للمنى واحداً ، فهل يجوز أيضاً إذا اختلفت المعاني ؟

قيل له : الاختلاف نوهان : اختلاف تغاير واختلاف تضاد .

فاختلاف التضاد لا يجوز ، ولست واجدهُ بحمد الله في شيء من القرآن إلا في الأمر والنهي من النسخ والنسوخ .

واختلاف التغاير جائز ، وذلك مثل قوله : « وَادَّكَّرَ بِمَدَائِمِهِ » أي بمد حين ، و « بَدَأَ مَهْ » أي بمد نسيان له ، و « أَلْمَعْنِيَانِ جَمِيعًا » ، وإن اختلفا ، صحيحان ، لأن ذكر أمر يوسف بمد حين ومد نسيان له ، و « إِذْ تَأَقَّوَتْهُ بِاللِّسَانِ » أي تقبلونه وتقولونه ، و « تَلْفُؤُنَهُ » من اللف ، وهو الكذب ، و « أَلْمَعْنِيَانِ جَمِيعًا » ، وإن اختلفا ، صحيحان ، لأنهم قبلوه ، وقالوه وهو كذب . و « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » على طريق الدعاء والسألة ، و « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » على جهة الخبر ، و « أَلْمَعْنِيَانِ » ، وإن اختلفا ، صحيحان .

و « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا » وهو الطعام ، و « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا » بضم الميم وسكون التاء وفتح الكاف ، وهو الأترج ، فدللت هذه القراءة على معنى ذلك الطعام .

وكذلك « نُشِرُهَا » و« نُشِرُهَا » لأن الإِشَارَ : الإِحياء ، والإِشَارَ : هو التحريك لِمَنَل ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك « فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » و« فُرِّعَ » ، لأن « فُرِّعَ » : خُفِّفَ عَنْهَا الْفَرْعَ ، وفُرِّعَ : فُرِّعَ عَنْهَا الْفَرْعَ .

ثم قال ابن قتيبة : وكل ما في القرآن من تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ، فعل مثل هذه السبيل .

١٨ - تعليل على القراءات

والأمر في القراءات كما يبدو لك ، ينحصر في أحوال ثلاث :

الأولى — وهي تنصل بأحرف الرب أو لسانها — وهي التي قدمنا منها مثلاً في الإمالة ، والإشمام والترقيق ، والتنخيم ، وغير ذلك ، مما لَفَّظَتْ بِهِ الْقِبَالُ ولم تستطع استئثارها غيره ، وهذا الذي قلنا عنه : إنه المعنى بالأحرف السبعة التي جاءت في الحديث .

وما من شك في أن ذلك كان رخصة للعرب يوم أن كانوا لا يستطيعون غيره ، وكان من العسير عليهم تلاوة القرآن بأحد قريش .

ثم ما من شك في أن هذه الرخصة قد نسخت بزوال العذر وتيسر الحفظ ، ونشوء الضبط ، وتعلم القراءة والكتابة^(١) .

والإليك مقال الطبري بعد أن عرفت مقال الطحاوي ، يقول الطبري :

ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه اختلاف الناس في القراءة ، وخاف من تفرق كلمتهم ، جمعهم على حرف واحد ، وهو هذا المصحف الإمام ، واستوثقت له الأمة على ذلك ، بل أطاعت ورايت أن فيما فعله الرشد والهداية ، وتركت القراءة بالأحرف السبعة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها ، طاعة منها له ، ونظراً منها لأنفسها ولن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها ، وعفت آثارها ، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لئلا تنورها وغفوا آثارها .

فإن قال من ضمنعت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرام إيتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم بقراءتها ؟ قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمراً إيجابياً وفرضاً ، وإنما كان أمراً إباحة ورخصة .

(١) معان الآثار لطلحاوي أحمد بن محمد

الثانية : وهي تنصل برسم المصحف وبقائه عهداً غير منقوط ولا مشكول إلى زمن عبد الملك ، حتى قام الحجاج بإسناد هذا العمل إلى رجلين ، هما : يحيى بن بهمر ، والحسن البصرى ، فنقطاه وشكلاه .
وما نرى صحيحاً هذا الذى ذهب إليه القراء من تأويلات كثيرة تكاد تحتمل الكلمة عشرين وجهاً ، أو ثلاثين ، أو أكثر من ذلك ، حتى لقد بلغت طرق هذه القراءات للقراءات العشر فقط تسماًة وثمانين طريقة .

فإن كان هذا اجتهاداً من القراء ، ولكنه كان إسرافاً في ذلك الاجتهاد ، وإنك لو تتعجب ما عتب به الزمخشري في تفسيره على القراء لوجدت له الكثير مما رده عليهم ولم يقبله منهم . فاقب عتب على ابن عامر ، في قراءته لقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ » (الأنعام : ١٢٧) ، فاقد تراها ابن عامر « زَيْنٌ لِّلْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ » برفع « القتل » ، ونصب « الأولاد » ، وجر « الشركاء » ، على إضافة « القتل » ، إلى « الشركاء » والفصل بينهما بغير الظرف .

فقال الزمخشري : فهذا لو كان في مكان الضرورات - وهو الشر - لكان شيئاً مردوداً ، فكيف به في الكلام للنتور ، وكيف به في القرآن الممجز بحسن نظمه وجزالة ، والذى عمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف « شركائهم » مكتوباً بالياء .

وبعث الزمخشري مرة أخرى على أبي عمرو حين يدغم الراء في اللام في قوله تعالى : « قَيْتِفِرُ لَيْنَ بَشَاءِ » (البقرة : ٢٨٤ ، آل عمران : ١٢٩ ، المائدة : ٢٠ و ٤٣ ، النتح : ١٤) فيقولها أبو عمرو : « قَيْتِفِلْمَنَ بَشَاءِ » . ويقول الزمخشري : ومُدغم الراء في اللام لا حين مخطئ خطأ فاحشاً ، وراويه عن أبي عمرو مخطئ مرتين ، لأنه يلحن ، وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجَهْلٍ عظيم .

وكذلك تتبع ابن قتيبة القراء وأحصى لهم الكثير ، وفي ذلك يقول : وما أقل من سلم من هذه الطبقة في حرفه من الفلط والوهم^(١) .

ونحن حين نمسك هذه القراءات أن تبش نكون كمن يحاول أن يخرج على ما أراده عثمان ، ومعه على من قبل ، ثم الصعابة ، على وحدة القرآن تلاوة . هذا بعد أن صح لنا أن هذه القراءات اجتهاد ، وأن رسم المصحف ، وإمهاله نقطاً وشكلاً ، جَرَّ إلى شيء منها .

(١) تأويل شكل القرآن (س : ٤٣)

يقول ابن قتيبة . وهو يناقش بعض القراءات :
وليست تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب فيها ، أو أن تكون
غلطاً من الكتاب .

فإن كانت على مذهب النحويين ، وليس هاهنا لحنٌ بحمد الله .
وإن كانت خطأ في الكتابة ، فليس على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وسلم جنابة الكتاب
في التلصط .

ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف من طريق التهجي ،
فقد كُتب في الإمام : « إن هَذَن لَسَاحِرَان » بحذف ألف الثانية ، وكذلك ألف الثانية تحذف في
هجاء هذا المصحف في كل مكان . وكتب كتاب المصحف : الصلوة والزكوة ، والحياة ، بالواو ،
واتيمناهم في هذه الحروف خاصة على التبيين بهم^(١) .

فنعن إذن بين رسم الكتاب كان ما رسموا آخر الجهد عندهم ، ولقد حفظ الله كتابه بالحفظ
القارئ أكثر مما حفظه بالكتاب الكاتبين ، ثم كانت إلى جانب الحفظ حجة أخرى على الرسم ،
وهي لغة العرب ، أقامت الرسم لتدعيم الحفظ ولم تُقم الحفظ لتدعيم الرسم ، وكان هذا ما عناه عثمان
حين قال : أرى فيه لحنًا وستقيم به العرب بألسنتها . ولقد أقامت بالسنتها ، وتركت الرسم على
سأله مُتتلافي مصحفه الإمام ، الذي كان حرباً على أن يجتمع عليه الأمة الإسلامية ، ومن أجل ذلك
أحرق ما سواه .

غير أن ما فعله عثمان لم يقض على كل خلاف ، وأوسع في هذا انخلاف بقائه المصحف الإمام غير
منقوطة ولا مشكولة ، كما مرّ بك .

من أجل ذلك كان أول شيء عمله الخجاج ، بعدما فرغ من قسط المصحف وشكله ، أن وُكل
إلى «عاصم الجعدي» ، و«ناجية بن رُمح» ، و«علي بن أصم» ، أن يفتحوا المصاحف وأن
يقطعوا كل مصحف يجيدونه مخالفاً لمصحف عثمان ، وأن يُعطوا صاحبه ستين درهماً . وفي ذلك
يقول الشاعر :

وَالأُ رُسُومَ الدَّارِ أَنفَرَا سَكَّانَهَا كِتَابُ نَحَّاءِ البَاهِلِيِّ ابنِ أَصَمِّمَا^(٢)

(١) تأويل شكل القرآن (س : ٤٠ ، ٤١)

(٢) * * * (س : ٢٧)

ونحن اليوم في أيدينا هذا الصحف الإمام أقوم ما يكون ضابطاً ، وأصح ما يكون شكلاً ،
فما أغنانا به عن كل قراءة لا يحملها رسمه ولا يشير إليها ضبطه ، من تلك القراءات التي كانت تلك حالها
التي بسطناها لك .

الثالثة : وهي التي تتصل بإحلال كلمة مكان كلمة ، أو تقديم كلمة على كلمة ، أو زيادة أو نقصان .
وما أعلن هذه تكون كلمة تُذكر بعد أن أصبح في أيدينا للصحف الإمام ، هتاء لنا عثمان في
الأولى ، وزقه إلهنا الحجاج في الثانية ، وما كان هذان الصلحان إلا خطوتين : خطوة دعت خطوة ،
في سبيل الوحدة الكاملة لكتاب الله ، كما حفظه الله على لسان الحفظة من الصحابة والذابين .

وآخر ما نختم به الحديث عن القراءات قول الزركشي في كتابه « البرهان » حيث يقول :

« القرآن والقراءات حقيقتان متنايرتان :

فالقرآن : هو الوحي للنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز .

والقراءات السبع متواترة عند الجمهور ، وقيل : بل مشهورة ؛ والتحقق أنها متواترة عن
الأمم السبعة .

أما تواترها عن النبي صلى الله عليه وسلم ففيه نظر .

١٩ - رسم الصحف

ومن الناظرين في رسم القرآن : فريق صرفهم الإجلال له عن أن يفصلوا بين ما هو وحي من عند
الله حركته به لسان رسوله ، وبين ما صوره ككتاب الرسول حروفاً وكلمات .

وأنت تعرف أن الكلمة الواحدة قد تختلف صورة رسمها على أيدي كتبة يكتبون عن مثل
واحد ، إذا اختلفت طرق تلقئهم للإملاء ، غير أنهم حين يلفظون هذه الكلمة يجمعون على
نطق واحد .

وما من شك في أن القرآن الكريم تعرضَ رسمه لهذا الخلاف ، وكان حفظُ الله له في بقاء
حفظته ، يبي الناسُ عنهم أكثر مما يكون عن القراءة ، وكانوا بهذا مطمئنين ، وحين عدت
الماديات على الحفظة بدأ الخوفُ يَدبُ ، وبدأ تفكيرُ الصحابة يَجِبُ إلى ما هو أبقى ، أهي جمع
القرآن مكتوباً .

وكانت محاولة أبي بكر وعمر التي مرت بك ، واجتمع للناس قراءتهم مكتوباً ، وبدأ شغلهم به هو

مكتوب يترجم شغلهم بما هو متلو، أو يعادله . وأخذ الرسم يميل برشحه وبقومته الحفظ في عهد لم يكن الصعابة منه أبطوا كثيراً عن عهد نزول القرآن .

وما كانت الأمة العربية عهد كتابة الوحي أمة عريقة في الكتابة ، وما كان كقاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا صورة من العصر البادي في الكتابة ، ولم تكن الكتابة العربية بالأمس البعيد على حالها اليوم من التجويد والكمال لإملاء ورشحا . وإن نظرة في رسم للمصنف ، وما يحمل من صور إملائية تخالف ما استقر عليه الوضع الإملائي أخيراً ، لتكشف لك عما كان العرب عليه إملاء ، وما أصبحنا عليه نحن .

وحين أطل عهد عثمان كاد اختلاف الناس في قراءة الرسوم يجر إلى خروجهم على الحفظ ، من أجل هذا فرع عثمان إلى نفر من الصعابة كتبوا للرَسُول وَحِيه ، ليدركوا هذا للرَسُول ، كي يخرجوا منه بصورة خطية تصور ما أجمع عليه الحفظ .

وقد لا يفوتك أن الخط العربي عصر كتابة الوحي إلى أيام عبد الملك بن مروان لم يكن عرف النقط المميز للحروف في صورته الأخيرة ، كما لم يكن عرف شكل الكلمات ، وبقي المصنف الرسوم ينتميه النقط في صورته الأخيرة وينقصه الشكل ، وماش يحميه حفظ الحفظ من اللحن .

غير أن الأمة العربية كانت قد انتشرت وأظلم الإسلام تحت لوائه أماً مختلفة ، وأصبح الحفظ في هذه البيئة الواسعة ، وبين هؤلاء الأقوام المختلفين ، لا يفي غناه أيام أن كانت البيئة محدودة والأقوام غير مختلفين ، من هنا كان لا بد من نقط وشكل على يد « الحجاج » كما مرّ بك .

ولقد كانت هذه المراحل التي مرّ بها جمع القرآن وكتابه ونقطه وشكله نتيجة لتصور الكتابة العربية والخط العربي . إذ لو كانا في كمالها اليوم لما احتاج القرآن في رسمه إلى مرحلة بعد مرحلة ، وأكتفب يوم أن كتب للمرة الأولى في صورة أخيرة .

ونحن بحمد الله ، على الرغم من بعد عهدنا بنزول القرآن ، لم نبتعد عن وعيه كما أنزل ، تصديقاً لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، غير أنه يجب أن يلفتنا إلى قرآنا ما لفت الشيخين أبا بكر وعمر إليه ، ثم ما لفت عثمان إليه ، ثم ما لفت الحجاج إليه . فهذه لفتات أحسن فيها أصحابها الخوف من أن يمس القرآن سوء ، فجمعوه للناس مكتوباً يوم أن خافوا ذهاب الحفظ . ثم جمعوا الناس على مصحف واحد يوم أن خافوا تفرق الناس على مصاحف ، ثم تطلوه وضبطوه يوم أن خافوا أن يتفرق الناس في قراءته .

٢٠ - كتابة المصحف وطبعه

ولقد مر بك كيف كان الوحي يُكتب ، وعلى أى شيء كان يكتب ، ثم : من كانوا يكتبونه .
ومر بك أيضاً كيف جمعه أبو بكر وعمر ، ثم كيف كتب عثمان مصحفه للإمام ، وأرسل .
مصاحف أربعة إلى الأمصار : مكة . والبصرة . والكوفة ، والشام ، وأنه أبقى اثنين آخرين في المدينة ،
اختص نفسه بواحد منها .

ومنذ أن دخلت هذه المصاحف الأمصار أقبل المسلمون يندفخونها ، واقتد ندفخوا منها عدداً كثيراً
لا شك في ذلك .

فنحن نقرأ للممودى وهو يتكلم على وقعة صفين ، التي كانت بين علي ومعاوية ، وما أشار به عمرو
ابن العاص من رفع المصاحف ، حين أحس ظهور « علي » عليه : « وَرَفِيعَ مِنْ مَكْرٍ مُعَاوِيَةَ نَحْوِ
مِنْ خَمْسِائَةِ مَصْحَفٍ ^(١) » .

وما نظن هذا العدد الذي رُفِعَ من المصاحف في مسكر معاوية كان كل ما يملكه المسلمون حينذاك .
والذي نظنه أنه كان بين أيدي المسلمين ما يُرْبِي على هذا العدد بكثير ، هذا ولم يكن قد مضى على كتابة
عثمان لمصحفه الإمام ، وإرساله إلى الأمصار ، ما يزيد على سنين سبع .

والجديد الذي يجب أن نسوقه هنا تلامه من نظروا في نشأة الخط العربي ^(٢) : أن العرب كانوا قبيل
الإسلام يكتبون بالخط الحِمْيَرِيّ - نسبة إلى الحيرة - ثم سمي هذا الخط بعد الإسلام بالخط الكوفي .
وهذا الخط الكوفي قرع - كما يقولون - من الخط السرياني ، وأنه على الأخص طور من أطوار
قلم السريان كانوا يسمونه « السَطْرُ نَبِيطِي » ، وكان السريان يكتبون به الكتاب المقدس ، وعن
السريان أنتقل إلى العرب قبل الإسلام ، ثم كان منه الخط الكوفي ، كما سبق القول .

ولقد كان للعرب إلى جانب هذا القلم الكوفي قلم نَبِيطِي ، أنتقل إليهم من حوران مع رحلاتهم إلى
الشام ، وعاش للعرب ولهم هذان القلمان : الكوفي والنَبِيطِي ، يستخدمون الكوفي لكتابة القرآن ،
ويستخدمون النَبِيطِي في شئون أخرى .

وبالخط الكوفي كانت كتابة المصاحف ، غير أنه كان أشكالاً ، وأستمر ذلك إلى القرن الخامس

(١) مروج الذهب (٢ : ٧٠) .

(٢) كلف الظنون (١ : ٧١٠ - ٧١٤) فهرست ابن النديم (٢٤ - ٢٦) الخط العربي لخليل ناصي .

تاريخ الخط العربي لحمد طاهر الكردي . (وانظر : الخط العربي والمصاحف . كلة تقديم قبل باب ثلاث من هذا الجلد)

تقريباً ، ثم ظهر الخط الثالث . وعاش من القرن الخامس إلى ما يقرب من القرن التاسع ، إلى أن ظهر القلم
النسخ ، الذي هو أساس الخط العربي إلى اليوم .

فقد كتب القرآن بالكوفي أيام الخلفاء الراشدين ، ثم أيام بني أمية ، وفي أيام بني أمية صار هذا
الخط الكوفي إلى أقلام أربعة . ويمزون هذا التشكيل في الأقلام إلى كاتب اسمه « ثعلبة » وكان كاتب
أهل زمانه ، وكان يكتب لبني أمية الصحاف .

وفي أوائل الدولة العباسية ظهر « الضعك بن عجلان » ومن بعده « إسحاق بن سجاد » ، فإذا ما يزيدان
على « ثعلبة » ، وإذا الأقلام العربية تبلغ اثني عشر فلماً : قلم الجليل ، قلم السجلات ، قلم الديباج ، قلم
اسطورمار الكبير ، قلم الثلاثين ، قلم الزهور ، قلم للفتوح ، قلم الحرم ، قلم الثمرات ، قلم اليهود ، قلم
النصص ، قلم الحرفاج .

وحين ظهر الهاشميون حدث خط يسمى : المراق ، وهو المحقق . ولم تزل الأقلام تزيد إلى أن انتهى
الأمر إلى المأمون فأخذ كتابه يتجويد خطوطهم ، وظهر رجل يعرف « بالأحول الحرر » ، فتسكلم على
رسوم الخط وقوانينه وجعله أنواعاً .

ثم ظهر قلم « المرصع » ، وقلم « النساخ » ، وقلم « الرياس » ، نسبة إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل ،
وقلم الرقاق ، وقلم غبار الحلبة .

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً ، ولكنها كلها من الكوفي . حتى إذا ما ظهر ابن مقلة (٥٢٢٨)
نقل الخط من صورة القلم الكوفي إلى صورة القلم النسخي ، وجعله على قاعدة جميلة كانت أساساً
لكتابة الصحاف .

وينقل القرّى عن ابن خليل التكوني : أنه شاهد بجامع « المديس » بأشبيلية ربة مصحف في
أسفار يُسمى به لتعوي خطوط الكوفة ، إلا أنه أحسن خطاً وأبينه وأبرعه وأتقنه ، وأن أبا الحسن بن
الطّليل بن عظمة قال له : هذا خط ابن مقلة .

ثم يقول القرّى : وقد رأيت بالمدينة المنورة — على ما كتبها أفضل الصلاة والسلام — مصحفاً بخط
ياقوت المستعصي^(١) .

ولقد كانت وفاة ياقوت هذا سنة ٦٩٨ هـ^(٢) ، وكان سبباً في هذا اليلدان .

(٢) الفهرست لابن النديم (ص : ٩) طبعة مصر .

(١) فتح الطيب (٦ - ١٠) .

ويقول محمد بن إسحاق : أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ويوصف بحسن الخط : خالد بن أبي الهياج ، رأيت مصحفاً بخطه ، وكان « سعد » نَصَبَهُ لَكْتُبِ المصاحف ، وللشمر والأخبار للوليد بن عبد الملك ، وهو الذي كَتَبَ السِّكِّابَ الذي في قِبْلَةِ مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالذهب من « وَالشَّمْسِ وَضَعَاهَا » إلى آخر القرآن .

ويقال إن عمر بن عبد العزيز قال له : أريد أن نكتب لي مُصْحَفًا على هذا المثال - فكتب له مصحفاً تنوّق فيه - فأقبل عمر يقلّبه ويستحسنه واستكثر عنده فردّه عليه .

ومالك بن دينار مولى أسامة بن لؤي بن غالب ، وُيكنى : أبا يحيى . وكان يكتب المصاحف بأجر . ومات سنة ثلاثين ومائتين .

ثم أورد ابن إسحاق نقرأ من كتاب المصاحف بالخط الكوفي وبالخط الحقيق الأشق ، وقد رآهم جميعاً . والذي لا شك فيه أن هذه الأقسام المختلفة تبارت في كتابة المصحف ، كما كتب بأقلام غير هذه ، ذكر منها السكردى في كتابه (تاريخ الخط العربي) قلمين هما : سياقت ، وشكسته ، وأورد لهما نماذج . وظلت المصاحف على هذه الحال إلى أن ظهرت الطابع سنة ١٤٣١ م ، وكان أول مصحف طبع بالخط العربي في مدينة « هبرج » بألمانيا ، ثم في « البندقية » في القرن السادس عشر الميلادي .

وحين أخذت الطابع تشيع كثر طبع المصحف ، إذ هو كتاب المسلمين الأول وعليه مقتدم .

٢١ - تجزئة المصحف

ولقد سقنا لك الحديث عن عدد سور القرآن ، وعدد كلماته ، وعدد حروفه ؛ وما نظن هذا كله بدأ مع السنين الأولى أيام كان المسلمون مشغولين بجمع القرآن وتدوينه ، عهد أبي بكر وعمر ، ثم عهد عثمان ، وما نظنه إلا تخالف زماً بعد هذا إلى أيام الخجاج .

ولقد كان المسلمون والوحي لا يزال متصلاً ، يختصون يومهم بتعريب من القرآن ، يتخلون إلى يومئذ منهم ساعة من يومهم هذا يتلون فيها ما يتعمر ، يفرض كل منهم على نفسه جزءاً يعينه ، وإلى هذا يشير ما روى عن المنيرة بن شعبة ، قال : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بين مكة والمدينة ، فقال :
إنه قد فاضت الدابة جزئي من القرآن ، فإني لا أوتر عليه شيئاً^(١) .

وما نشك في أن هذه التجزئة كانت فردية ، أي إن مرجعها كان إسكُل فرد على حدة ، ونكاد نذهب إلى أنها لم تكن على التساوي .

وهذه التجزئة التي أخذ المسلمون بها أنفسهم مهكّرين ليجعلوا للقرآن حظاً من ساعات يومهم حتى لا يفتنوا عنه فيغيب عنهم ، وحتى يُيسروا على أنفسهم ليجزئوا فيه إلى آخره أسبوعاً بعد أسبوع ، أو شهراً بعد شهر ، هذه التجزئة الأولى غير المضبوطة هي التي أمّنت على المسلمين بعد ذلك أن يأخذوا في تجزئة القرآن تجزئةً تخضع لمعايير مضبوطة ، ولم يكن عليهم ضمير في أن يفعلوا .

عند هذه ، وبعد أن استوى المصنف بين أيديهم مكتوباً ، كان عدد السور وعد الكلمات وعد الآيات ، ولا يفتن هذا أن للمسلمين الأول أيام الرسول كانوا يسيرون البعد كله عن هذا كله ، بل إن ما نعتبه هو الإحصاء المستوعب الشامل ، وأما غيره فما نطفنا نذكره على المسلمين الأول ، من ذلك ما روى عن ابن مسعود أنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة من الثلاثين من آل حم . يعني الأحقاف ، ويقول السيوطي : كانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين ^(١) .

ولكن هذا الاستيعاب الشامل لم يكن إلا مع أيام الحجاج ، ودليلنا على هذا : ما يرويه أبو بكر بن أبي داود يقول : جمع الحجاج بن يوسف الحقاظ والأقراء — ويقول أبو بكر : وكنت منهم — فقال الحجاج : أخبروني عن القرآن كله كم هو من حرف ؟ قال أبو بكر : جعلنا نحسب حتى أجمعوا أن القرآن ثلاثمائة ألف حرف وأربعمائة ألفاً وسبعائة وثماني وأربعين حرفاً .

قال الحجاج : فأخبروني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن . فحسبوا فأجمعوا أنه ينتهي في الكهف « ولْيَتَلَطَّفْ » (الآية : ١٩ ، في القاء) .

قال الحجاج : فأخبروني بأسماءه على الحروف ؟ قال أبو بكر : فإذا أول سبع في النساء « قَتَنَهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ » (الآية : ٥٥ ، في الدال) ، والسبع الثاني في الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » (الآية : ١٤٧ ، في التاء) والسبع الثالث في الرعد « أَكَلَمًا دَامِمٌ » (الآية : ٣٥ ، في الألف آخر « أكلها » ، والسبع الرابع في الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » (الآية : ٣٤ ، في الألف) ، والسبع الخامس في الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوَدَّةٍ » (الآية : ٣٦ ، في الهاء) ، والسبع السادس في الفتح « الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَنَ السُّوءَ » (الآية : ٦ ، في الواو) والسابع ما بقى من القرآن .

قال الحجاج : فأخبروني بأثلاثه ؟ قالوا : الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثاني رأس إحدى ومائة آية من « طسم » الشعراء ، والثلث الثالث ما بقى من القرآن .

(١) الإثنان (١ : ٦٦)

ثم سألم الحجاج عن أرباعه . فإذا أول ربع خاتمة سورة الأنعام . والربع الثاني الكهف ولتتألفه
(الآية : ١٩) والربع الثالث خاتمة الزمر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن .

كانت هذه نظرة الحجاج مع القراء والمخاطب ، وكانت تجزئته للقرآن بوفق عدد حروفه ، ولقد رأينا
كيف جزأه نصفين ، ثم أسباعاً ، ثم أثلاثاً ، ثم أرباعاً .

وما نظن الحجاج كان يستعمل في هذه التجزئة إلا عن تفكير في التيسير ، فجمعه نصفين على القارئ
المجد ، ثم أثلاثاً على اللاحق ، ثم أرباعاً على من يتلو اللاحق ، ثم أسباعاً على من يريد أن يتقه في أسبوع ،
وكانت ذلك هي النهاية التي أحبها الحجاج للمسلمين ، وكأنه لم يحب لهم أن يتجاوزوها ، فذلك لم يعض مع
القراء والمخاطب يسألهم عما بعدها ، ونحن نعلم أن الحجاج كان يقرأ القرآن كله في كل ليلة^(١) .

وحين نظر الحجاج في القرآن يجزئته هذه التجزئة التي تتعددها الحروف ، بدأ غيره من بعده ينظرون
في تجزئة القرآن تجزئة تليها الآيات ، فتسموه أنصافاً ، وأثلاثاً ، وأرباعاً ، وأخماساً ، وأسداساً ، وأسباعاً
وأثماناً ، وأنساءً ، وأعشاراً .

وما نظن هؤلاء الذين جاءوا في إثر الحجاج بهذه التجزئة التي تخالف تجزئة الحجاج كانوا يستعملون
إلا عن مثل ما استعمل الحجاج عنه ، وهو التيسير ، ثم الإرخاء في هذا التيسير ، ثم تخصيص كل يوم
بفصيص لا يزيد ولا ينقص ، وكان أقصى ما أرادوه اكتمال مسلم أن يتم قراءة القرآن في أيام لا تملو
الشرة .

ولقد مر بك قبل ، عند الكلام على عد آيات القرآن ، ما كان من خلاف يسير علمت سببه ، ولكن
هذا الخلاف اليسير في عد الآيات جر إلى خلاف يسير في هذه التجزئة .

ولقد كانت فكرة الحجاج ، وفكرة من جاء بعد الحجاج ، في تجزئة القرآن هي التيسير على القارئ ،
ولسكن الحجاج كان مُتشدداً ، مُتشدداً على نفسه أولاً ، كما رأيت ، فلم يجاوز في تيسيره إلى غير سبعة
أيام ، ولكن من جاءوا بعد الحجاج لم يكونوا على تشدد الحجاج فأرخوا شيئاً في التيسير وزادوا
الأيام إلى عشرة .

وما وقف التيسير عند هذا الحد الذي انتهى إليه الذين جاءوا في إثر الحجاج ، بل نرى للبصريين أرخوا
للقارئ إلى أن بلغوا بهم الثلاثين ، فإذا القرآن مجزأً إلى ثلاثين جزءاً .

(١) الصاخب (ص ١١٩ - ١٢٠)

غير أن هذه الراحل التي جاءت بعد الحجاج لم تتم في يوم وليلة ، بل امتدت بامتداد الأيام ، ولقد كانت وفاة الحجاج في العام الخامس والتسعين من الهجرة ، ونرى السجستاني يروي أخباره في تجزئة القرآن تلك التجزئة الثانية عن رِوَاة تنحصر وفاتهم في القرن الثاني للهجرة ، ثم نرى ابن النديم وهو يتكلم عن السكتب المؤلفة في أجزاء القرآن يذكر لنا :

- ١ - كتاب أسباع القرآن لمزة بن حبيب بن عمارة الزيات . ولقد كانت وفاة حمزة سنة ١٥٨ هـ .
- ٢ - كتاب أجزاء ثلاثين ، عن أبي بكر بن عياش ، ولقد كانت وفاة أبي بكر بن عياش سنة ١٩٣ هـ^(١) .

وما يعيننا الكتاب الأول ، فلقد علمنا أن تجزئة القرآن أسباعاً ، كانت على يد الحجاج حُرُوفاً ، وقد تكون على يد حمزة آيات ، تقول لا تمنينا هذه واسكن تمنينا الثانية ، فهي تدلنا على أن تجزئة القرآن إلى ثلاثين جزءاً ، وهي التجزئة التي عليها مصاحفنا اليوم ، تجزئة قديمة انتهت إلى أبي بكر بن عياش ، بهذا يُشمرنا أسلوب ابن النديم ، إذ لم يُعزُ الكتاب لأبي بكر وإنما قال : عن أبي بكر بن عياش .

إذن فتجزئة القرآن ثلاثين جزءاً لم تذب عن القرن الثاني الهجري ، ولا يبعد أن تكون دون مُشناه بكثير ، فقد كان مولد أبي بكر بن عياش سنة ست وتسعين من الهجرة ، والرجل يصلح للتلقي والرواية مع اطمئنان والعشرين من عمره ، أي إن أبا بكر بن عياش كان رجل رواية وتلقى مع العام العشرين بعد المائة الأولى من الهجرة .

وهذه التجزئة الأخيرة ، أعني تجزئة القرآن ثلاثين جزءاً ، هي التجزئة التي غابت وعاشت ، ولعل ما ساعد على غلبتها يُسرّها ، ثم ارتباطها بعدد أيام الشهر ، ونحن نعلم كم تجدد هذه التجزئة إقبالا عظيماً في شهر رمضان من كل عام ، وما نظن الذين جزءوا انتهوا إلى هذه التجزئة الأخيرة في مرحلة واحدة متجاوزين التجزئة المشربية إلى التجزئة الثلاثينية ، والذي نقطع به أنه كانت نمة تجزئات بين هاتين للرحلتين لا ندرى تدرجها ، ولكن بيننا أن نُقيّد أن نمة تجزئة تقع في عشرين جزءاً ، تحتفظ بها مكتبة دار الكتب المصرية .

وبهذه التجزئة - أي إلى ثلاثين جزءاً - أصبح القرآن يُعرض أجزاء منفصلة كل جزء على حدة ، وأصبحنا نراه في الساجد - لا سيما في شهر رمضان - محفوظاً في صناديق بأجزائه الثلاثين ، كل مجموعة في صندوق ، يقدمه تراغبون في الثواب إلى المنفلتين إلى الساجد رغبة في تلاوة نصيب من القرآن .

(١) الفهرست (ص : ٥٥) طبعة مصر

وأصبح يطلق على هذه الأجزاء الثلاثين اسمُ رَيْعَةٍ . والرَيْعَةُ في اللغة : الصُّندوق أو الوعاء من جلد .
ولعل تسمية الأجزاء الثلاثين بهذا الاسم جاءت من إطلاق المعلى على الحال فيه .
ولكن هذا التيسير الأخير جر إلى تيسير آخر يتصل به ، وما نشك في أن المدافع إليه كان التيسير
هنا على الحافظين ، بمد أن كان التيسير قبلُ على القارئين ، وفرق بين أن تيسر على قارئ وبين أن
تيسر على حافظ .

من أجل هذه فيما نظن كان تقسيم الأجزاء الثلاثين إلى أحزاب ، كل جزء ينقسم إلى حزبين ، ثم
تقسيم الحزب إلى أرباع ، كل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع .
وعلى هذا التقسيم الأخير طبعت المصاحف ، واعتمد هذا التقسيم على الجانب الراجح بين القراء في
عدد الآيات ، فانت تلم هذا الخلاف الذي بينهم :

- فالمدينون الأوّل بمدون آيات القرآن ٦٠٠٠ آية
- والمدينون المتأخرون بمدون آيات القرآن ٦١٢٤ »
- والمكيون المتأخرون بمدون آيات القرآن ٦٢١٩ »
- والكوفيون بمدون آيات القرآن ٦٢٦٣ »
- والبصريون بمدون آيات القرآن ٦٢٠٤ »
- والشاميون بمدون آيات القرآن ٦٢٢٥ »

وف هذا الخلاف كان عمدة ترجيح ، وعمدة اتفاق وتقليب . وقد انبرى لهذا « السفاقي » في كتابه « غيث
النفح » . ولقد اعتمد السفاقي على رجلين سبقاه في هذه الصناعة ، هما : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي
بكر القسطلاني في كتابه « لطائف الإشارات في علم القراءات » ، والقادري محمد ، وكتاب « مسويف
المقرئين ومبين المشتغلين بمعرفة الوقف والابتداء » ، وانتهى إلى الرأي الراجح أو المتفق عليه ، وبهذا
أخذ الذين أشرفوا على طبع المصحف طبعته الأخيرة في مصر ، وخرج يحمل الإشارات الجانبية الدالة على
مكان الأجزاء والأحزاب وأرباع الأحزاب .

٢٢ - النسخ والنسوخ :

النسخ ، لغةً : إبطال الشيء ورفعهُ ، والمتكلمون عن النسخ في القرآن يحملونه على ثلاثة أضرب :
١ - ما نسخ خطه وحكاه ، ويروون في ذلك عن أنس أنه قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى

الله عليه وسلم سورة تعدلها سورة التوبة ، ما أحفظ منها غير آية واحدة « ولو أن لابن آدم واديين من ذهب لا جنى إليهما ثالثاً ، ولو أن لهم ثالثاً لا ينسى إليها رابعاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

٢٠ كايرون عن ابن مسعود أنه قال : أقراني رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فحفظتها وكتبتها في مصحف ، فلما كان الليل رجعت إلى مصحف فلم أرجع منها بشيء ، وغدوت على مصحف فإذا الورقة بيضاء . فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : يا ابن مسعود ، تلك رفعت البارحة .

وهذا قسم يكاد سرده يدل عليه ويكشف عن سقوطه ، فما أجل الله حكيماً عليماً . وما كانت الرسالة تجربة بشرية يجوز عليها تعديل أو الوقوع فيها سئققتض بعد حين . واقد كان الرسول يحدث المسلمين بحديثه ويقرأ عليهم وحى السماء ، ولقد كان عليه السلام يعارضهم فيما يحلوه عنه على التوالي حرصاً على سلامة الوحي من أن يختلط به غيره ، وكم من سماع خلط ما بين ما هو وحى وبين ما هو حديث للرسول ، ولكنه كان بعد حين قليل مردوداً إلى السلامة حين يلقى الرسول ، أو يقابل صحابياً على بصيرة بما هو وحى وما هو حديث . وسرعان ما كانت تستقيم الأمور ، ويبين هذا من ذلك ، حتى إذا ما حان أن يقبض الله إليه رسوله كانت الترخصة الأخيرة للقرآن ، ولم تكن إلا لهذا ومثله .

٢ - ما نسخ خطه وبقى حكمه . ويروون لهذا خبراً عن عمر بن الخطاب ، يقول :

لولا أكره أن يقول الناس قد زاد في القرآن ما ليس فيه لسكتت آية الرجم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ترغبوا عن آياتكم فإن ذلك كفر بكم . الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

وأحسب أن عمر لو صح هذا منه ، وأنه سمعها عن الرسول ما تخلف عن أن يكتبها ، ثم ألم بسمها مع « عمر » غيره فيجعل منه شاهداً معه ، إن كان « عمر » لا يرى أنه وحده مجزئ ، اللهم إن هذا ينقض علينا تلك المراضات التي كانت تتم بين الرسول والقارئ ، وينقض علينا التفكير السليم ، وما نحب لمن يصلح ما يتصل بكتاب الله إلا أن يكون ذا تفكير سليم .

٣ - ما نسخ حكمه وبقى خطه . وهذا شيء يقتضيه التشريع والانتقال من حكم إلى حكم ، مثال ذلك الآيات التي تتصل بالقبلة ، والتي انتهت بقوله تعالى يخاطب نبيه : « قَوْلٌ وَجْهَكَ لِشَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ^(١) » وكانت قبلها « فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ^(٢) » .

ومثل قوله تعالى: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْمَةُ وَالَّذِي وَلَدَهُ الْوَلَدُ الْمُنْفَرِيُّ » وجاء قوله عليه الصلاة والسلام: « أَحَلَّتْ لَنَا مَيْمَتَانِ وَدَمَانِ : السُّمَكُ وَالْجَرَادُ وَالسَّكْبَدُ وَالطُّعَالَ » يَسْتَفَى شَيْئًا مِنَ الْمَيْمَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ .

وقد عد الناظرون في هذا نحوًا من ١٤٤ ، منها :

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| (١) ثلاثون آية في البقرة | (٢) عشر آيات في آل عمران |
| (٣) أربع وعشرون آية في النساء | (٤) تسع آيات في المائدة |
| (٥) خمس عشرة آية في الأنعام | (٦) آيتان في الأعراف |
| (٧) ست آيات في الأنفال | (٨) إحدى عشرة آية في التوبة |
| (٩) ثمان آيات في يونس | (١٠) أربع آيات في هود |
| (١١) آيتان في الرعد | (١٢) آية في إبراهيم |
| (١٣) خمس آيات في الحجر | (١٤) أربع آيات في النحل |
| (١٥) ثلاث آيات في بني إسرائيل | (١٦) آية في الكهف |
| (١٧) خمس آيات في مريم | (١٨) ثلاث آيات في طه |
| (١٩) ثلاث آيات في الأنبياء | (٢٠) ثلاث آيات في الحج |
| (٢١) آيتان في المؤمنین | (٢٢) سبع آيات في النور |
| (٢٣) آيتان في الفرقان | (٢٤) آية واحدة في النمل |
| (٢٥) آية واحدة في القصص | (٢٦) آية واحدة في العنكبوت |
| (٢٧) آية واحدة في الروم | (٢٨) آية واحدة في السجدة |
| (٢٩) آيتان في الأحزاب | (٣٠) آية واحدة في صبا |
| (٣١) آية واحدة في الملائكة | (٣٢) أربع آيات في الصافات |
| (٣٣) آيتان في ص | (٣٤) ثلاث آيات في الزمر |
| (٣٥) آيتان في حم (المؤمن) | (٣٦) آية واحدة في حم (السجدة) |
| (٣٧) سبع آيات في الشورى | (٣٨) آيتان في الزخرف |
| (٣٩) آية واحدة في الدخان | (٤٠) آيتان في الجاثية |

(٤١) آيات في الأحقاف	(٤٢) آيات في محمد
(٤٣) آيات في ق	(٤٤) آيات في الذاريات
(٤٥) آيات في الطور	(٤٦) آيات في النجم
(٤٧) آية واحدة في القمر	(٤٨) آية واحدة في المجادلة
(٤٩) ثلاث آيات في المتعنة	(٥٠) آيات في القلم
(٥١) آيات في المارج	(٥٢) ست آيات في الزمل
(٥٣) آيات في الإنسان	(٥٤) آية واحدة في عبس
(٥٥) آية واحدة في التكويد	(٥٦) آية واحدة في الطارق
(٥٧) آية واحدة في الفاشية	(٥٨) آية واحدة في التين
(٥٩) آية واحدة في المصير	(٦٠) آية واحدة في الكافرين

وسوف نرى أن كل ما يتصل بها هو ترتيب أحكام اقتضاها التشريع السماوي الذي أملاه نزول القرآن مجزأً بوفق أحوال المسلمين وتدريجهم في الحياة ، الأمر الذي قد منا عنه حديثاً عند الكلام على نزول القرآن مجزأً لا بجملة واحدة^(١) .

٢٣ - المحكم والمشابه والحروف المقطعة في أوائل السور

يذهب العلماء في المحكم والمشابه مذاهب ، ويفرعهما ابن حبيب النيسابوري إلى أقوال ثلاثة :

أولها : أن القرآن كله محكم ، لقوله تعالى : (كتاب أحكمت آياته) ١١ : ١

ثانيها : أنه كله متشابه ، لقوله تعالى : (كتاباً متشابهاً مثاني) ٣٩ : ٢٣

ثالثها : انقسامه إلى محكم ومتشابه ، لقوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ،

هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ٣ : ٧

وكما اختلفوا في هذه اختلفوا في معنى المحكم ومعنى المتشابه ، فقيل :

المحكم : ما عُرِف المراد منه ، إما بالظهور وإما بالتأويل .

والمتشابه : ما أسأثر الله بطله ، كقيام الساعة ، وخروج الدجال ، والحروف المقطعة في

أوائل السور .

وقيل :

المحكم : ما وضع معناه ، والمتشابه ، نقيضه .

(١) انظر باب النسخ والنسوخ

وقيل :

الحكم : ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ؛ والمثابه : ما أحتمل أوجهاً .

وقيل :

الحكم : ما كان مقول المعنى ؛ والمثابه بخلافه ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام برمضان

دون شعبان .

وقيل :

الحكم : ما استقل بنفسه ؛ والمثابه : ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره .

وقيل :

الحكم : ما لم تُكرر ألفاظه ؛ ويقابله المثابه .

وقيل :

الحكم : الفرائض، والوعد، والوعيد ؛ والمثابه : الفصص والأمثال .

وقيل :

الحكم : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ، وما يؤمن به ويعمل به .

والمثابه : منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وما يؤمن به ولا يعمل به .

وقيل :

الحكم : الحلال والحرام ، وما سوى ذلك منه فهو مثابه ، يصدق بهضه بعضاً

ثم اختلفوا بعد هذين في المثابه ، هل يمكن الاطلاع على علمه ، أو لا يعلمه إلا الله ؟

وكان مرد هذا إلى اختلافهم في تفسيرهم قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) ٣ : ٧

منهم من جعل الواو للاستئناف ، وعلى هذا يكون السياق : والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل

من عند ربنا .

ومنهم من جعلها للعطف ، وعلى هذا يكون السياق : والراسخون في العلم يعلمون تأويله

ويقولون آمنا^(١) .

ويقول ابن قنينة^(٢) : إن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدل به على معنى أراد .

ويقول : فلو كان المثابه لا يعلمه غيره كَلَزِمْنَا لِلْعِطَاعِ مَقَالَ ، وتعلق علينا بعتة .

(٢) تأويل مشكور القرآن (٧٤-٧٣)

(١) الإتيان (٢ : ٢)

ويضئ ابن قتيبة في حديثه فيقول : وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المشابه ، وإذا جاز أن يعرف مع قوله تعالى : « وَمَا يَكْفُرُ بِهٖ إِلَّا اللَّهُ » جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته . فقد علم « علينا » التفسير ، ودعا لأبن عباس فقال : اللهم علمه القابل وفقه في الدين .

ثم يقول ابن قتيبة : وبعد . فإننا لم نر للفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا : هذا مثابه لا عمله إلا الله : بل أمرتوه كله على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور . ويقول ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى : « وَمَا يَكْفُرُ بِهٖ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ^(١) » : فإن قال قائل : كيف يجوز في اللغة أن يعلمه الراسخون في العلم ، وأنت إذا أشركت الراسخين في العلم أنقطعوا عن « يقولون » ، وليست ها هنا في نسق توجب للراسخين فدلين ؟ قلنا له : إن « يقولون » ها هنا في معنى الحال ، كأنه قال : هو الراسخون في العلم قائلين آمنا به .
^(٢) ثم اختلفوا بعد هذا في تفسير الحروف المقطعة .

١ - فمنهم من يجعلها أسماء للسور ، تعرف كل سورة بما افتتحت به منها ، فهي أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء وتفرق بينها ، فإذا قال القائل : قرأت « المص » ، أو قرأت « ص » ، أو « ن » دل بذلك على ما قرأ .

ولا يرد هذا أن بعض هذه الأسماء يقع لعدة سور ، مثل « حم » و « أم » ، إذ من الممكن التمييز بأن يقول : حم السجدة ، و « أم » البقرة ، كما هي الحال عند وقوع اللفظ في الأسماء ، فتميزها بالإضافات ، وأسماء الآباء ، والسكنى .

٢ - ويجهلها بعضهم للقسم ، وكان الله عز وجل أقسم بالحروف المقطعة كلها ، وأنصر على ذكر بعضها من ذكر جميعها ، فقال « ألم » ، وهو يريد جميع الحروف المقطعة ، كما يقول القائل : نعلت « أب ت ث » وهو لا يريد تعلم هذه الأحرف دون غيرها من الثمانية والعشرين .

ولقد أقسم الله بحروف المعجم لشرفها وقضاها ، إذ هي مبادئ كتابه المنزل على رسوله .

٣ - ويجعلها بعضهم حروفا مأخوذة من صفات الله تعالى ، ويكون هذا فناً من فنون الاختصار عند العرب .

(١) آل عمران : ٧

(٢) تأويل مشكل القرآن (٢٣٠ - ٢٣٩) لدان الرب (١ : ٤ - ٦)

وهذا الاختصار عند العرب كثير ، يقول الوليد بن عتبة ، من رجزه :

قَالَتْ لَهَا رِنِي قَقَائِلَ قَافٍ

أى قالت : وقد رقت ، فأوماً بالقف إلى معنى الوقوف .

وعلى هذا يجعل للفسرون كل حرف من هذه الحروف يشير إلى صفة من صفات الله .
فيقول ابن عباس مثلاً في تفسير قوله تعالى « كَتَمَ مَعِ » إن الكاف من كافٍ ، والماء من هَادٍ ،
والياء من حَكِيمٍ ، واليمين من عَالِمٍ ، والصاد من صَادِقٍ .

هذا مجمل ما ذهب إليه المفسرون القدامى في معاني هذه الحروف المقطعة وفي كل منها مقنع .
أما ما ذهب إليه المحدثون في هذا فحسبك ما انتهى إليه « على نصوص الطاهر » في كتابه « أوائل
السور في القرآن الكريم » . وإليك مجمل ما قال في خاتمة كتابه :

١ - إن أوائل السور تقوم على حساب الجمل .

٢ - إنها تبين عدد الآيات المسكية أيام كان القرآن يخشى عليه من أعدائه في مكة من أن يزيدوا
فيه أو أن ينقصوا منه ، ودليله على ذلك .

(أ) أنها وردت مع تسع وعشرين سورة من سور القرآن .

(ب) من هذه السور سبع وعشرون مسكية وثنتان مدنيتان ، هما البقرة وآل عمران .

(ج) أن هاتين السورتين المدنيتين نزلتا في أوائل العهد المدني ، ولم يكن قد استقر أمر المسلمين
كثيراً ، فهو عهد أشبه بعهد مكة .

(د) أنه حين اشتد أمر المسلمين ، وكانت كثرة من الفارثين والسكانيين ، لم تكن نعمة حروف مقطعة
في فوائح سور .

ولقد تتبع في كتابه « أوائل السور في القرآن الكريم » السور ذات الفوائح ، وطابق بين جملها والآيات
المسكية بها فإذا هو ينتهي إلى رأى شبه قاطع .

هذا مجمل ما للسلف عن النشأة والحكم عامة ، ثم مجمل ما لالسلف والخلف من المحدثين عن الحروف
المقطعة في أوائل السور خاصة .

وتسكاد آراء السلف عن الشق الأول على تعقيباً ، فالآيات الثلاث التي فرعوا عليها أحكامهم تسكاد
تكون كل آية منها معنى قائم بذاته .

فقوله تعالى: (كتاب أحكمت آياته) ١١ : ١ ، المراد بالإحكام هنا : غاية الإبداع ، أي : إنه على صورة من البيان لا بدائي فيها إبداعاً ، وهذا من دلائل إعجاز القرآن .

وقوله تعالى: (كتاباً متشابهاً) ٢٣ : ٣٩ ، المراد بالتشابه هنا الاتفاق ، إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، وهذا دليل ثانٍ من دلائل إعجاز القرآن .

وقوله تعالى: (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ٣ : ٧ ، فالمراد أن من آياته ما جاء لغرض بعينه لا أشارته فيه غيرها ، ومنها ما جاءت حول غرض عام أشارت فيه غيرها .

وعلى هذا يستوى لنا رأى ابن تقيّة ومن لبّ لفّه في أنه ليس بُدء في الكتاب الكريم شيء إلا وهو مناط تفكيرنا وتديرننا ، وإعمال الرأى فيه ، لأنه كتاب الله إبداعه ، نزل على رسوله ليبلغه عباده ليعملوا به وبما فيه ، ولن يباغوا هذا أو يتأربوه إلا إذا نظروا في معانيه وتدبروها .

وقد كتب الساف عن ابن الناني وقالوا فيه مارأوا ، وإذ كان القرآن الخاص إلى يوم الدين ، يقول كل ما يرى ، إذا ما بلغ مبلغ من يقول في القرآن ، فقد نزلنا لك هذا الرأى المحدث .

٢٤ - البسمة . والاستعاذة . والسجدة .

والبسمة عند الأكرمين آية تقرأ من أول كل سورة ، غير « براءة » .
والتعوذ قبل القراءة من السنة ، أقوله تعالى: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)^(١) .
وصيغته المختارة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .
وعند بعض المانف : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم .
وقال ابن الجزرى في كتابه « النشر في القراءات المشرفة » : المختار عدد أئمة القراء الجمهور بها .
وبين السجود عند قراءة آية السجدة ، وهي أربع عشرة آية ، في :
الأعراف : الرعد ، النحل ، الإسراء ، مريم ، وفيها « سجدة » ، الفرقان ، النمل ، الم ، فصلت ،
للنجم ، إذا السماء انشقت ، اقرأ باسم ربك .
وأما في « ص » فستعبد وليست من عزائم السجود ، أي متأكداته .

(١) النحل : ٩٨

٢٥ - كتاب المصحف

كان « المسند » - هو الخط الحبري ، الذي كان مستعملا في الأنبار والحيرة - المرحلة الثالثة من المراحل التي جازها الخط العربي ، فلقد سبقته في سُمِّ الترقى مرحلتان: المرحلة المصرية بفروعها الثلاثة: الهيرغليفية ، والهيراطيقية ، والديموطيقية ؛ والمرحلة الفينيقية ، نسبة إلى فينيقية ، أرض كنعان .

ومن الحيرة انتقل هذا الخط « المسند » إلى الجزيرة العربية ، وكان أقدم خط عُرف بها ، وسمى مع انتقاله « الجزم » ، لأنه جُزم ، أي قُطع من « المسند » .

وبعد بناء الكوفة ، في عهد عمر بن الخطاب ، سُمي هذا الخط « المسند » : الخط الكوفي ، نسبة إليها ، وما إن عمرت الكوفة حتى رحلت إليها القبائل ، وكان من بين القبائل الراحلة قبائل يمنية ، وكان من بينها من يكتب بالخط المسند ، فسرعان ما أنتشر هذا الخط بين الكوفيين ، وجردوا فيه ، وأضافوا إليه حليات وزخرفات على شاكلة تلك التي كانت في الخط السرياني المعروف بأسم : « السطرنجيلي » .

وحين انتهى الخط الكوفي إلى الحجاز كان بين مقور وميسوط ، وسمى الخط المقور بأسم « الابن » ، أو « النسخي » ، وهو ما تكون عراقاته منخفضة إلى أسفل ؛ وشاع استخدام هذا النوع من الخط في الرقاع ، والمراسلات ، والكتابات العامة .

أما الخط « للميسوط » ، وهو ما يعرف باسم « اليبس » ، فلقد كانت عراقاته مبسوطة ، وقصُر استخدام هذا النوع من الخط على النقش في المحارب ، وأبواب المساجد والمعابد وجدرانها ، وعلى كتابة المصاحف الكبيرة .

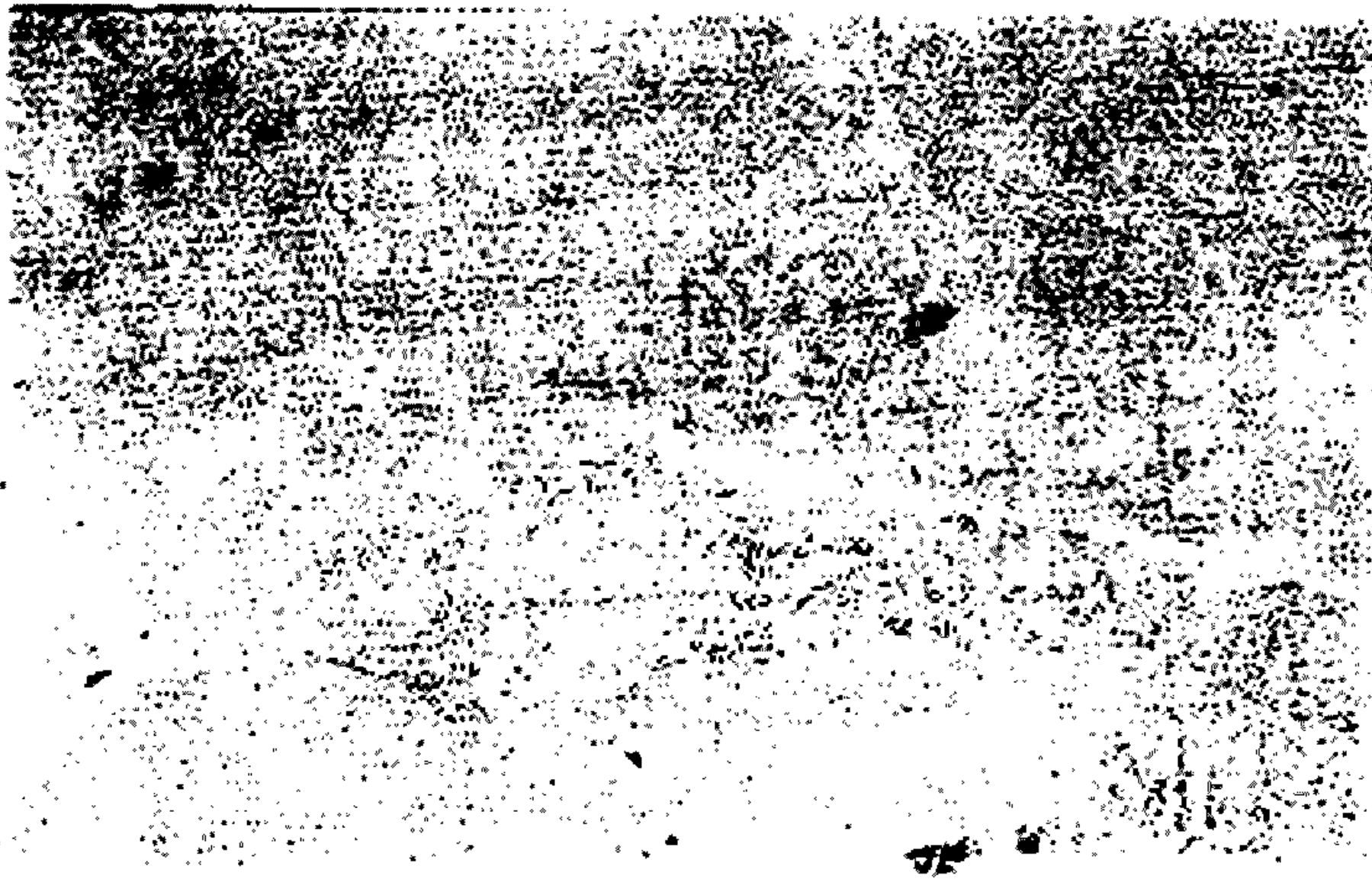
وكان كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم يكتبون بالخط المقور « النسخي » ، وبهذا الخط كتب زيد بن ثابت - رضي الله عنه - صحف القرآن في خلافة أبي بكر بأمره وإشارة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما .

وبين تلك الفرق بين الخطين واضحا في تلك الصور الثلاث : فالصورتان الأولى والثانية تمثلان خطابين بعث أولهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوقس [ش: ١] ، وبعث ثانيهما إلى المنذر بن ساري [ش: ٢] .



ش : ١

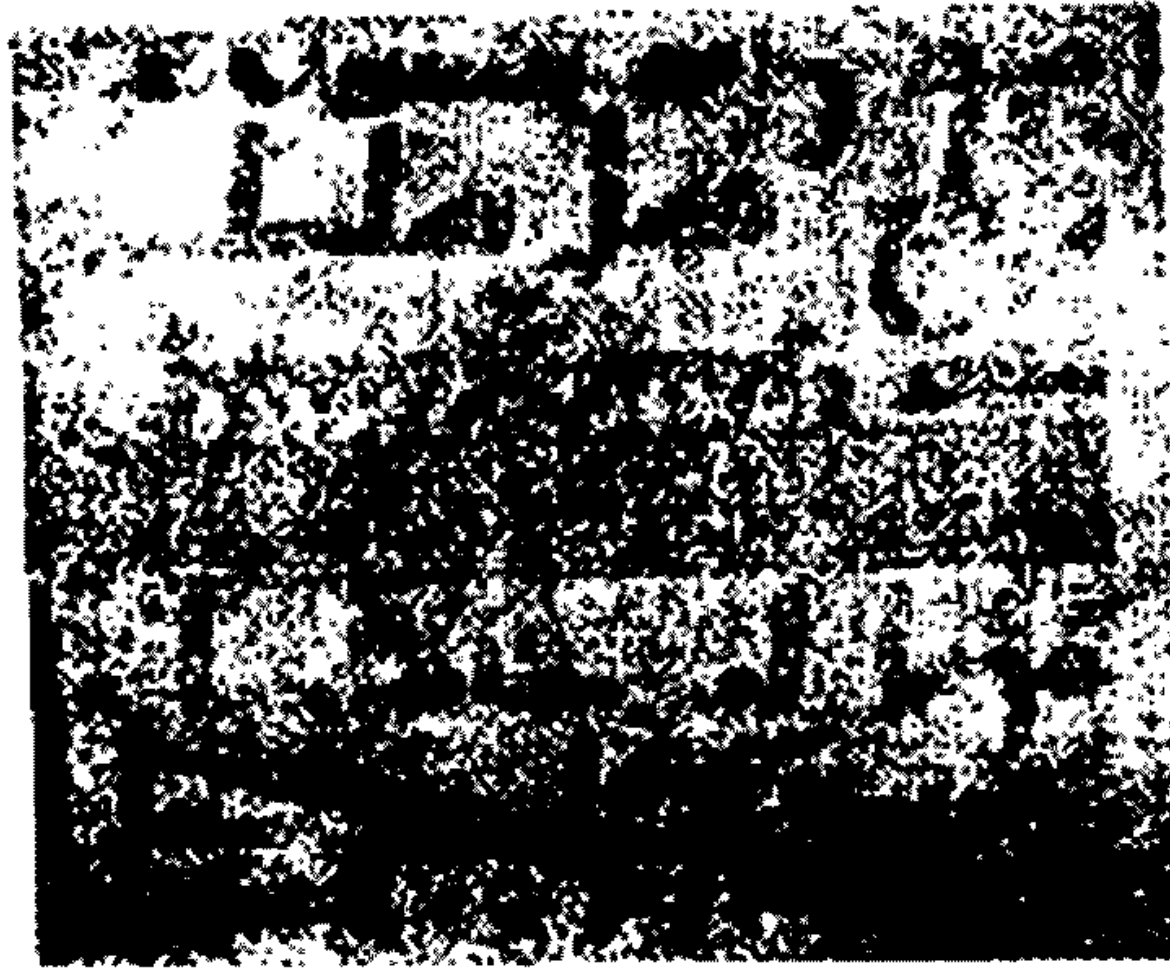
خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس



ش : ١

خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أننديز بن ساوى

أما الصورة الثالثة فتمثل صفحة من القرآن الكريم كتبت في القرن الأول الهجري [ش : ٣]



ش : ٣

صفحة من القرآن الكريم . القرن الأول الهجري .

وهكذا نجد أن الفرق بين خط القرآن وخط الرسائل واسع .

وحين يُجمع القرآن بالمدينة ، وأرسلت المصاحف إلى مكة ، والشام ، والبصرة ، والكوفة ، وغيرها ، أقبل الناس على نسخ القرآن الكريم ، وأصبحت لكل إقليم طريقة تميزها عن غيره ، وكان لها اسمها ونشأ عن ذلك :

١ - الخط المدني ، وكان يسمى : المحقق ، والوراق ، نسبة إلى الوراقين الذين كانوا يكتبون المصاحف بالخط المحقق أو النسخي .

٢ - الخط المسكي ، وبتميز هذا الخط المسكي والخط المدني بأن في لفاتها تويرجأ إلى يدة اليد ، أو إلى أعلى الأصابع ، في انضجاع يسير .

٣ - الخط البصرى (الكوفي ، الأصفهاني ، العراقي) ، وكان على ثلاثة أنواع : المدور ، والناث ، والتمم (وهو خط التمايق الذي بين الناث والنسخ) .

وحين أطل المهدي الأموي ، وأقبل الناس على تعلم العربية ، أخذ الخط العربي يرق ، وظهر في أواخر عهد بني أمية رجل اسمه « قطبة » اشتهر بتجديد الخط ، وكان على يديه انتقال الخط العربي من الشكل

الكوفي إلى قريب من الشكل الذي هو عليه الآن ؛ وإلى « قطبة » هذا يرمى اختراع القلم الجليل ، الذي ينسب إليه الخط الجليل ، أي الكبير الواضح .

وكان ثمة في أيام « الوليد بن عبد الملك » كاتب مختص به ، هو « خالد بن أبي الهياج » ، أنتقل لكتابة المصاحف للوليد ، وكان مجوداً في كتابتها . « وأبن أبي الهياج » هذا هو الذي كتب بالذهب على محراب مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة سورة « والشمس وضحاها » ، وما بعدها من السور إلى آخر القرآن الكريم ، ولكن هذا كله للأسف ذهب ولم يبق له أثر .

وجاء من بعد « خالد بن أبي الهياج » رجل من كبار الزاهدين ، كانت وفاته سنة إحدى وثلاثين ومائة من الهجرة ، هو : مالك بن دينار ، وكان « مالك » هو الآخر من المجددين في كتابة المصاحف .

فلما كانت أيام « الرشيد » برز كاتبان من الكتاب المجددين المصاحف هما : خشام البحرى ، ومهدى الكوفى .

ويقول ابن النديم : ولم ير مثلهما إلى حيث انتهتا .. أى إلى عصر ابن النديم - حتى إذا ما كانت أيام المعتصم ظهر « أبو حدى الكوفى » ، وكان يكتب المصاحف اللطاف .

ثم كانت بعد « أبو حدى » جماعة من الكوفيين اشتهروا بكتابة المصاحف ، منهم : ابن أم شيبان ، والسهور ، وأبو حميرة ، وأبو الفرج .

هذا إلى جماعة أخرى من الوراقين كانوا يكتبون المصاحف بالخط الحقيق (الشق) ، منهم : ابن أبي حبان ، وابن الحضرمى ، وابن زيد ، والفريابي ، وابن أبي فاطمة ، وابن مجاهد ، وشراشير المصرى ، وابن حسن النايح ، وأبو حديدة ، وأبو عقيل ، وأبو محمد الأصفهاني ، وأبو بكر أحمد بن نصر ، وابنه أبو الحسن . وتقد ظهر في أوائل الدولة العباسية رجالان من أهل الشام عرفا بجودة الخط ، وإليهما انتهت الرياسة في ذلك العصر ، هما : الضحاك بن عجلان ، وكان في خلافة السفاح ؛ وإسحاق بن حماد ، وكان في خلافة المنصور والمهدى ، وفي عهدهما بلغت الأقلام العربية أمتى عشر قلاً ، كان لسكل قلم طريقة .

ثم انتهت رياسة الخط إلى ابنى مقله : أبى على محمد بن مقله ، وعبد الله ، وكان بضرب مخطمهما المثل . وعن الوزير « ابن مقله » أخذ عبد الله بن محمد بن أسد (٤١٠ هـ) ، وعن « ابن أحمد » أخذ « ابن البواب » (٤١٣ هـ) ، وهو الذى أكل قواعد الخط ، وعن « ابن البواب » أخذ « محمد بن عبد الملك » ، وعن « محمد بن عبد الملك » أخذت « شهدة زينب بنت الابرى » (٥٧٠ هـ) السكانية الحديثة .

وعنها أخذ خلق كثير ، منهم : ياقوت (٦١٨ هـ) ، وعن « ياقوت » أخذ « الولي العجى » ، وعليه كتب « المفيد » ، وعن « المفيد » أخذ ولده « عماد الدين » ، وعن عماد الدين أخذ « الزفتارى شمس الدين بن على » ، وعنه أخذ « الفلتشندى أبو المباس أحمد » صاحب كتاب صبيح الأعرشى .
واقدم على الملوك الفاطميين ومن يدمم بالخط العربى فجلوا به قصورهم ، وعروشهم ، وأدوات منازلهم ، إلى غير ذلك مما لا تزال آثارهم بمصر إلى اليوم تنطق به .
وحيث انتقلت الخلافة إلى الدولة العثمانية كانت للخلفاء العثمانيين عناية بتحصين الخط العربى وتهذيبه ، فأُنشئت فى الأستانة ، سنة ١٢٢٦ هـ ، مدرسة لتعليم الخط والنقش .
ثم حلت مصر العربى بعد ذلك ، فأُنشئت فى القاهرة مدرسة لهذا الغرض .

- ٢ -

ونحن نعرف أن « السريان » هم أول من وضع الشكل على الكلمات ، وذلك عندما دخلوا النصرانية وأخذوا فى نقل الكتاب لتقدس إلى لغتهم ، وكان الأسقف « يمتوب الرهاوى » أول من اخترع النقط التى كانت ترسم فى حشو الحروف ، وكان ذلك سنة ٤٦٠ م ، أى قبل الهجرة بنحو من ١٢١ سنة ، ثم نحوات تلك النقط إلى خط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث .
وحيث انتشر الإسلام ، وعمَّ بقاعاً مختلفة من الأرض ، وخاف المسلمون ماخافه ، « السريان » من قبل ، فكروا فى النقط أو الشكل ، ولما هم استأنسوا فى ذلك بما فعله « السريان » من قبل ، وكان أول من فعل ذلك أبو الأسود الدؤلى (٦٧ هـ) فى خلافة عبد الله بن الزبير .
وبدأ « أبو الأسود » فى شكل المصحف ، بعد ما احتال عليه زياد بن سمية ، الذى كان والياً على البصرة ، فى ذلك ، وعهد « أبو الأسود » - فيما يقال - إلى كاتب يعنى الكتابة ، من بين كاتبين ثلاثين ، بمنهم إليه زياد بن سمية ، بأن يتولى الشكل ، وقال له : خذ للمصحف وصيغاً يخالف لون اللداد ، فإذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه ، وإذا كسرتها فانقط واحدة أسفله ، وإذا ضَمَمْتُهَا فاجعل النقطة بين يدي الحرف ، فإن أتبعته شيئاً من هذه الحركات تُعْنَى فانقط نقطتين .
وأخذ « أبو الأسود » يقرأ القرآن فى نُثُودَةِ وَالسَّكَّابِ يضع النقط ، وكلما أتم السكَّابُ صحيفة نظر فيها « أبو الأسود » . ومعنى كل ذلك إلى أن أتم للمصحف كله . ونلاحظ أن « أبا الأسود » ترك السكون بلا علامة .

وأخذ الناس هذه الطريقة عن أبي الأسود ، وكانوا يسمون للنقط شكلا .
وجاء من بعده «أبي الأسود» نصر بن عاصم ، ثم أتباعه من بعده ، فحوروا في شكل النقط ، فمنهم من جعلها مربعة ، ومنهم من جعلها مدورة مظلومة ، ومنهم من جعلها مدورة غير مظلومة .
وزاد أهل التدبئة فجعلوا للحرف تشددا علامة على شكل قوس مرفوعة إلى أعلى (\smile) ، ويكون فوق الحرف للفتوح ، ويكون تحت للكسور ، وعلى شمال المضموم ، وكانوا يسمون نقطة الفتحة داخل القوس ، ونقطة الكسرة تحته ، ونقطة الضمة إلى شماله ؛ ثم استغنى عن النقط وقاموا القوس مع الكسرة والضمة ، فأصبح الحرف المشدد على هذا النحو :

١ - لفتوح \smile

٢ - الكسور \smile

٣ - المضموم \smile

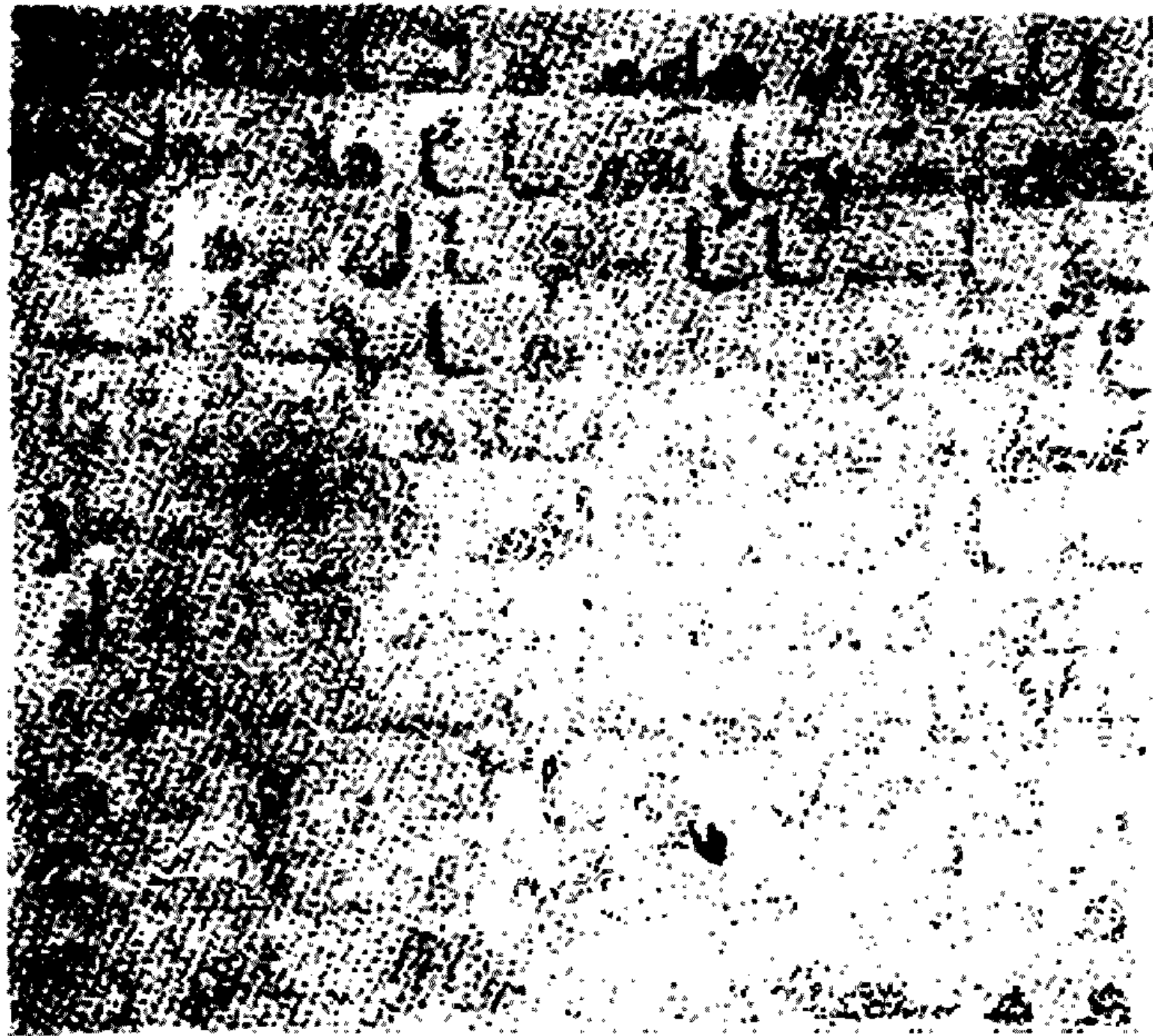
ثم زيدت علامات أخرى في الشكل ، فوضعت للكسور جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه ، سواء أكان همزة أم غير همزة ، ولألف الوصل جرة في أعلاها متصلة بها إن كانت قبلها فتحة ، وفي أسفلها إن كانت قبلها كسرة ، وفي أوسطها إن كانت قبلها ضمة ، وذلك كله بالمداد الأحمر .

وابتدع أهل الأندلس ألوانا أربعة في المصاحف ، فجعلوا السواد للحروف ، والحجرة للنقط «الشكل» ، والصفرة للهمزات ، والخضرة لألفات الوصل ، وكانت طريقة «أبي الأسود» أكثر شيوعا في المصاحف .
وهناك صوراً ثلاثاً تمثلان الشكل تدبجاً (ش : ٤ و ٥ و ٦) .

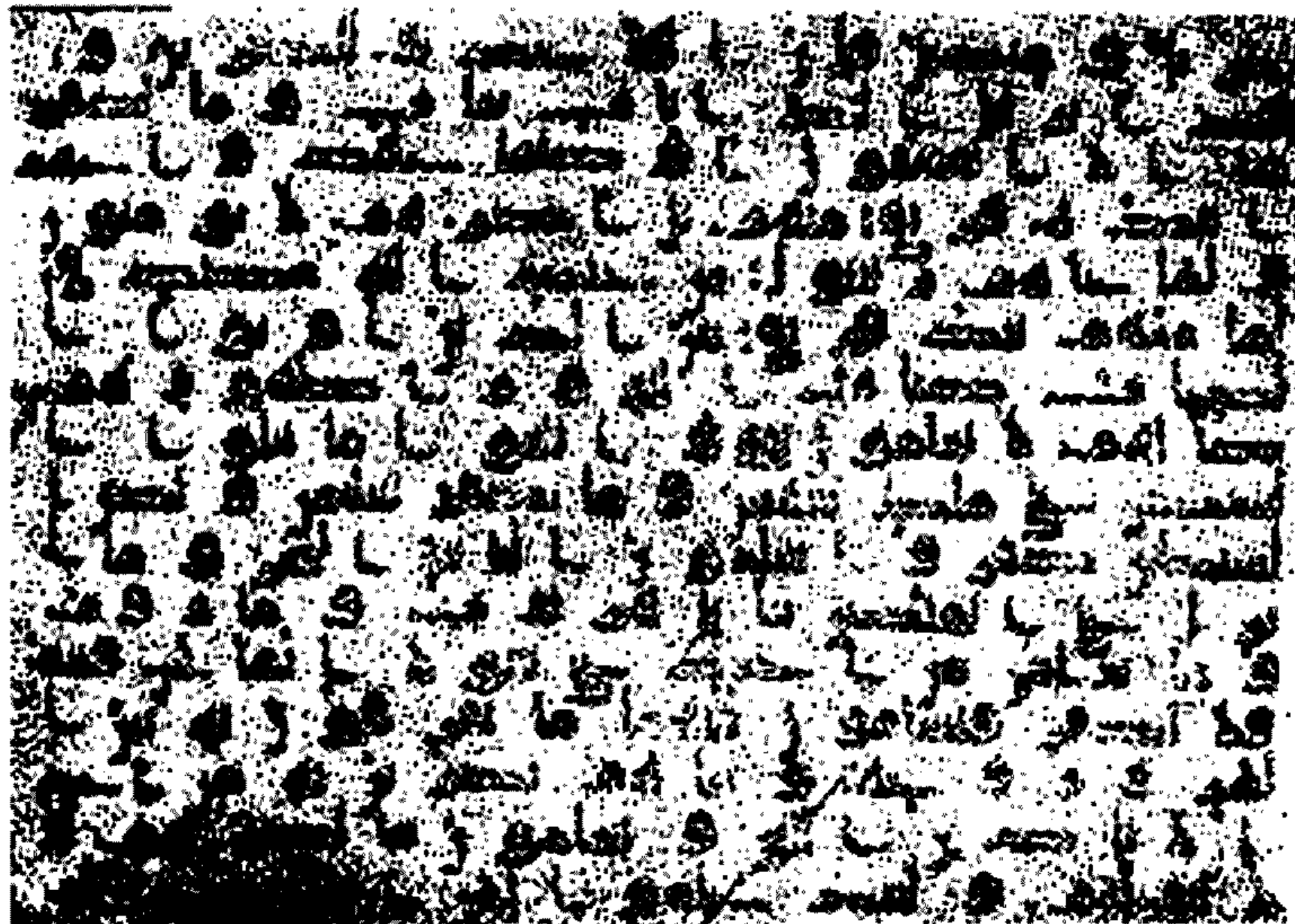
ولقد عاش الناس زمن بني أمية على النهج الذي رسمه «أبو الأسود» ثم «نصر بن عاصم» ، حتى إذا كانت أيام الدولة العباسية أخذ الناس يميلون الشكل من مداد الكتابة ، للتعبير على الكتاب ، غير أن ذلك جر إلى صعوبة ، وهي اختلاط الشكل بالإعجام ، لأن كلا منهما أصبح بمداد واحد ، فسكان لا بد من تمييز ثالث ، وهذا ما انتهى إليه «الخليل بن أحمد» ، فوضع تلك الطريقة التي عابها الناس الآن ، وأصبح للشكل ثمانى علامات : الفتحة ، والضمة ، والكسرة ، والسكون ، والشدة ، والمدة ، والصلة ، والهمزة .

وأخذ المشاركة بهذه الطريقة ، وأبأها الأندلسيون أولا ، ثم مالوا إليها ثانياً .

ومن الخط الكوفي أنبتق الخط الغربي ، وهو من أقدم الخطوط العربية ، وهو يسود شمال إفريقيا



ش : ١
صفحة من مصحف علي بن ابي طالب . القرن الثاني الهجري



ش : ٢
صفحة من مصحف بانطال الكوفي . القرن الثاني الهجري

غير مصر ، وكان قديماً يسمى الخط القبرواني - دبة إلى القبروان - عاصمة المغرب بعد الفتح الإسلامي سنة ٥٥٠ (ش : ٦)

يأيها الناس ضرباً مبراً فاستمعوا للذم الذي
قرعهم في ذمهم الذي تجلفوا ذباً بل ولوا اجتماعوا
لهم وانزل عليهم الذليل شيطاً يستنقزو له
فمنه ضعف الطالبا والمطلوباً فادروا الله
حق قدره يا أيها الذين آمنوا من الله يحكمكم
من الملك كبرئيد وسيد ومن الناس أراة الله سميع
بصم
١٥ زيبع النخل كتبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه
ابن مرساة المداكية بكنة سنة التي يتورق ونواحيها
من المغرب ابن فخر قناع ٣٥٣

ش : ٦

الآيات من ٧٣ - ٧٥ من سورة الحج بالخط المغربي

وحيث انتقلت العاصمة من القبروان إلى الأندلس ظهر خط جديد سمي الخط الأندلسي ، أو القرطبي ، وكان مستدير الشكل ، على العكس من الخط المغربي الذي كان مستطيلاً (ش : ٧) .

خط الأندلسي

ش : ٧

خط أندلسي

وكذا تفرع من هذا الخط المغربي خط آخر في السودان ، وذلك بعد أن شاع الإسلام في أواسط إفريقيا ، وأصبحت نمبكتو ، التي أسست سنة ١٥٦٠ ، مركزاً إسلامياً ، وإليها عزى الخط النيبكتي : أو السودانى ، وهو يتميز عن غيره بكبره وغلظه .

وحين انتهى الخط العربي إلى العصر الحديث أصبح نجمة أقلام مختلفة ، وهي : قلم الثلث ، قلم النسخ ، قلم الرقعة ، القلم الفارسي ، القلم الديواني ، قلم التعليق * ويسمى : الإجازة ، وهو بين الثلث والنسخ ، القلم الريحاني ، القلم الكوفي ، القلم للغربي .

- ٣ -

وقد قدمنا أن أول من أجاد خط المصاحف «خالد بن أبي المهاجر» ، ثم جاء على إثره من كانوا على فهم بالتذهيب والزخرفة ، نذكر منهم : إبراهيم الصغير ، واليعقوبي ، وأباموسى بن عمار ، وابن السفلى ، وأبا عبد الله الخزيمي ، ومحمد بن محمد الهداني .

وكان نمة خطاطون وقفوا أقلامهم على كتاب الله لا يخطون غيره ، ومنهم من كتب من المصاحف كثيرة كثيرة ، أيام أن لم تكن مطابع .

ولقد شجع اللوك والسلاطين هؤلاء الخطاطين على كتابة المصاحف ، التي كانوا يحبسونها على المساجد ، بما أغدقوا عليهم من نهم .

وقد أحصى الخُصُون لتريق من الخطاطين ، الذين وقفوا أقلامهم على كتابة المصاحف ، ما كتبوا من مصاحف ، فإذا هذا الإحصاء يطالملك بأن منهم من كتب ألف مصحف ، مثل : محمد بن عمر عرب زاده ، وأن منهم من كتب خمسمائة ، أو قريباً منها ، مثل : ابن الخازن الحسين بن علي ، والقيصري محمد بن أحمد ، والكردى عمر بن محمد .

وكان من بين هؤلاء الخطاطين من له ألوان من الإبداع في كتابة كتاب الله ، منهم من كتب للمصاحف في ثلاثين ورقة ، وهو اللاهوري محمد روح الله .

فلقد كتب مصنفين على هذا النحو متزاماً بأن يكون أول كل سطر من الأسطر كلمة أو لها حرف الألف ، غير السطر الأول .

وكتب على بن محمد مصحفاً في درج من الورق بقلم النسخ ، طوله سبعة أمتار وعرضه ثمانية سنتيمترات . ومن هذه الإبداعات جملة تحتفظ بها دار الكتب المصرية ، ومكتبة الأزهر ، ومكتبة الروضة بالديانة . كما أن نمة مصاحف بدار الكتب المصرية بخطوط مختلفة ، منها :

١ - مصحف بالخط الكوفي ، وهو صورة مصورة عن مصحف عثمان ، رضى الله عنه .

٢ - مصحف بقلم كوفي على رق غزال ، يقال إنه بقلم الإمام جعفر الصادق (١٤٨) هـ .

٣ - مصحف بخط ياقوت المتعصمي (٦٧٩ هـ) بقلم نسخ مشكول ومنقوط ومذهب ومجدول .
٤ - مصحف السلطان برقوق ، بقلم عبد الرحمن الصائغ (٨٠١ هـ) ، وقد كتبه في ستين يوماً .
هذا إلى مصاحف أخرى يبلغ عددها نحواً من تسعة وثمانين ومائة (١٨٩ هـ) منها سبعة وعشرون بخط الكوفي .

وعلى الرغم من شيوع الطباعة فلا تزال الكثرة من المصاحف يهدد بكتابتها إلى خطاطين معروفين ،
ثم تصور لتطبع بعد ذلك .

٢٦ - هذا المصحف
وهذا المصحف الذي تقدمه لك كتبه بخطه شيخ القاري . المصرية ، محمد بن هلي بن خلف الحميني ،
وكان من أعضاء اللجنة الأولى التي ألفت سنة ١٣٢٧ هـ ، منه :

١ - حفي ناصف .

٢ - معطفي عنان .

٣ - أحمد الإسكندري .

٤ - نصر المادلي .

(ح) .

الإشراف على مراجعة كتاب الله قبل طبعه ، فقامت بضبطه على ما يوافق رواية حفص بن سليمان
ابن المغيرة الأسدي الكوفي لقراءة عامر بن أبي النجود الكوفي القاسمي ، عن أبي عبد الرحمن عبد الله
ابن حبيب السلمي ، عن عثمان بن عفان ، وهلي بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، عن النبي
صلى الله عليه وسلم .

وأخذ هواؤه مما رواه علماء الرسم عن المصاحف التي بعث بها عثمان بن عفان إلى البصرة والكوفة
والشام ومكة ، والمصحف الذي جهده لأهل المدينة ، والمصحف الذي اختص به نفسه ، وعن المصاحف
النسوخة منها .

وكل حرف من حروفه يتفق ونظيره في كل مصحف من تلك المصاحف الستة ، وكان الاعتماد في ذلك
كله على منظومة الشريشي انطراز محمد بن محمد « مورد الظهآن » ، وشرحها لعبد الواحد بن عاشر الأنصاري
الأندلسي .

أما عن ضبطه فكان يوفق ما جاء عن علماء الضبط في كتاب « الطراز على ضبط الخراز » للإمام « التنجيسى » ، مع إحلل علامات « الخليل بن أحمد » وأتباعه من الشارقة محل علامات الأندلسيين .
وكان الاسترشاد في عد آياته بما جاء في كتاب « ناظمة الزهر » للشاطبي ، وشرحها للمخللاتي أبي عبيد رضوان ، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي ، وكتاب « تحقيق البيان » لشيخ القراء بالديار المصرية محمد المتولى .

وهذه الكتب كلها تنتهي أخذاً عن الكوفيين ، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلي ، عن علي بن أبي طالب ، وهي متفقة على أن عدد آي القرآن الكريم : ٦٢٣٦

أما عن بيان أوائل أجزاءه المقيمة ثلاثين ، وأجزائه المتمة ستين ، وأرباعها فهذا مستق من كتاب « غيث النفع » لسفاحسى ، و « ناظمة الزهر » وشرحها ، و « تحقيق البيان » ، و « إرشاد القراء والكاتبين » للمخللاتي أبي عبيد رضوان .

وعن هذه الكتب المتقدمة ، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي ، وكتب القراءات والتفسير ، كان يبين السكى والذنى .

وإلى شيخ القارئ المصرية محمد بن علي بن خلف الحسيني كان بيان الوقوف وعلاماتها .

وكان الاعتماد في بيان السجدات وأما كتبها على كتب الفقه في المذاهب الأربعة .

كما كان أخذ بيان السكتات الواجبة عند حفص من « الشاطبية » وشرحها .

هذا كله كان جهد اللجنة الأولى ، وما من شك في أنه كان جهداً عظيماً ، غير أنه حين فكر في طبع

هذا المصحف طبعه ثانية سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م - وهي هذه التي بين يديك - ألفت لهذا الغرض

لجنة ، من :

١ - علي محمد الضباع .

٢ - محمد علي النجار .

٣ - عبد الفتاح القاضي .

٤ - عبد الحليم بسيوني .

٥ - أحمد عبد العليم البردوني .

٦ - إبراهيم إطفيش

وكان على هذه اللجنة أن تنظر في المصحف نظرة ثانية ، فإذا هي نستدرك على الطبعة الأولى أشياء قليلة ، منها ما هو خاص بالرسم ، ومنها ما هو خاص بالضبط ، ومنها ما هو خاص بالوقوف ، ومنها ما هو خاص بترجمات السور ، وما هي ذي تلك الاستدراكات ، وقد أدخلت كلها على الطبعة الثانية التي تضمنها هذه الموسوعة :

السكامة	الآية	السورة	الطبعة الأولى	الطبعة الثانية
كلمة	١٢٧	الأعراف ٥٧٥	بتاء مربوطة	بتاء مفتوحة « كلت » . وقد أجمعت جميع الأطراف عن حذفها على الوقف عليها بالتاء ، مراعاة لرسمها .
لطاقين	٥٥	ص ٥٣٨٥	بالألف بعد الطاء	كتبت فيها بدونها ، كما رسم في الآيتين : ٣٠ ، الصفات ٥٣٧٥ ٣١ ، القلم ٥٨٨٥
	٢٢	البراء ٥٧٨		

٢ - الضبط :

(أ) كلمة « قائم » من قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) الرعد ١٣ : ٣٣ ، كتبت الممزة فوق صورة الياء ، وحقها أن تكتب تحتها على الأصل كمنظاتها في المصحف .

(ب) ضبطت في أواخر بعض السور وأوائل تالياتها كلمات ضبطاً مهنياً على أساس أن آخر السورة موصول بأول التي تليها ، من غير اعتداد بالبسمة بين السورتين ، وهذا لا يتفق وطريقة حفص ، إذ أن جميع الطرق عنه مجمعة على الفصل بالبسمة بين السورتين .

فهرست

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الباب الأول			
حياة الرسول ﷺ			
الجزيرة العربية قبل بعث الرسول ﷺ		٣٦	مبعث ﷺ
الإرهاصات بمولد الرسول ﷺ		٣٨	بدء التنزيل
نسب الرسول ﷺ		٣٩	فرض الصلاة
ولاية البيت ﷺ		٤٠	إسلام علي بن أبي طالب
ولاية فصي البيت ﷺ		٤١	إسلام زيد بن حارثة
ولاية هاشم بن عبد مناف الرقادة والسقاية		٤٢	إسلام أبي بكر
ولاية المطلب ثم عبد المطلب ما كان يليه هاشم		٤٢	من أسلم بدعوة أبي بكر
حفر زمزم		٤٣	من أسلموا بعد ذلك
نذر عبد المطلب		٤٤	الجهار بالدعوة
زواج عبد الله بآمنة		٤٨	تأمر قريش على المسلمين
ولادته ﷺ		٥٠	مالقى الرسول من قومه
حديث رضاعة الرسول ﷺ		٥١	إسلام حمزة
وفاة أمه وكفالة جده عبد المطلب له		٥٢	ما كان بين عتبة والرسول
موت عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له		٥٤	الرسول وأشرف قومه
حديث بحيرى الراهب		٥٧	أول من جهر بالقرآن
زواجه ﷺ من خديجة		٥٨	استماع قريش إلى قراءة الرسول
خلاف قريش في بيان الكعبة		٥٩	عدوان قريش على المستضعفين من المسلمين
علم اليهود والنصارى بمبعثه ﷺ		٦٠	الهجرة الأولى إلى الحبشة
		٦٢	إسلام عمر بن الخطاب
		٦٦	تحالف الكفار وحديث الصحيفة
		٦٧	مالقى الرسول من أذى قومه

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٤	حديث بئر معونة	٧١	رجوع مهاجري الحبشة
١٨٦	إجلاء بني النضير	٧٢	ابن مظعون ورده لجوار الوليد
١٨٨	غزوة ذات الرقاع	٧٣	استجارة أبي سلمة بأبي طالب
١٨٩	غزوة بدر الآخرة	٧٤	أبو بكر ورده لجواز ابن الدخنة
١٨٩	غزوة دومة الجندل	٧٥	نقض الصحيفة
١٩٠	غزوة الخندق	٧٧	إسلام الطفيل بن عمرو
٢٠٧	غزوة بني لحيان	٧٩	الإسراء والمعراج
٢٠٨	غزوة ذي قرد	٨٠	خروج الرسول إلى الطائف
٢٠٩	غزوة بني المصطلق	٨٢	عرض الرسول نفسه على قبائل مكة
٢١٣	حديث الإفك	٨٤	إسلام الأنصار
٢١٩	حديث الحديبية	٨٦	مبايعة الأنصار للرسول
٢٢٤	بيعة الرضوان	٩٠	الهجرة إلى المدينة
٢٢٥	الهدنة	٩٤	هجرة الرسول إلى المدينة
٢٢٨	غزوة خيبر	١٠٢	مسجد الرسول بالمدينة وبيته
٢٣١	عمرة القضاء	١٠٤	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٢٣٢	غزوة مؤتة	١٠٥	حديث الأذان
٢٣٥	فتح مكة	١٠٦	الرسول ويهود المدينة
٢٤٣	غزوة حنين	١١٣	حديث المباحلة
٢٤٦	غزوة الطائف	١١٥	من أخبار منافق المدينة
٢٥١	غزوة تبوك	١١٧	غزواته <small>عليه السلام</small>
٢٥٩	إسلام ثقيف	١٢١	غزوة بدر
٢٦١	حج ابن أبي بكر بالناس	١٥٥	غزوة السويق
٢٦١	سنة الوفود	١٥٦	غزوة ذي إمر
٢٧٢	حجة الوداع	١٥٦	غزوة الفرع
٢٧٤	مرضه <small>عليه السلام</small> وموته	١٥٦	حديث بني قينقاع
٢٨٢	زواجه <small>عليه السلام</small>	١٥٨	سرية زيد
٢٨٥	سرايه <small>عليه السلام</small>	١٥٨	مقتل كعب بن الأشرف
٢٨٦	أولاده <small>عليه السلام</small>	١٥٩	غزوة أحد
٢٨٦	أعمامه وعماته <small>عليه السلام</small>	١٨١	يوم الرجيع

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٩١	مؤذنوه ﷺ	٢٨٧	جداله ﷺ
٢٩٢	شعرالزه ﷺ	٢٨٨	إخوته ﷺ
٢٩٢	سلاحه ﷺ	٢٨٩	خدمه ﷺ
٢٩٢	دوابه ﷺ	٢٩٠	موالية ﷺ
٢٩٤	تلخيص وتعقيب	٢٩١	كابه ﷺ

الباب الثاني

تأريخ القرآن الكريم

٣٥٨	تعقيب على كتب المصاحف	٣٢٣	أمية الرسول
٣٦٤	القراءات	٣٢٦	نزول الوحي
٣٦٧	القراء	٣٢٧	ترتيب نزول السور
٣٦٩	رأى قبية في القراءات	٣٣٢	عدد المكي والمدني
٣٧١	تعقيب على القراءات	٣٣٢	عدد الآيات
٣٧٢	رسم المصحف	٣٣٨	أسماء السور
٣٧٦	كتابة المصحف وطبعه	٣٣٩	ترتيب السور
٣٧٨	تجزئة المصحف	٣٤٥	الحكمة في نزول القرآن منجماً
٣٨٢	الناسخ والمنسوخ	٣٤٧	نزول القرآن على سبعة أحرف
	الحكم والمثابه والحروف المقطعة	٣٤٧	اسم كتاب الله
٣٨٥	في أوائل السور	٣٤٨	جمع القرآن
٣٨٩	البسمة والامتعاذة والسجدة	٣٤٩	مصحف عثمان
٣٩٠	كتاب المصحف	٣٥٥	كتب المصاحف

رقم الايداع ٤٤٠٨ لسنة ١٩٨٤

مطابع سجل العرب